محمد سعيد رمضان البوطي

... وهذه مشكلاتنا

- مشكلة الجدلية المضنية بين المعلم والتلميذ .
- مشكلة ما يسمى بالثوابت والمتغيرات .
- مشكلة الانشغال عن الدعوة بأحلام المجتمع الاسلامي .
- مشكلة الوجود الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد .
- مشكلة المعرفة وعلاجها في حياتنا الفكرية المعاصرة .
- مشكلة العلاقة بين العلم والدين .
- مشكلة الثقافة الإسلامية .
- مشكلة العلوم الإنسانية في جامعاتنا الإسلامية .

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمدُ لله حَمْداً يُوافي نِعَمَهُ ويُكافئُ مَزيْدَه. يا ربَّنا لك الحَمدُ كما يَنبَغي لجَلالِ وَجْهِك وعظيمِ سُلطانِكَ. والصّلاة والسَّلام على سَيّدِنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصَحبهِ أجمَعينَ. اللهمَّ عَلِّمْنَا ما يَنفعُنا وانفَعْنا بِمَا عَلَّمْتَنَا وزِدنا عِلماً، وَاجْمعْ كَلِمَتَنا على ما يُرضيْكَ، وارْزُقْنا نِعْمَةَ الإخلاصِ لوَجهِكَ الكريْم.

بين يدي الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب

شاء الله أن يرى هذا الكتاب اهتماماً متجدداً، من مؤسسة دار الفكر بدمشق، بعد الاهتمام الذي حظي به مدة طويلة من مكتبة الفارابي بدمشق. رحم الله مؤسسها الشيخ موفق قنطار.

والحق أقول، والكتاب على أعتاب ولادة جديدة له: ألا تزال المشكلات التي أبرزتها وحاولت معالجتها فيه، موجودة تعلن عن نفسها؟..

أليس فيها ما اضمحلّ من خلال يقظة إسلامية واعية اتجهت إلى حلّها والتغلّب عليها؟

أظن أن فيها الكثير مما عالجه وعي أمتنا المتزايد مع الأيام بحمد الله.. وأظن أن للمصائب التي أفرزتها هذه المشكلات دوراً كبيراً في التنبه إليها والعمل على حلّها..

ولعلّ الأيام القادمة، طالت أو قصرت، تحمل بشائر التحرر منها. والله هو وليّ كل توفيق.

دمشق ١٤ ربيع الآخر ١٤٢٩
١٩ نيسان ٢٠٠٨

محمد سعيد رمضان البوطي

مقَدِّمَة الطبْعَةِ الثّالثَة

هذه هي الطبعة الثالثة تصدر بحمد الله لهذا الكتاب الذي لم يتجاوز عمره سبعين يوماً؛ أقدمها إلى القراء، دون أن أجد ما يدعوني إلى إصلاح خطأ، أو إيضاح مبهم، وذلك بعد أن تداركت في الطبعة الثانية منه ما قد تسرَّب إليه من أخطاء طباعية، نبَّهني إلى كثير منها بعض الإخوة القراء.

وليس معنى هذا أن جميع الذين قرؤوا الكتاب أو قرؤوا فصولاً منه، موافقون لكل ما قد ورد فيه، فتلك أمنية كانت ولا تزال مستعصية على التنفيذ.. ألم يقولوا قديماً: رضا الناس غاية لا تدرك؟..

ولكن الذي أعنيه أن أحداً من الإخوة القراء لم يواجهني بشيء من الملاحظات. هذا على الرغم من أنني أعلن دائماً عن رغبتي الملحة في أن أتلقى التنبيه إلى أي خطأ ينبغي تصحيحه، أو نقص ينبغي إكماله، ممن قد يعثر في هذا الكتاب أو غيره على شيء من ذلك. وليس بيني وبين أن أبادر إلى تنفيذ هذا الواجب إلَّا أن أجلس إلى هذا الأخ فأفهم منه قصده، ثم نتحاور في ذلك إن كان الأمر خاضعاً للنظر والحوار. ذلك لأنه

لا يمكن أن يتبيَّن الخطأ المتسرب أو النقص الواقع، إلا بعد مثل هذا النظر والتمحيص.

وهذا ما لم يواجهني به أحد من القراء إلى هذا التاريخ.

* * *

غير أني أسمع بين الحين والآخر عن انتقادات من بعض الناس لبعض ما قد ورد في هذا الكتاب أو غيره. ومن المؤسف أنني لا أملك أمام انتقاداتهم إلا الحيرة والعجب!..

ذلك لأنهم لا يبوحون بمواقفهم وأفكارهم الانتقادية، إلا من وراء حجاب. فإذا ارتفعت الحجب وكان التلاقي، اختفت الانتقادات، وحلَّ في مكانها الإِطراء والثناء!..

ترى على ماذا يدل هذا الموقف؟ وما الموجب له؟

لست أدري، ولعلَّ من الخير أن لا أدري.. كل ما يهمني أن أقوله، هو أنه ليس في الناس أياً كانوا، معصوم عن الخطأ فيما يفهم، أو عن السهو فيما ينقل، حاشا الرسل والأنبياء.

وإذا كان التعاون من أسس المجتمع الإسلامي، ومن أخصّ مهامّ المسلمين فيما بينهم، فإن معنى التعاون في خدمة الإسلام وعلومه إنما يتمثل في أن يدعم المسلم أخاه، وأن يؤيده في الحق إن أصابه، وأن يوقظه إلى الخطأ إن هو دنا منه أو وقع فيه، ولا يتم ذلك إلا من خلال تلاق وحوار.

* * *

كل ما أملك أن أقوله بعد هذا، وبمناسبة صدور الطبعة الثالثة لهذا الكتاب، هو أن الله عزَّ وجل قد جعل لما يوفقني لإصداره من المؤلفات، قبولاً في أفئدة جمهرة كبيرة من الناس. وإني لأخشى أن يكون ذلك فتنة لي وابتلاء لنفسي.. والخطر الأدهى من هذا أن يتراءى لي من هذا الإقبال دليلُ عصمة عن الخطأ أو تسام عن السهو.

وإني لأستعيذ بالله من فتنة تنسيني حقيقة عجزي وضعفي، مردداً دعاءً غالياً وجَّهَته إليَّ قارئةٌ فاضلة من الجزائر، قائلة: أسأل الله أن يأخذك من نفسك.

أجل.. هذا ما أنا بأمس الحاجة إليه، وهذا هو الدعاء الذي ينبغي أن أجأر به في كل صباح ومساء: أسألك اللهم أن تأخذني من نفسي، حتى لا أغيب عن واقع ضعفي وعجزي، وحتى لا أشرد لحظة واحدة عن حاجة التجائي إلى حمايتك وتوفيقك، وعن حقيقة اصطباغي بنعيم توحيدك.

والله المستعان، وعليه التكلان. والحمد لله ربِّ العالمين.

دمشق في ٢٧ رجب ١٤١٤هـ
الموافق لـ ٩ كانون الثاني ١٩٩٤م
محمّد سعيد رمضان البوطي

مُقَدِّمَة

هذه مشكلاتنا بعد: هذه مشكلاتهم

عندما أصدرت كتابي: «هذه مشكلاتهم» كنت أعني بهذا العنوان، أن المشكلات التي عالجتها في ذلك الكتاب، جواباً عن أسئلة طرحت عليَّ حولها، مشكلات وهمية، جسَّدتها أخيلة أولئك الذين ابتدعوها ثم تخيلوها ثم تطارحوها فيما بيننا عن قصد.

وماذا عسى أن يكون هذا القصد، سوى تعكير أسباب الرؤية الصافية لتاريخنا ولمبادئنا ولقادة حضارتنا؟ وذلك ابتغاء نزع جسور الثقة مما بيننا وبين ذلك كله!..

وأعتقد أن ما جاء في مضمون ذلك الكتاب قد حقق ما رمى إليه عنوانه، وأيَّده كل التأييد. فقد تبين، من خلال سلسلة طبعاته الكثيرة التي صدرت وانتشرت وسرعان ما نفدت، ومن خلال ما رأيت وسمعت من مدى تجاوب القراء معه، أنها فعلاً مشكلات وهمية مفتعلة، ومن ثم فهي مشكلات أولئك الذين طاب لهم أن يفتعلوها فيتوهموها، بل يوهموا الناس وجودها!.. إنها مشكلاتهم هم، وليست مشكلاتنا نحن.

ولكني تساءلت بعد ذلك:

أليست في حياتنا اليوم مشكلات حقيقية نعاني منها، وتحتاج إلى اهتمام بها ومعالجة جادة لها؟.

ولم تكن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى طول فكر وتأمل. فمشكلاتنا اليوم كثيرة، وإن مجتمعنا العربي والإسلامي ليعجُّ بها ويرزح تحت ثقلها. والحاجة ماسّة إلى إبرازها ثم معالجتها والعمل على التخلص منها.

وإنه لعجيب حقاً أن نُسأل عن مشكلات وهمية لا وجود لها إلا في رؤوس المتخيلين أو المبتدعين لها، دون أن نُسأل عن المشكلات الحقيقية التي هي موجودة فعلاً في مجتمعاتنا!!..

ليس هذا هو المهم الذي ينبغي أن يشغلنا، على كل حال.

إنما المهم أن نعلم أننا نعاني من مشكلات فعلاً، وأننا عندما أكدنا أن كل الذي طرح علينا، وأجبنا عنه في ذلك الكتاب، مشكلات وهمية مفتعلة، لم نكن نزعم لأنفسنا بذلك عصمة أو ننعت أنفسنا بمثالية منزهة عن الأخطاء والمشكلات. فمشكلاتنا اليوم كثيرة، وهذه التي سأعالجها في هذا الكتاب طائفة من أهمها. ولذا سميته: وهذه مشكلاتنا.

ولقد قلت: إن ما انتهيت إليه في كتاب «هذه مشكلاتهم» لاقى قبولاً كبيراً من الناس ويقيناً بكل الذي قلت[1]. ترى هل

---

(١) طبعاً باستثناء أولئك الذين أنفقوا جهداً كبيراً وطويلاً في اصطناع تلك المشكلات وإخراجها ثم ترويجها، إذ من العسير بدون شك أن يطيب أحدهم نفساً بما يراه من خسارة الجهد الذي أنفقه والأحلام التي بناها.

سيلاقي هذا الذي انتهيت إليه في كتاب «.. وهذه مشكلاتنا» القبول واليقين ذاتهما؟.

لا يبدو أن الأمرين سواء.. ذلك لأن العمل الأول تبرئة، وهذا اتهام، وليس الَّذي يبرِّئ كالَّذي يتهم.

غير أن هذه الحقيقة تجسِّد المشكلة الكبرى في حياتنا؛ إنها مشكلة رفض الاتهام، ومن ثم مشكلة عدم الخضوع للحوار والنقاش، في غيرية وموضوعية صافيتين. لذا فقد آثرت أن أضعها في أول قائمة المشكلات التي بذلت ما أمكنني من الجهد في معالجتها، بل لقد جعلت من معالجتها فاتحة السعي إلى معالجة المشكلات الأخرى، وهي التي جعلت عنوانها «مشكلة الجدلية المضنية بين المعلم والتلميذ».

إذ ماذا عسى أن تثمر معالجة سائر المشكلات التي عالجتها فعلاً في هذا الكتاب، إذا كانت هذه الجدلية المضنية قائمة؟.

كان لي في أفئدة ملايين الشباب المسلمين في الجزائر تقدير منقطع النظير، وثقة لا حدَّ لها، يوم كانت كلماتي ونصائحي لا تصادم لهم شعوراً ولا تناقض في أنفسهم هوى.. حتى إذا استشرت بين جوانح كثير منهم روح الثأر واهتاجت لديهم عوامل الانتقام، للأحداث المعروفة التي جرت هناك، وأخذْتُ أناشدهم من قريب وبعيد ألا يزجّوا أنفسهم من تلك اللواعج في تيه يضللهم عن شرع الله وينأى بهم عن وصية رسول الله ﷺ، إذا بتقدير كثير منهم قد ذاب واضمحلَّ، وإذا بالثقة التي لا حدَّ لها قد تحوَّلت إلى ريبةٍ وظِنَّةٍ، بل وتجهيل!..

لقد كان عليَّ، لأحافظ على رصيد تقديرهم الكبير لي وثقتهم بي، أن أسير مع عواطفهم، بل مع رعوناتهم، أنى سارت، وأن أصفق لهتافاتهم وشعاراتهم أيّاً كانت!..

ولكن، أين هو الوفاء إذن مع أمر الله عز وجل؟.. أين هو الوفاء مع الميثاق الذي أخذه الله على عباده الذين ائتمنهم على تبليغ كلمة الحق: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧]؟.

عليَّ أن أبلغ ما أعرفه من أمر الله وشرعه، وللآخرين أن يقبلوا أو لا يقبلوا.. أن يثقوا أو يرتابوا.. ولأن يرضى الله عني بارتيابهم أو سخطهم خير من أن تصفق لي الدنيا بأسرها..

* * *

ثم إن فصول هذا الكتاب تتضمن - كما قلت - أهم المشكلات التي يجب السعي إلى تفهمها ثم معالجتها.

وهي مشكلات اجتماعية، ودينية، وثقافية، وسياسية.. وأعتقد أن السادة القراء، على اختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم، سيشاطرونني الرأي في معالجة كثير منها، غير أن فيهم من قد لا يتفق معي في وجه المعالجة لبعض آخر منها، وهي تلك المشكلات التي تتصادم حلولها مع أهوائهم أو عواطفهم أو لواعجهم النفسية..

ولو استطعت أن أنتزع من أفئدتهم هذه الأهواء أو اللواعج،

لفعلت.. وإذن لاتفقنا على الحق ولما غشت عليه الرعونات والأهواء.

ونظراً إلى أنني لا أستطيع ذلك، إذ ليست مقاليد الأفئدة إلَّا بيد الله عزَّ وجلَّ؛ فإن واجبي يقف عند حدود بيان ما قد عرفت أنه الحق، بعيداً عن الحظوظ والمصالح والأهواء.

والله هو المسؤول أن يطهر قلوبنا من الشوائب ويجمعها على الحق، وأن يستجيب دعاءنا عندما ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٣/٨].

دمشق ٢٥ صفر ١٤١٤
١٣ آب ١٩٩٣
محمّد سعيد رمضان البوطي

مشكلة الجدليّة المضنية

بين المُعَلِّمِ والتِّلْميذ

لو أتيح لأحدنا أن يجلس فيعلم نفسه، لاستراح وأراح؛ ولما برزت المشكلة التي أصبحت اليوم بحاجة إلى حل، وهي: المعلم والتلميذ، أيهما التابع وأيهما المتبوع؟

ولكن، نظراً إلى ثقتنا المطلقة بالله وبحكمته، فقد أيقنَّا أن الخير كله فيما قضى الله وقدَّر.. أيقنا أنه لا بدَّ لسعادة الجنس البشري من التآلف.. ولا تآلف بدون تعاون. ولا يتحقق التعاون إلَّا عند الاحتياج. ومن أبرز مظاهر الاحتياج ما لا مناص منه؛ من حاجة الجاهل إلى العالم!..

إذن، فلا بدَّ إن كانت السعادة مطلبنا الحقيقي، من الاستسلام لهذا التدبير الرباني، بل لا مفر من الثقة المطلقة بأن في ذلك الخيرَ كلَّه.. لا بدَّ للإنسان من العلم.. ولا بدَّ لعملية التعلم من ركنين أساسيين: معلم ومتعلم. ولا بدَّ أن يؤدي كل منهما ضريبة النظام الرباني، في علاقة ما بين هذين الطرفين، وهي تتلخص في أن يخلص الأول منهما في عملية البيان والتعليم والإرشاد، وأن يوليه الثاني في مقابل ذلك كامل ثقته.

مشكلة الجدليّة المضنية

بين المُعَلِّمِ والتِّلْميذ

لو أتيح لأحدنا أن يجلس فيعلم نفسه، لاستراح وأراح؛ ولما برزت المشكلة التي أصبحت اليوم بحاجة إلى حل، وهي: المعلم والتلميذ، أيهما التابع وأيهما المتبوع؟

ولكن، نظراً إلى ثقتنا المطلقة بالله وبحكمته، فقد أيقنَّا أن الخير كله فيما قضى الله وقدَّر.. أيقنا أنه لا بدَّ لسعادة الجنس البشري من التآلف.. ولا تآلف بدون تعاون. ولا يتحقق التعاون إلَّا عند الاحتياج. ومن أبرز مظاهر الاحتياج ما لا مناص منه؛ من حاجة الجاهل إلى العالم!..

إذن، فلا بدَّ إن كانت السعادة مطلبنا الحقيقي، من الاستسلام لهذا التدبير الرباني، بل لا مفر من الثقة المطلقة بأن في ذلك الخيرَ كلَّه.. لا بدَّ للإنسان من العلم.. ولا بدَّ لعملية التعلم من ركنين أساسيين: معلم ومتعلم. ولا بدَّ أن يؤدي كل منهما ضريبة النظام الرباني، في علاقة ما بين هذين الطرفين، وهي تتلخص في أن يخلص الأول منهما في عملية البيان والتعليم والإرشاد، وأن يوليه الثاني في مقابل ذلك كامل ثقته.

ولا فرق في هذا بين أنواع العلوم؛ بل هي سنة ماضية في علوم الدنيا والآخرة مهما تعددت أو تنوعت.

❊ ❊ ❊

غير أننا نشهد في هذا العصر جدلية عجيبة في طريقة التعلم والمعرفة، لا سيما في نطاق المعارف الدينية وأصول الدعوة الإسلامية، ففي الوقت الذي يُطلب من المعلم أو الداعي أن يعلِّم الناس وينشر الدعوة الإسلامية على أصولها السليمة، يُطلب منه أيضاً أن يستلهم قواعد هذه الأصول وضوابطها من العامة الذين يعلمهم أو يثقفهم ويرشدهم!..

ومهما كانت منطلقات العامة ومقاييسها في الفهم والحكم واتخاذ القرارات، مزاجيةً ونفسيةً، ومهما كانت بعيدة عن المنطق وقواعد الدين، فإن على المرشد أو المعلم أن يتبع ما تحكم به أمزجة هؤلاء العوام وتتشهاه أهواؤهم النفسية!..

والثقة هنا أيضاً واردة ومطلوبة، ولكن عن أن تنعكس فتتحول إلى ثقة العالم بالعامة الذين يعلِّمهم، بدلاً من أن تكون ثقة الجاهل أو العامي بالعالم الناصح الذي يتلقون منه!..

وواضح أننا إنما نتكلم هنا على العالم الذي ثبت فعلاً أنه عالم، واتضح فعلاً إخلاصه في تعليم الناس ودعوتهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وتبيَّن أنه لا يمتطي عمله هذا ليسعى به إلى مغنم أو ليفرَّ به من مغرم. أقصد المغانم والمغارم الدنيوية طبعاً.

ترى كيف يمكن أن تسير عملية التعريف بالإسلام ودعوة الناس إليه على نهج سليم، عندما تخضع لهذه الجدلية المقلوبة؟

وإذا ثبت بطلان الأخيلة الجدلية في عالم المادة وتطوراتها، فكيف يمكن لهذا البطلان أن يتحول إلى حق، عندما تتسرب هذه الأخيلة إلى نطاق بث الدعوة الإسلامية، والتعريف بالإسلام وحكمه؟!..

ولكن، مما لا ريب فيه أن مشكلة الخضوع لهذه الجدلية المتناقضة، تقع في بعض الأحيان على عاتق العلماء أنفسهم.. فقد استقر لدى هذا البعض منهم أن احترام العامة وتبجيلهم لهم، يجب أن يكون رأس مال حياتهم الاجتماعية، بل ينبغي أن يشكِّل الدعامة الأولى للقيمة العلمية التي يحملونها ويتعاملون بها بين الناس!..

ومن المؤلم حقاً أن هذا التطلع أو التصور، لا يحوم إلَّا في أذهان بعض علماء الدين!..

فأنت لا تجد، ولعلك لم تسمع بأن عالماً من علماء الطبيعيات، أخلص لرغبات الناس وأمزجتهم، بدلاً من أن يخلص لحقائق علمه، وما أظن أنك قد رأيت أو سمعت قط، عن أحدٍ منهم جعل من أهواء الناس وأمزجتهم سلَّم الصعود إلى السُّمو والمجد.. بل كان الناس ولا يزالون هم الذين يُخضعون رغباتهم وأهواءهم لقرارات هؤلاء العلماء وأحكامهم دون العكس.

ترى ما سرُّ هذه المفارقة، بل هذا التناقض بين موقف علماء الطبيعة والدنيا، وموقف بعض علماء الدين الإسلامي؟ لماذا يخلص أولئك لعلومهم بمقدار ما يخلص هؤلاء لأمزجة الناس وأهوائهم؟! وكلمة (الناس) هنا تشمل - كما هو واضح - فئاتهم وطبقاتهم جميعاً بمن فيهم من القادة والحكام.

لست أدري لذلك، إلى الآن، إلّا سراً واحداً، هو أن ثمرات الإخلاص للعلوم الدنيوية ماثلة وجاهزة.. ومن ثم فلا موجب لأي تفريط فيها أو تضحية بها، حتى ولو أثمرت هذه التضحية سمعة طيبة بين الناس. أما ثمرات الإخلاص لعلوم الدين وأعمال الدعوة والإرشاد، فمؤجلة ومخبوءة في تلافيف الغيب عند الله.

وكما قلت لك، إن الناس الذين أعنيهم هنا هم كل الناس بمن فيهم القادة والحكام والمواطنون من عامة الشعب.

والقرار العلمي الحق في ذلك كله، هو أنه ما ينبغي للعالم، أياً كان، أن يصانع أياً من فئات الناس، على حساب الحقائق العلمية، دينية كانت أو دنيوية. وما ينبغي أن يصطنع البطولة في إغضاب أيٍّ منهما لإرضاء الآخر.

ويقيننا الذي لا ريب فيه، أن الذين يتقربون إلى عامة الناس، باستثارة الحكام والطعن فيهم، ليسوا أقل سوءاً ممن يتقربون إلى الحكام بظلم الناس أو الإساءة إليهم، ما دام القصد في الحالين شيئاً آخر غير مرضاة الله عزَّ وجلَّ، أو غير

الانتصار للحق من حيث هو.. ذلك لأن الخطأ لا تتفاوت خطورته باختلاف مصدره، كما أن الصواب لا تتناقص قيمته من أجل السبب ذاته.

وإذا تأملت في حال كثير ممن يصطنعون البطولات في مواقفهم السلبية أو خصوماتهم مع الحكام، علمت أنهم إنما يصبُّون بطولاتهم هذه في مواقفهم الاسترضائية من عامة الناس.. فأي رصيد يبقى لهذه البطولة التي لا تكتسح في طريقها إلَّا الحقيقة العلمية، التي تتم التضحية بها من خلال مناورة بسيطة، استرضاءً للرغبات، واستدراراً لثناءات الناس؟!..

وانظر، لتزداد هذه الحقيقة جلاء أمام بصرك وبصيرتك، إلى فرق ما بين هذين الموقفين التاليين في مثالين واقعيين:

١- كنا نتناقش في أمر من أمور الدعوة الإسلامية وأصولها، وكنت أبرر هذا الموقف وأدعو إليه موقناً بأنه الحق.. فقال لي صاحبي - وهو واحد من رجال الدعوة والعلم -: يجب أن نراعي رضا الناس، ونكون على حذر من سخطهم وانتقادهم!..

وواضح أنني لم أجد سبيلاً، بعد أن قال هذه الكلمة، إلى مناقشته، أو أملاً في تغيير رأيه.

فهذا هو الموقف الأول، وإليك الموقف الثاني:

٢- في نهاية لقاء جماهيري كبير، سئل أحدهم - والمسؤول هنا أيضاً واحد من رجال الدعوة وأهل العلم - عن موقفه من أزمة معينة استأثرت باهتمام الناس.

فقال مجيباً: إن كان هذا السؤال امتحاناً لي، كي تصنفوني، في النتيجة، في قائمة المرضيِّ عنهم، أو المغضوب عليهم، فليضعني السائل سلفاً في أي القائمتين شاء. وإن كان السؤال صادراً عن رغبة في المعرفة وعن استعداد للاستفادة، فبوسعي أن أجيب عن كل ما هو مطلوب، إذ هي وظيفتي التي أقامني الله عليها في هذه الحياة[١].

فانظر إلى بعد ما بين هذين الموقفين، بل تأمل في الأثر الاجتماعي الخطير الذي يحدثه كل منهما.

* * *

ولكنا نعود فنقول: فهب أن واحداً من هؤلاء العامة، اعتذر بأنه لا يستطيع أن يقصي عواطفه المحبة أو الكارهة، عن مجال الحكم على مواقف العلماء والدعاة الإسلاميين، نظراً إلى أن الشأن في كثير من الأحداث والمشكلات الجارية، أن تجمِّع في قاع النفس البشرية، عند جمهرة كبيرة من الناس، كثيراً من مشاعر المرارة أو الكراهة تجاه أشخاص أو أحداث أو مواقف. ومهما خالف المنطق هذه المشاعر، فلا مناص من التأثر بها أو الخضوع لها، كما أنه لا سبيل إلى التحرر منها. ولذا فمهما اتخذ الدعاة والمرشدون مواقف مخالفة لمشاعرهم هذه، لا بدَّ من أن تكون الغلبة لما توحي به مشاعرهم تلك،

(١) لإزالة الوهم، أوضح أنني لم أكن أنا صاحب هذا الجواب، كما ظن بعض قراء الطبعة الأولى.

لا للحق أو المنطق الذي يقرره أولئك المرشدون والدعاة.. فما العمل، وما السبيل في هذه الحالة للقضاء على سلطان هذه المشاعر؟

وأقول في الجواب: إن المشكلة في أصلها إنما تكمن في تغليب مشاعر النفس وأهوائها على موازين العقل وأحكامه. وهي مشكلة قديمة ومستعصية.

ولكن، ما أيسر أن تقضي التربية الإسلامية الصحيحة عليها. وما أكثر ما تحدَّث القرآن عنها، وحذَّر منها؛ ألم يقل الله عزَّ وجل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧١] أَوَ لم يقل أيضاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٦]

إن سبيل حل هذه المشكلة ميسر ومفتوح؛ وهو سبيل التشبع بالإسلام وهديه، وشعور القلب بعظمة الله تعالى والمخافة منه.

وأنت تعلم أن الانتماء إلى الإسلام شيء والتشبع أو الاصطباغ بهدي الإسلام شيء آخر. فما لم يصطبغ المسلم بحقائق الإسلام، حباً ومهابة وتعظيماً، فلسوف تظل الأهواء هي الحاكمة على العقل. وما أيسر، عندئذٍ، أن يحتال الإنسان للتوفيق بين مقتضيات أهوائه ومظاهر إسلامه.. بل ما أيسر أن يجعل من إسلامه محامياً عن مطالب أمزجته وأهوائه.

فلئن كان هؤلاء الناس يعرفون بأن رواسب الأهواء هي المشكلة التي تأسرهم وتقود مشاعرهم، فما عليهم، بادئ ذي

بدء، إلَّا أن يعترفوا بهذا الذي يعرفون، حتى لا يلبِّسوا على أنفسهم ولا على الناس، ولا يصوروا لهم الباطل حقاً والحق باطلاً.. ثم عليهم بعد ذلك أن يأخذوا أنفسهم بتربية إسلامية جادَّة، طبقاً لما هو مرسوم في كتاب الله وهدي نبيه ﷺ.. فإن من شأن ذلك أن يحررهم من سلطان أهوائهم وعصبياتهم، وأن ييسر لهم الإصغاء إلى صوت العقل واتباعَ أحكامه.

وقد يبدو هذا الأمر عسيراً. ولكن مهما يكن فإن من اليسير أن ينطق أحدنا لسانه بالحق الذي يعرفه، وإن كان لا يستطيع التعامل معه.. وهذه خطوة مباركة كبيرة، وهي كافية مبدئياً لحلِّ المشكلة.

بل إنه لجهاد مبرور أن يعرض أحدنا عن نداء غرائزه وأهوائه، ليذعن لقرارات عقله وأحكام دينه، وإن لم يتجاوز الأمر مرحلة الاعتراف والإذعان.. ولا شك أن الثبات والاستمرار في الإذعان للحق، مع الاستعانة بذكر الله ومراقبته سيخمد أخيراً جذوة تلك الأهواء، وسيهيمن صوت العقل والحق، ويتحول الصراع إلى سكينة ورضا.

ولكن، أين هو ذكر الله، وأين هي مواقيته، من حياة أكثر المرشدين والدعاة إلى الله، قبل أن نقول: من حياة هؤلاء العوام من الناس؟.. لقد قلت، ولا أزال أقول: إنه الجانب المنسي في حياة كثيرٍ من المسلمين اليوم.

❊ ❊ ❊

بقي أن نعلم الواجب المترتب، في حلِّ هذه المشكلة، على

الطرف الآخر.. أي على العالم المهتم بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الله عزَّ وجل.

إن الواجب على العالم المهتم بإرشاد الناس ودعوتهم إلى الله عز وجل، أن يتحقق فيه أولاً العلم بعقائد الإسلام وأحكامه، وبآداب الدعوة إلى الله والمنهج الشرعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم التقيد بذلك كله.

ومن المعلوم أن كلمة (عالم) أو (مرشد) أصبحت اليوم ثوباً فضفاضاً يتسع لأشكال وفئات شتى من الناس، فيهم العالم فعلاً والجاهل وأنصاف العلماء، والمتذرعون بمهنة التعليم والإرشاد إلى غايات وأهداف دنيوية مجردة.

والمطلوب منه ثانياً أن يخلص في دعوته إلى الله عزَّ وجلَّ؛ فلا تتغلب عليه رغبة في مال أو شهرة أو زعامة أو منصب.. ولا تقوده في طريقه هذا مخافة من غير الله ولا مطمع في غير مرضاة الله. وسيان أن يكون هذا (الغير) متمثلاً في سطوة القادة والحكام، أو في انتقاد الناس وسلاطة ألسنتهم.

والحق أن الإخلاص لوجه الله سرٌّ يضعه الله عز وجل في قلب من أحب من عباده، فلا يُنال بالمصانعة والتكلف. ولكن يمكن أن يناله الإنسان بالإكثار من مراقبة الله وذكره، وبدوام التضرع والالتجاء إليه.

والمطلوب منه ثالثاً أن يسلك مسالك الحكمة في كل ما هو بصدده، ومع فئات الناس كلهم.

والحكمة هي سلوك أقرب الطرق إلى بلوغ الغاية، على أن يكون هذا الطريق مشروعاً غير محرم.. وهذا يعني أن الحكمة غير محصورة في مسالك الرقة واللين، كما أنها ليست متناقضة مع مسالك القسوة والشدة دائماً. وإنما العبرة في مشروعية موافقتها أو مخالفتها لكل من اللين والقسوة، ملاحظة مدى القرب أو البعد من الغاية المطلوبة.

ومن المعلوم بداهة أن سيدنا رسول الله ﷺ كان حكيماً في دعوته المسالمة إذ كان في مكة، وكان حكيماً في جهاده القتالي عندما استقر في المدينة.

ومن المهم أن نعلم أن الحكمة في الدعوة - بعد الانضباط بأحكامها وقواعدها - لا تنبثق من قواعد محددة وأصول معينة مرسومة.. ومن ثم فهي لا تخضع لإمكان النقاش في ضوابطها والتعريف بالكيفية الدقيقة في ممارستها. كل ما في الأمر أن الساحة التي نتحرك فيها يجب أن تكون خالية من المحرمات والمنهيات الشرعية، وأن العمل ينبغي أن يكون منضبطاً بموازين الشرع وأحكامه.

ومن هنا، فإن الجدل الذي يثور في كثير من الأحيان بين الأطراف، في موقف ما؛ أهو موقف حكيم أم لا، جدل عقيم لا يتوقع الوصول منه إلى أي اتفاق، لا سيما عندما يكون أحد الطرفين من عامة الناس والآخر من العلماء المشهود لهم بالاستقامة والعلم. وليس من سبيل لإنهاء الجدل إلَّا أن يذعن

الجاهل في طمأنينة واثقة، بسلامة ما يراه ويجزم به من ثبت في الناس علمه وعرفت استقامته.

فإذا تكاملت هذه المطالب الثلاثة في شخص العالم المرشد والداعي إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن عليه بعد ذلك أن يعرض عن أمزجة الناس وأهوائهم، وألَّا يبالي بما تتشهاه نفوسهم وتطمح إليه عصبياتهم؛ ولا شك أنه لن يجني - إن هو استسلم لأهوائهم - إلَّا التمزق فيما بينها، فضلاً عن أنه قد يقع فيما هو أخطر من ذلك، ألا وهو الاستعاضة عن رضا الله برضا الناس.

على أنه مهما حاول أن يكتسب القرب من الناس وبلوغ رضاهم، فإنه لن يبلغ من ذلك شيئاً، بل سيتمزق حاله بين مواقف الراضين والغاضبين والعاتبين. والنتيجة الأخيرة أنه يخسر رضا الله عزَّ وجلَّ ثم لا ينال ما ضحى برضا الله من أجله؛ وهو بلوغ رضا الناس.

وإنما يُعجِبُ الناسَ من العالم والداعي إلى الله أن يبتعد عن نقدهم وتتبع أخطائهم، ثم ينصرف مشتغلاً بنقد القادة والحكام وتفنيد أخطائهم وانحرافاتهم. ومهما تشاغل المرشد والداعي عن الأخطاء التي يفور بها المجتمع، في أسواق التعامل، أو السياسة المالية، أو الأخلاق المنزلية، أو نحو ذلك، ثم حصر نشاطه في إعلان النكير على الحكام والتنديد بأخطائهم، كان أعلى شأواً في نظر النَّاس، وأحرى أن يوصف بالبطولة والصدع بكلمة الحق، وأن ينتزع من أكفِّهم التصفيق.

فأما ذاك الذي يضع الناس جميعاً، على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم ومسؤولياتهم، في ميزان واحد من واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما أسرع ما يتبرمون به ويتأففون من مواقفه وتذكيراته، وما أكثر من يشكو منه قائلاً: ألم يرَ أمامه من منكرات الدنيا إلَّا هذا الذي يلاحقنا من أجله؟ ألم يكن أحرى به إذ أصر على المقاومة والإنكار، أن يعلم بأن الله أمر بالستر؟.

وإني لأعلم أن في هذه البلدة من العلماء من أنكر بلطفٍ شدَّة اعتماد كثرة من التجار في دعاياتهم التجارية على المرأة وعنصر الاستثارة، فضجَّ هؤلاء التجار وضاقوا ذرعاً بهذه التذكرة!..

وأعلم أن فيهم من أنكر البذخ المستشري بفنونه ومظاهره المختلفة، في حفلات العقود والأعراس، فثار أبطال هذا البذخ، ورأوا أن النكير كل النكير، يتمثل في هذا الإنكار الجارح الذي لا يليق «!!!».. كما أن فيهم من أنكر بدع المساجد والإلحاح على إغراقها في الزينة والزخرف والنقوش، مذكراً بنهي رسول الله ﷺ عن ذلك، مناشداً لجانها وعمَّارها أن يتبعوا الاعتدال في الأمر. فما كان منهم إلَّا التذمر من هذا التذكير واستشناع الخوض في هذا الأمر!.. وقام من نبه جماعات أو منظمات أو مؤسسات إلى أخطاء أو منكرات تسربت، يجدر العمل على تصحيحها أو التخلص منها، فهب

لدى تلك الجماعات والمنظمات من ذلك غضب امتدَّ ولم يتراجع، وثار دون أن يهدأ!..

ولو أن هؤلاء المرشدين والعلماء تحولوا عن هذه المغامرات المثيرة والجارحة، وتسلَّوا بدلاً عن ذلك بنقد الحكام وتتبع أخطائهم، لكان لهم في ذلك ما يغني، ولتبوؤوا مركز البطولة والجهاد في أعين كل هذه الفئات والجماعات!!..

مرشدون.. ولكن عليهم أن يتلقوا الإرشاد والتعليمات من عامة الناس!..

علماء.. ولكن عليهم أن يتقيدوا في تعاملهم بعلومهم، بالتعليمات التي يبصِّرهم بها هؤلاء الناس!..

أليست هذه هي الجدلية المضنية، والفتنة المستشرية؟!.. ولكن ما الحل؟..

الحلُّ أن يبتغي العالم في عمله وجه الله، وأن ينشد في مساعيه مرضاته.. وإذا هو متحرر من جاذبية الأفلاك البشرية كلها، مهما علوا أو نزلوا. وعندئذٍ يقف من الدنيا فوق المنبر الذي أقامه الله فيه، يلاحظ منه الناسَ كلهم دون تمييز أو تفريق. فمهما رأى بوارق الخير والمعروف أيدها ودعا إليها، ويسَّر مزيداً من السبيل إليها، أيّاً كان مصدر هذه البوارق، ومهما رأى ظلل الشر والمنكر، حذَّر منها ونصح بالابتعاد عنها، مهما كان مصدرها هي الأخرى، وليجعل رأس ماله فيما يأمر به وينهى عنه حبه لعباد الله كلهم وإشفاقه عليهم ورحمته بهم.

وليجعل أنيسه في هذه الرحلة حديث رسول الله ﷺ، فيما رواه الترمذي من حديث عائشة: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤونة الناس».

وليعلم أن من غاص في بحار التوحيد، حجب عن الناس وعن أطماعه فيهم، فهان عليه ألَّا يهتم إلا برضا الله عزَّ وجلَّ. أمَّا من غاص في بحار الدنيا وأهوائها فلا ريب أن ذلك يحجبه عن رؤية الله والاصطباغ بحقائق وحدانيته، ومن ثم فإنه لا يهتم إلا برضا الناس، إذ إنه لا يرى غيرهم أمامه، على أنه لن ينال من اهتمامه هذا منالاً يسعده.

فاللهم أسعدنا بشهود وحدانيتك، حتى لا نرى في الكون سواك، فلا نطمع إلا بمرضاتك ولا نخشى إلا من سخطك.

مُشْكِلَةُ ما يُسَمَّى بـ:

الثوابت والمتغيّرات في الإسلام

مما لا شك فيه أن كلمة «الثوابت والمتغيرات» هذه، من المصطلحات الحديثة التي طرحت في هذا العصر، بل في السنوات الأخيرة. ومهما أصغينا إلى كلام الأقدمين في الإسلام وإلى معالجتهم لمشكلاتهم معه، فلن نقع على كلمة الثوابت والمتغيرات أبداً..

أجل، إنها كلمة استحدثت في هذا العصر، ربما تعبيراً عن مشكلة ورغبة في الوصول إلى حلٍّ لها.

فلنجارِ القوم في هذا المصطلح، ولنسر قدماً لنرى مدى انطباقه، بشطريه، على الإسلام الحقيقي الذي تنزل من عند الله عزَّ وجلَّ.

إننا عندما نحاول أن نفهم ما يسمى بالثوابت والمتغيرات في الإسلام، يسبق إلى ذهننا تصور مفاده أو خلاصته أن الإسلام يحوي نوعين من الحقائق الإسلامية:

النوع الأول: حقائق ثابتة راسخة، قد ضربت جذورها في أقصى حدود الزمان والمكان، فهي لا تتغير ولا تتبدل.

النوع الثاني: حقائق أخرى هي عرضة للتغير والتبدل والتناسخ.

والمطلوب منا أن نتصور ونصدق بأن كلا النوعين، من الحقائق الداخلة في جوهر الإسلام.. فهل الأمر في الواقع كذلك؟

لا بدَّ أن نبدأ فنصفِّي هذه الرؤية من الشوائب، قبل أن نخوض فيما تدل عليه هاتان الكلمتان:

إن الإسلام مجموعة حقائق ثابتة، سواء أكانت اعتقادية أم سلوكية.. وما أظن أن بوسعنا أن نسمي الحقيقة حقيقة إلَّا إن كانت ثابتة راسخة. ومهما رأينا عَرضاً من الأعراض خاضعاً للتبدل والتغير، غير قابل للثبات والرسوخ فهو أبعد ما يكون عن أن يسمى حقيقة. وقديماً فرقوا بين الحقيقة والعرض بأن الحقيقة هي الذات الثابتة، أما العرض فهو ما لا يبقى على حاله، حتى لمدة وحدتين زمانيتين.

وإذا كان الأمر كذلك، فأعتقد أن بوسعنا أن ندرك أن المتغيرات لا يمكن أن تدخل في حقائق الإسلام، أي لا يمكن أن تدخل فيما نسميه: البنية الذاتية للإسلام.

ولأضرب أمثلة تبرز هذا المعنى وتوضحه:

إننا نعلم أن من الحقائق التي يتكون منها الإسلام، أن الإنسان عبد لله عزَّ وجلَّ، فهو يتصف بأقصى معاني العبودية له. ولا شك أنها حقيقة ثابتة لا تتبدل مع الزمن، وكما أنها

حقيقة ثابتة مستقرة، فظلّها وآثارها أيضاً ثابتة ومستقرة. أي إن ممارسة الإنسان لمعاني العبادة والعبودية لله، بكل فروعها، ينبغي أن تكون هي الأخرى ثابتة.

ومن الحقائق الجوهرية في الإسلام أن الله عزَّ وجلَّ هو الفعال والمتحكم بناصية الكون، بل بكل أجزائه. وإذا كانت هذه الحقيقة ثابتة لا تتبدل مع تبدل الأزمان ولا خلال الأمكنة المتباعدة، فإن ما يترتب عليها، من دينونة الإنسان لهذا الإله رباً، والسير على نهجه الذي رسمه له، هو الآخر حقيقة ثابتة لا يمكن أن تتبدل على مر العصور ولا على اختلاف الأمكنة والبلدان.

ومهما خضنا في عالم الأسباب والمسببات الظاهرة، ومهما غرقنا في نطاق الفاعليات المادية المترائية، فإن المنطق يقرر أن الفاعلية دائماً، وخلال ذلك كله، إنما هي لله وحده، إذ هو مسبب الأسباب أجمع؛ ومهما اختلفت بنا الأمكنة أو فرقتنا الأزمنة، فينبغي أن يكون تفاعلنا مع هذه الحقيقة أمراً ثابتاً مستقراً. إذن فاستجابتنا لهذه الحقيقة الدائمة، وهي الدينونة بالولاء لهذا الإله، ينبغي أن تكون هي الأخرى دائمة.

ومن الحقائق الجوهرية، في نطاق الأحكام السلوكية، أن العدالة في التعامل هي الضمانة التي لا بدَّ منها لتحقيق مصالح الناس وتوازنها في حياتهم أفراداً وجماعات، وهي حقيقة راسخة تمخر حواجز القرون والدهور دون أن يسري إليها أي تبدل أو تطور. إذن فخضوعنا لمقتضيات هذه الحقيقة ينبغي أن

يكون هو الآخر ثابتاً ومستمراً لا يلحقه أي تغيير أو تبديل. ولا شك أن الخضوع لموازين العدالة الثابتة، يندرج تحته أحكام جزئية كثيرة تتكون منها سدى ولحمة العدالة بمعناها الكلي العام، ومن ثم فإن هذه الأحكام الجزئية ينبغي أن تظل هي الأخرى راسخة ثابتة.

وهل الإسلام إلَّا هذا؟.. عقائد تنعكس عن وقائع كونية ثابتة، وشرائع وأحكام تنعكس على موازين العدالة التي هي الأخرى حقيقة ثابتة. أجل، هذا هو الإسلام؛ جذور من العقائد الراسخة، وأغصان من الأحكام السلوكية الباسقة.

وإذا كان الأمر كذلك، فأحسب أننا قد انتهينا إلى قرار هو أن الإسلام - بما يتضمنه من عقائد وأحكام - كله ثوابت، ولا متغيرات فيه.

ولكن على الرغم من وضوح هذه الحقيقة، فإن هنالك من يصرُّ على أن الإسلام يحوي أركاناً ثابتة مستقرة، ويحوي في الوقت ذاته فروعاً وجزئيات تذهب وتجيء طبق مقتضيات محدودة. وربما استشهد هؤلاء بما قاله العلماء من قبل: حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله، وبقولهم: تتبدل الأحكام بتبدل الأزمان، وبما انتهوا إليه في بحوثهم العلمية من أن الشارع إذا رسم علة للحكم، فإن الحكم يدور مع علته أنى دارت العلة.

والجواب أننا نعود فنؤكد مرة أخرى أن حقائق الإسلام تتصف دائماً بالاستمرارية والثبات، ولكن هذه الحقائق تتصل

بأفانين ونماذج تطبيقية من شؤوننا الحياتية السلوكية، وهذه النماذج والأفانين التطبيقية لا شأن لها بما نسميه حقائق الإسلام إطلاقاً. كل ما في الأمر أن هذه الحقائق الراسخة توجهنا إلى أن نتعامل مع هذه النماذج الحياتية والأنشطة العمرانية والحضارية، طبق ما يقتضيه سلطان تلك الحقائق: أي طبق ما يتفق وعبودية الإنسان لله، طبق ما يتفق مع السير على منهج العدالة الراسخة الذي رسمه بيان الله، وهذا ينبهنا إلى أن هذه الأنشطة الحياتية والحضارية المتنوعة، لا تدخل بحدِّ ذاتها تحت ما نسميه حقائق الإسلام وأحكامه الثابتة، وإنما تهيمن الحقائق الإسلامية عليها، بحيث لا تتحرك هذه الأنشطة المتنوعة إلا تحت سلطانها وبهدي منها.

ونقول بعبارة أخرى: إن الحقائق الإسلامية كلها ثابتة لا تتطور، ولكنها تبعث المسلمين على أن يطوروا أنشطتهم وفعالياتهم، وأن يسيروا بها قدماً طبق ما تقتضيه مصالحهم التي حدد الإسلام ببيان راسخ معالمها وأنواعها، وأقام سلَّم الأولويات لتنسيق ما بينها. وهذه الأنشطة أو المصالح ما كانت داخلة يوماً ما في شيء من حقائق الإسلام ولبابه. وفرق كبير بين قولنا إن الإسلام يتطور ويخضع للإصلاحات التي ينبغي أن نتداركه بها (وهذا خطأ فادح) وبين قولنا إن الإسلام ثابت في حقائقه وأحكامه كلها، ولكنه يبعث المسلمين على تطوير حياتهم طبقاً لنهج معين وسلم مرسوم (وهذا كلام سليم لا إشكال فيه).

ولو عقل هؤلاء الذين يظلون ينعتون الإسلام بالتطور - من منطلق المدح له فيما يزعمون - لعلموا أن الدِّين الذي يتطور مع الزمن، مآله إلى الزوال والاندثار، وأن الدين الذي يبعث أتباعه ومعتنقيه على التطور في مدارج الصلاح المستمر، يجب أن يكون ثابتاً وراسخاً بحدِّ ذاته، وما ثباته إلَّا بثبات مبادئه وأركانه وأحكامه.

وهكذا كان تعامل المسلمين مع إسلامهم في العصور الثلاثة الأولى من عمر الإسلام؛ لم يبدِّلوا من أحكامه شروى نقير، ولكنهم طوروا أنفسهم في الوقت ذاته، على هديه وبإيعاز منه، أكثر مما طور المسلمون أنفسهم بعد ذلك إلى يومنا هذا.

ولأضرب بعض الأمثلة لتجلية هذه الحقيقة:

* إن من الحقائق الإسلامية الثابتة، وجوب النهوض بالدعوة إلى الله وتعريف الناس بالإسلام، وتحبيبه إليهم وأمرهم بعد ذلك بالمعروف ونهيهم عن المنكر. وحسبنا دليلاً على أن هذا واحد من الأحكام الجوهرية للإسلام، قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]، وهو من ثم حكم ثابت لا يلحقه أي تغيير أو تبديل.

غير أن هذا الحكم يتصل بأنشطة سلوكية كثيرة في حياتنا وواقعنا المعاش، تتصل ببناء الجامعات وإقامة المؤسسات التعليمية والتثقيفية، والعكوف على إخراج المؤلفات العلمية التي تخدم هذا الحكم، كما يتصل بإنشاء دور نشر ومطابع

والاستعانة بأجهزة إعلام، وإيجاد مناخات ملائمة للنقاش والحوار، وكل ذلك خاضع للتطور تحت عوامل اختلاف الأزمنة والأمكنة، وتبدُّل الوسائل وتطورها بموجب التقدم أو التخلف الحضاري.

إن الحكم المتصل بهذه الأنشطة، على الرغم من ثباته ورسوخه مع الزمن، يبعث المسلمين على أن يطوروا هذه الأنشطة الخادمة له ما أمكنهم، وأن يبعثوها في كل فترة من الزمن بعثاً جديداً بحيث يكون ذلك ضمانة لاستمرار تطبيق هذا الحكم، بل ضمانة لاستمرار جدَّته وبقاء حيويته.

* وإن من الحقائق الإسلامية الثابتة أن للإنسان أن يمتع نفسه بكل ما قد أباحه الله عزَّ وجلَّ، بل يجب عليه ألَّا يحرِّم على نفسه ما قد أباحه الله له، كما يجب عليه ألَّا يجعل من المباحات وسيلة إلى محرَّم كالفخر والخيلاء والبذخ، وهذا من المبادئ التي نص عليها كتاب الله عزَّ وجلَّ في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١]. وقوله: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥].

إن هذا الحكم، بكل ضوابطه وذيوله، من الأحكام الثابتة التي لا تتبدل مع الزمن أبداً. غير أنه يهيمن على أنشطة كثيرة في حياتنا، ويفتح أمامنا آفاقاً لا حدَّ لها من التطور المعاشي ضمن نطاق هذا الحكم.

فأنا - مثلاً - أستطيع تحت سلطان هذا الحكم أن أختار من الثياب ما أشاء، أي أن ألبس الجلباب أو أرتدي السترة والبنطال، ثم إنني أملك الخيار في أن أجعله جلباباً طويلاً إلى ما تحت منتصف الساق، أو قصيراً إلى ما دون الركبة إن شئت، كما أن لي الحق في أن أتفنن في الحلة التي أرتديها من حيث سائر الأشكال والمواصفات. وأنا أملك أن أؤثّث داري على النحو الذي يروق لي وبالطريقة التي تنسجم مع مزاجي الشخصي، على أن ألتزم في أثناء ذلك كله بالضوابط والقيود التي ورد الحكم الشرعي المذكور مقيّداً بها.

إن هذا الحكم، مزوداً بضوابطه وقيوده، مستمر ثابت لا يتبدل، وما قد يعده بعض الناس تبدلاً وتغيراً له، إنما هو تنويع لحالات هذا الحكم وتطبيق لوجوهه.

فالخيلاء بالثوب الذي يلبس، أو الطعام الذي يؤكل، أو الأثاث الذي يستعمل، محرم دائماً. ولما كان العرب في صدر الإسلام يجعلون طول الثوب وجره على الأرض تعبيراً عن التعاظم والخيلاء، كان ذلك العمل محرماً، إذ كان تعبيراً عن صفة محرمة.. فلو أن العادة انعكست بحيث أصبح قصر الجلباب تعبيراً عن الكبر والخيلاء، فإن الحرمة تتحول إليه، ويعود طول الجلباب إلى أصل الإباحة.

أليس بوسعك إذن أن تلاحظ أن الحكم في حقيقته إنما هو النهي عن التعاظم والخيلاء، وهو محور ثابت مستقر تدور عليه الأعراف والعادات.. ثم أن تلاحظ مدى الخطأ الذي يقع فيه

أولئك الذين وضعوا العادات المتبدلة محل المحور الثابت، ومن ثم زعموا أن أحكاماً إسلامية تتطور وتتبدل، وكان بوسعهم، لو تأملوا، أن يدركوا بأن تطبيقات الحكم الثابت الدائم هي التي تطورت وتبدلت، لا الحكم الأساسي الذي هو، في الحقيقة، حرمة التباهي والخيلاء، في أي مظهر تبدَّى، وبأي عمل تُرْجم؟

يدلُّ على ذلك قول رسول الله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»(١)، ويزيده وضوحاً وتأكيداً أن أبا بكر رضي الله عنه لـمَّا أفزعه طول الثوب الذي ارتداه ذات مرة، وخشي أن يصبح بذلك في عداد من قد تَهَدَّدَهم رسول الله ﷺ في الحديث السَّابق، جاء يسأل عن ذلك النبي ﷺ، فطمأنه قائلاً: «ولكنَّك لا تلبسه خيلاء».

* وإن من الأحكام والمبادئ الثابتة أن من تشبه بقوم فهو منهم(٢). وإن في الناس من يظن أنه حكم يتبدل ويتطور مع الزمن؛ ولكنهم لو تأملوا وأمعنوا النظر، لعلموا أن الذي يتطور ويتبدل إنما هو تطبيقات هذا الحكم، وهي لا تتبدل إلَّا تحت سلطان هذا المبدأ الثابت المستمر.

أرأيت إلى هذه الثياب التي يرتديها أكثرنا اليوم، إنها وفدت إلينا ذات يوم من الغرب بدافع من التشبه والتقليد آنذاك،

(١) الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) هو حديث نبوي رواه أبو داوود في سننه والطبراني في الأوسط، وبقطع النظر عن صحته أو ضعفه فهو قاعدة فقهية تدور عليها أحكام اعتقادية وسلوكية كثيرة.

ولا شك أن ارتداءها آنذاك بذلك القصد كان محرماً.. أما اليوم وقد ذاب هذا القصد وانمحى من الأذهان لطول العهد، فقد زالت معه الحرمة ودخل في ساحة المباحات الواسعة التي هي الأصل في كل شيء.. وواضح أن الذي تطور هو قصد التشبه وعدمه، أما الحكم فثابت مستمر، يتجلّى ويتحقق حيث يوجد مناطه وهو قصد التشبه، ويزول أو يختفي حيث يزول مناطه هذا.

وكالثياب في هذا الذي نقول، التفنن في العمران وطراز الأبنية، واستحداث الوسائل الجديدة للنقل، واتباع ما هو أكثر لياقة أو راحة أو جمالاً في تأثيث البيوت وإنشاء المرافق، ونحو ذلك مما يدخل في عموم الوسائل الحضارية المباحة.. إن ذلك كله يدخل في عموم ما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢]، حتى إذا داخل شيئاً من ذلك قصد التشبه بالكافرين من حيث كفرهم، أو قصد التباهي والتفاخر على الأقران، تحقق بذلك مناط الحرمة، وسرى حكمها في هذه التصرفات، تطبيقاً لمبدأ دائم لا يتغير.

ولا أزال أشهد جدلاً لا معنى له، في بعض من بلادنا، حول هذا الرداء الذي يسمَّى (المانطو) والرداء الآخر الذي يسمى (الجلباب)؛ أيهما الثوب المتفق مع حكم الله عزَّ وجلَّ وشرعه في حق المرأة؟ ولطالما امتد هذا الجدل بين فئات من النساء أو الرجال، حتى سرى من جراء ذلك الغيظ أو الحقد إلى النفوس، فوقع الطرفان من ذلك فيما هو محرَّم بالاتفاق، دون أن يشعر بذلك أي من أطراف الجدل والخصام.

ولو رجع الكل إلى حكم الشرع بفقهٍ وروية، لعلموا أن للشرع في ذلك حكماً ثابتاً لا يتغير، هو أن على المرأة أن تلبس ثوباً لا يحكي شيئاً من زينة جسمها وحجم بدنها، وألَّا يكون أقصر من نصف الساق، ولو ازداد طولاً لكان أفضل.. ثم إن لك أن تسمي هذا الثوب بما شئت من الأسماء القديمة أو المستحدثة، فإن اختلاف الاسم لا مدخل له في تغيير الحكم.

وكأن الوهم الذي سرى إلى ذهن هؤلاء الناس، هو تصور أن كلمة (الجلباب) التي عبَّر بها القرآن في قوله عزَّ وجلَ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٩] هي مناط الوجوب في أمر الله وحكمه مهما تطور أو اختلف طرازه، وأن كل ما سواها من الكلمات هو مناط الحرمة الشرعية مهما اختلف مفهومه وطرازه.

غير أنَّ مما يجب على كلِّ مثقَّف أن يعلمه علماً أولياً لا خلاف فيه، أنَّ الأحكام لا تناط بالأسماء والألفاظ، وإنما تناط بالمعاني والمفاهيم[1].

---

(١)فهم بعض القراء، أو شاؤوا أن يفهموا كلامي هذا، فهماً معوجاً؛ فراحوا يعجبون ويشنّعون، أنّي أفتيٍ بأن تستر المرأة أمام الرجال الأجانب من جسمها إلى نصف الساق، ولها أن تبرز القدم وما فوقه عارياً عن أي ستر!.. فلنسدّ سبيل عبث العابثين بكلامي الواضح الذي كتبته بهذا التعليق الموجز عن عورة المرأة أمام الرجال الأجانب:

(١) من المتفق عليه أن ما عدا الوجه والكفين هو عورة المرأة في الصلاة، وأمام الرجال الأجانب عنها. إذ الدليل عليها هنا وهناك قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٢٤/ ٣١] ثم اختلف الفقهاء في إضافة الوجه والكفين إليها، بالنسبة إلى الأجانب.

(٢) قرر الفقهاء أن المراد بستر العورة في الصلاة سترها بما لا يصف لون البشرة، =

* مثال آخر نسوقه لبيان هذه الحقيقة، وهي أن كل ما يتضمّنه

= من ثوب صفيق ونحوه، فلو ستر الثوبُ اللون ولكنه وصف حجم البشرة صحت الصلاة. قال في حاشية التحفة: فلو صلت بسراويل ضيقة صحت صلاتها. أقول: وكالسراويل من باب أولى الجوارب الغليظة التي تعتمد المرأة اليوم عليها في ستر قدميها وأدنى ساقيها.

٣) كان من مقتضى صحة صلاة المرأة بالسراويل الضيقة أن يجوز رؤية الرجال الأجانب لها بهذا المظهر؛ نظراً إلى أن معنى العورة في الصلاة وأمام الأجانب واحد، كما قرر الفقهاء، وهو ستر لون البشرة بثوب صفيق؛ ولكن لما كان هذا المظهر مظنة فتنة فقد حرم الفقهاء إبراز القدر الذي هو مبعث للشهوة من ذلك أمام الأجانب، وإن كانت العورة بمعناها الشرعي مستورة.. ونظراً إلى أن القدمين المستورين بجورب غليظ وما يعلو فوقهما إلى نصف الساق وقيل ربعه، لا يثير منظرهما شهوة ولا يبعث على فتنة، فقد جاز إبرازهما، عملاً بالأصل الذي هو الاكتفاء بستر العورة، وذلك بأن يكون طول الرداء أو الجلباب أو ما يسمى المانطو إلى نصف الساق، بحيث يكون ما دون ذلك مستوراً بجورب غليظ، وإن كان الأفضل أن يكون الثوب سابغاً إلى الكعبين.

وأساس ذلك ما رواه الحاكم على شرط البخاري، والترمذي، وأبو داوود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة». قالت أم سلمة: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟ قال: «يرخين شبراً» فقالت: إذن تنكشف أقدامهن. (ومن المعلوم أن النساء لم يكن يلبسن الجوارب آنذاك) قال: «فيرخينه ذراعاً لا يزدن على ذلك».

والخلاصة أن على المرأة أن تطيل ثوبها بالقدر الذي يستر حتى وجه القدمين أمام الأجانب، إن كانت لا تلبس جورباً، ويجوز أن تجعل طوله إلى نصف الساق، مع لبس جورب غليظ لا يحكي لون البشرة، مع الكراهة التنزيهية، لأن هذا هو المعني في الأصل بستر العورة، ولأن هذا القدر المستور بجورب غليظ ليس مبعثاً للفتنة. وليس بين كلامي في (وهذه مشكلاتنا) وفي (إلى كل فتاةٍ تؤمن بالله) أي تعارض. ولعل الذي استشكل كلامي توهم أنني أجيز أن يكون طول الجلباب إلى منتصف الساق مع ظهور الرجلين بدون جورب. وهو وهم باطل ما ينبغي أن يخطر في بال متدبر عالم باليسير من أحكام الفقه.

انظر المجموع للنووي: ٣/ ١٧١ و ١٧٢، والتحفة لابن حجر مع حواشيها: ٢/ ١١٢، وبدائع الصنائع للكاساني: ٥/ ١٢٢، والمغني لابن قدامة: ١/ ٥٠٣ وغيرها من كتب الفقه.

الإسلام من المبادئ والأحكام، ثوابت راسخة لا تتغير؛ وهو أنَّ على المسلم أن يعلم ويوقن بأن الله عزَّ وجلَّ منزَّه عن الشبيه والنظير. ومهما تطورت أفكارنا أو تبدلت أقطارنا أو اتَّسعت علومنا، فإنَّ هذه العقيدة تظلُّ أساساً ثابتاً راسخاً من أسس الإسلام وحقيقته، ومصدر ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ٤].

فإذا استقرَّ هذا اليقين لديك، فإن أمامك بعد ذلك ساحة واسعة من المتغيرات الاجتهادية تملك التنقل في رحابها، إذ هي ليست من جوهر الدين.. أي بوسعك إذا قرأت قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٠] أن تذهب مذهب المفوضين، فتفهم أن لله يداً كما قال عن نفسه تليق بألوهيته ووحدانيته وتنزّهه عن الشبيه والمثيل، وأن تذهب مذهب المؤولين فتفسِّر اليد بالقوة والغلبة.. ذلك لأن ما هو داخل في جوهر الدين وأصوله الاعتقادية بالنسبة إلى هذه الآية وأمثالها، أن توقن بأن لله يداً كما قال، وبأنه منزَّه في الوقت ذاته عن الشبيه والمثيل. أمَّا ما وراء ذلك من الوقوف عند ظاهر هذه الكلمة وتفويض المعنى المراد بها إلى علم الله عزَّ وجلَّ، أو من تأويلها بأحد الوجوه اللغوية المقبولة لغةً، فهو جهد اجتهادي يسع الباحث أن يتحرك وأن يتطور في ساحته طبق الظروف السائدة والفهوم البلاغية الرائجة، ومن ثم فهو ليس جزءاً من العقائد الإيمانية الجوهرية الثابتة.

ولقد أطال الإمام الخطابي في بيان أثر اختلاف حال الناس ما بين التسليم الإيماني المفوِّض، والتطلّع العلمي إلى القناعة عن طريق النقاش، في ضرورة انتقاء ما هو الأنسب لمقتضى الحال، من التفسيرات والتأويلات المحتملة لمثل هذه الآية وأمثالها من الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، على أن يكون ذلك تحت سلطان العقائد الإيمانية الثابتة التي لا تقبل أي تطوير فيها ولا أي تجاوز لها، وعلى هدي من القواعد العربية التي لا خلاف فيها.(١)

والإمام الخطابي هو ذاك الذي أقام من تحقيقاته العلمية والتزامه بنهج السلف أوثق جسر علمي وإيماني يصل ما بين مرحلتي السلف والخلف، إذ كان من أجلِّ علماء القرن الرابع الهجري الذي يشكل المنعطف الزمني لما بين المرحلتين.

ولكن في الناس اليوم من يتعاملون مع كلمات العلم ومصطلحاته، وقد أعوزهم سبر مضامينها وفهم مراميها، فحسبوا الذيول الاجتهادية جذوراً من العقائد الإيمانية التي لا تتبدل، واختلطت عليهم الفروع بالأصول، فخرجوا بذلك من منهج السلف، وهم يهتفون باسمه ويدافعون بألسنتهم عنه.

وانظر إلى هذا المثال الذي يجسِّد لك ما أقول:

يقول أحد هؤلاء الناس لصاحبه: أين الله؟ وعلى المسؤول لكي ينجح في هذا الامتحان الصعب، ولا يحكم عليه السائل

---

(١)انظر: معالم السنن للخطابي: ٥/ ٩٥ طبعة حمص.

بالمروق والكفر، أن يجيبه قائلاً: في جهة العلو!.. ويحسن به أن يشير بإصبعه إلى السماء محدداً بذلك جهة العلو.

فإن قال له المسؤول: ولكن السفل والعلو والأمام والوراء، في الجهات، كلها نسبية، ومن ثم فالجهة نفسها معنى نسبي، لأن العلو في الشمال سفل في الجنوب، باء المسؤول من سؤاله هذا بابتداع خطير وضلال وبيل!..

فمتى تنكب السلف الصالح وأمعن في هذه الحشوية التي يتعالى عنها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟!..

في أي آية من القرآن حصر الله ذاته العلية في جهةٍ ما، تحيط بهذه الأرض؟

إن جوهر العقيدة الإيمانية يتمثل في أن توقن بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨/٦] فتنسب إلى ذاته الفوقية التي أثبتها لذاته، ثم لك أن تجتهد في فهم المراد من هذه الفوقية ضمن حدود هذا الاعتقاد الجوهري، وعلى هدي من قواعد التأويل وتفسير النصوص.

وهذا هو الذي يضمن لك البعد عن مزالق العلم ومخالفة الواقع، وتلك هي طريقة السلف في كل زمان ومكان.

* وربما كان من الخير أن نأتي بمثال آخر، هو من الشمول بحيث يستوعب سائر الأمثلة التي سبق ذكرها:

إن من أجلّ وأوسع مبادئ هذا الدين، دوران أحكامه على رعاية مصالح العباد، على أن يراعَى في ترتيبها سلَّم

الأولويات، وهو يقتضي رعاية مصلحة الدين أولاً، فالحياة، فالعقل، فالنسل، فالمال.

إن مما لا ريب فيه أن هذا المبدأ ثابت مستقر يستعصي على أي تطوير أو تغيير، غير أنه يبعث على سلسلة من التطورات لا نهاية لها، في نطاق التعامل مع الحياة، ألا ترى أن تطبيق هذا المبدأ يفرض علينا أن نراعي مصلحة العقل كلما كان ذلك متسقاً مع رعاية مصلحة الحياة؟ ولكن المبدأ ذاته يفرض علينا تجاوز مصلحة العقل هذه، إذا كان في ذلك تهديد لمصلحة الحياة.

وكذلك مصلحة المال، إن سلطان هذا المبدأ الراسخ، يتطلب منا رعاية المال كسباً وحفظاً وتنميةً بكل الوسائل والوجوه، ما دام التنسيق قائماً بين متطلبات هذه الرعاية ورعاية المصالح الأربع التي تسبقها في الأولوية والاهتمام؛ فإذا قام التشاكس بين متطلبات رعاية المال، وأيٍّ من تلك المصالح الأخرى، وجب علينا تجاوز مصلحة المال بالقدر الذي يعيد التنسيق بينها وبين ما عارضها من المصالح الأخرى.

إن هذا المبدأ الأساسي الثابت يبعث - كما ترى - على حركة مستمرة دائبة في تجديد العلاقات التنسيقية بين هذه المصالح كلما قام فيما بينها أي خلل أو اضطراب. ومن الواضح جداً أن هذا التحرك المطرد، إنما هو ظل لذلك المبدأ المستقر الثابت، وليس هو المبدأ ذاته كما يتوهم كثير من السطحيين فيما يدرسون ويفهمون.

* * *

والآن، فلنعد إلى أصل حديثنا ومحوره:

إن الإسلام بكل ما يتألف منه، من عقائد ومبادئ وأحكام، مجموعة ثوابت مستقرة، تستعصي على أي تغيير أو تبديل، إنها حقائق.. والحقائق لا تقبل - من حيث المنطق - أي تطور أو تغيير.

غير أن وظيفة هذه الحقائق الثابتة، أنها تبعث الإنسان المسلم على أن يمارس حياته الفكرية والعمرانية والحضارية عموماً بطريقة متجددة، طبق نظام معين تحكمه تلك الحقائق الثابتة.

ولقد انتهينا إلى أن هذه المتغيرات الفكرية والعمرانية والحضارية ليست داخلة في شيء من حقائق الإسلام، وإنما هي من آثاره وثماره.

ومن حكم الله الباهرة، أن الإسلام لا يمكن أن يبعث المسلمين على هذا التجدد المستمر في حياتهم، إلا إن كان هو بحدِّ ذاته ثابتاً مستقراً يتسامى على أي تطوير أو تغيير.

وحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مئة سنة، من يجدد لها دينها»(١) ليس إلا تعبيراً عن هذا الذي أوضحناه.

فمراده ﷺ بتجديد الدين، إزالة ما قد تراكم عليه في تلك المدة، من غبار البدع والتزيدات، وتنقيته من مخلفات العابثين

(١) رواه أبو داوود، والحاكم في المستدرك من حديث أبي هريرة.

والمبدلين والمشوهين، حتى يعود بذلك إلى فجره الجديد ويتجلى عليه ألق الوحي وينبعث فيه من جديد أنس النبوّة. وهيهات أن يكون المعنى الذي أراده النبي ﷺ التجديد الإصلاحي والتطويري، كما يشتهي ذلك بعض المتبرمين بأحكام الدين وقيوده.

إن كلمة «الإصلاح الديني» التي استعيرت من الغرب، لتلصق بالإسلام، ومن ثمَّ لتبعث على التلاعب به والتغيير منه باسم الإصلاح، لا مكان لها قط في بنيان الحقائق الإسلامية الراسخة، بل إن كلمة «الحقائق» تطرد وهم الإصلاح عن مضمونها إلى أبعد مدى ممكن.

ذلك لأن بين «الحقيقة» و«الإصلاح» تناقضاً بيناً لا يخفى على عاقل.. والغرب إنما استنجد بالإصلاح الديني، أيام أقدم على ذلك، لكي يقوِّم به اعوجاجاً ويزيل به وهماً باطلاً، لا لكي يصحح به حقيقة.. إن تصحيح الحقيقة، يدخل فيما يسمى بتحصيل الحاصل. وتحصيل الحاصل مستحيل في منطق سائر العلماء والعقلاء.

ولما فكر بعض المغفَّلين، ذات يوم، أن يطوِّروا أنفسهم تطوراً تقدمياً عن طريق تطوير الإسلام، في إحدى أمهات البلاد العربية والإسلامية، ثم راحوا ينفذون ذلك، تحت رعاية وبإشارة من بريطانية الوفية المخلصة!... لم يزيدوا على أن أخرجوا أنفسهم بذلك من حصن الإسلام إلى العراء، ثم

جاءت الأمواج الدافعة في الوقت المناسب، فقذفت بهم في طفرة قاتلة إلى الوراء، بل إلى وراء الوراء.

ومن يدري، فرب ضارةٍ نافعة... رب ضارة ميزت العدو عن الصديق، ثم أقامت من مرارة الضراء حاجزاً حصيناً بينها وبين السراء.

وأساس كل شيء الثقة بأن الله أرحم بالإنسان من رحمته بنفسه، فاللهم زدنا ثقة برحمتك حتى نزداد تمسكاً بهديك، ونزداد حراسة له وسهراً عليه ضد أي يدٍ عابثة تتسرب إلى الكيد بنا والعبث به.

مشكلة
الانشغال عن واجب الدعوة الإسلاميّة
بِأحلامِ «المُجتَمَعِ الإسلامي»

نقرأ في كتاب الله عزَّ وجلَّ بياناً لواجب أناطه الله بأعناق عباده وألزمهم النهوض به. ونقرأ فيه إلى جانب ذلك وعداً بحق تكفل الله لهم به، إن هم أتقنوا القيام بالواجب الذي كلفهم به.

أما الواجب الذي حمَّلهم الله إياه وألزمهم به، فقد عرفناه وقرأناه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦]، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٥٦]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٠٤]، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ٤/١].

وأما الحق الذي وعدهم وتكفل لهم به فقد عرفناه وقرأناه في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٢٤/ ٥٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥-٦]، وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٣-١٤]، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٤٧].

وقد شاء الله عزَّ وجلَّ بواسع رحمته ودقيق حكمته، أن يختار من عبادة ثلَّة يجعل منهم المثل الذي يحتذى والنموذج الذي يقتدى به في الانقياد لأوامر الله وتطبيق تعاليمه وأحكامه. وكأنه عز وجل قضى، بباهر حكمته، أن يجعل من حياتهم وواقع سلوكهم في الجملة، وسيلة إيضاح لمن بعدهم، يهتدون بهديهم كلما غُمَّ عليهم الأمر والتبست عليهم الحقائق بأشباهها. وقد تمثلت هذه الثلة المختارة في صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم.

وليس في اختيار الله لهم ما يثير دهشة أو يبعث على تساؤل. فهم الرعيل الأول الذين تبلغوا عن الله وعن رسول الله ﷺ، بعد فترة من الرسل. وهم الذي رأوا رسول الله ﷺ وأخذوا منه وتعلموا على يديه، وهم الذين سرى نور النبوة إلى أبصارهم

التي اكتحلت بمرأى رسول الله ﷺ، ثم سرى منها إلى قلوبهم التي فاضت بمحبة رسول الله ﷺ. فحق أن يكونوا ظلاً لرسول الله ﷺ ثم أن يكونوا من بعده الهداة الذين يقتدى بهم والنموذج الأسمى لكيفية السير على صراط الله عزَّ وجلَّ.

وقد نظرنا، ثم تأملنا طويلاً في موقف هؤلاء الصحابة الذين جعلهم الله، بعد رسوله ﷺ، قدوة لنا، في كلٍّ من الواجبات التي كلفهم الله بها وأنهضهم إليها، والحقوق التي بشرهم بها وتكفل لهم بإنجازها، فرأينا أنهم توجهوا بكل مشاعرهم وقدراتهم إلى الواجبات التي حمَّلهم الله إيَّاها، وسعوا في ثبات واستمرار إلى النهوض بها، دون أن تطوف بأذهانهم أحلام تلك الحقوق التي وعدهم بها، ودون أن يدخروا شيئاً من جهودهم للبحث عن تلك الحقوق، بل دون أن يربطوا بين تلك الواجبات وهذه الحقوق بشيء من رابطة العلة والمعلول، أو الثمن والسلعة.. بل تأملنا فلم نجد إلا دافعاً خفياً واحداً ينهضهم إلى القيام بالوظائف التي ألزمهم الله بها، ألا وهو دافع العبودية والمملوكية لإلههم المالك.

ما إن يبايع الواحد منهم رسول الله ﷺ مؤمناً بالله رباً وبمحمد رسولاً، حتى يعود إلى نفسه فيلزمها باتباع أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، مجاهداً نفسه ضد أهوائها، مطهراً ذاته من بقايا الجاهلية، ثم يقبل إلى من يعيل، ثم إلى سائر من حوله من عباد الله عزَّ وجلَّ، يعرفهم على الله ويبلغهم أوامره وأحكامه، مخترقاً إلى ذلك المخاطر كلها، مضحياً بحقوق

نفسه إن أهينت، متجملاً بمشاعر الحب لعباد الله والشفقة عليهم جميعاً. وقدوتهم في ذلك كله سيدهم وحبيبهم رسول الله ﷺ.

ولم يكن من شأن أيٍّ منهم أن يعود في المساء إلى داره ليسأل نفسه: ومتى ننال الحق الذي وعدنا الله به؟ متى وكيف تكون الحاكمية في الأرض عن الله لنا؟.. كما لم يكن من شأن أيٍّ منهم أن يتقلب ذات ليلة في أحلام هذا النعيم الذي وعدهم الله به: كيف يكون مذاقه، أو إلى أي مدى يمتد ظلُّه؟

بل كانوا يقطعون الليل، بعد أخذ حظهم من الراحة والرقاد، بنجوى الخائف من تقصيره الطامع في تجاوز الله وعفوه، وربما اتهم أحدهم نفسه، لتقصير تخيل أنه قد ألم به، بلون من النفاق قد ابتلي به، فيتقلب من ذلك في هم يكاد يذيبه، ثم لا يسكن روعه حتى يشكو أمره إلى رسول الله ﷺ، فيذكِّره بعظيم رحمة الله وكرمه، ويبشره بأن إحسان الله لعباده يأتي على قدر ضعفهم وعجزهم، إن هم عظموا حرمات الله، واستشعرت قلوبهم مهابته.

تحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر، أدوا واجباتهم هذه، وصمدوا لكل ألوان الأذية في مكة.. وتحت سلطان هذه الدوافع والمشاعر ذاتها، هاجروا في سبيل الله إلى المدينة، وقد نفضوا أيديهم عن كل زاد إلا زاد التقوى والعمل الصالح.. وهم خلال ذلك كله يعرفون الناس على الله ويبلغونهم

كلمات الله، ويقدمون نفوسهم وحظوظها قرابين رخيصة على طريق تطبيق أوامر الله.

هل كان أيٌّ منهم يخلط بين قيامه بواجباته هذه، والتخطيط لكيفية القضاء على الامبراطورية الساسانية أو الرومانية؟.. هل كان فيهم من يفكر بكيفية الانتقام من قريش التي أخرجتهم من ديارهم، أو يفكر بالغد القريب الذي يصبحون فيه الحكام المهيمنين عليهم والمتنفذين فيهم؟

معاذ الله.. لم يكن هذا شأن أحدٍ منهم. بل كانوا قد وضعوا همهم كله في أن يوفقوا إلى أداء حقوق العبودية التي في أعناقهم لله عزَّ وجلَّ، وأن يرحلوا إليه وهو راضٍ عنهم غفَّار لهم.

فلما صدقوا فيما ألزموا أنفسهم به من حق الله عزَّ وجلَّ، وفَّاهم الله حقهم الذي تكفل لهم به، فأعادهم إلى الأرض التي أخرجوا منها، وأورثهم أرضاً وديارا ًأخرى لم يعرفوها ولم يحلموا بها، وجعل منهم قادة العالم، ووُرَّاث الحضارة، فكانوا بحق سدى ولحمة المجتمع الإسلامي.

هل كان سعيهم وجهادهم قبل ذلك تخطيطاً لبلوغ حكم، أو إمعاناً في قهر حاكم، أو مناورة لإنشاء حلف؟

لم يكن هذا شأنهم قط، بل لم يخطر لهم شيء من هذا على بال.

بل مما لا شك فيه أنهم لو ولّوا وجوههم شطر شيء من

هذه المشاغل أو صرفوا أفكارهم إليها، لما حقق الله لهم شيئاً مما قد أكرمهم به، ولما جعل منهم أئمة الأرض وورَّاث الحكم وقادة العالم. بل لوكَلهم عندئذٍ إلى أفكارهم المخططة، وأحلامهم المهتاجة، ولما جاءت قدراتهم من ذلك كله بشيء.

* * *

فذلك ما نقرؤه واضحاً في كتاب الله: واجبات كلفنا بها وأناطها بأعناقنا، وحقوق تكفل بها لنا، إن نحن أخلصنا القيام بتلك الواجبات.

وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ، وفعله الله لهم: عاهدوا أن ينفذوا أوامره، وأن يمارسوا عبوديتهم له بإخلاص وصدق، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. وعندئذٍ وفَّى الله وعده لهم فورثهم الأرض والديار، وألقى أزمَّة الحكم في أيديهم، وبثَّ الهيبة منهم في قلوب الناس.

وقد علمنا أن الله عزَّ وجلَّ جعل من أصحاب رسول الله النموذج الذي يُتبع في صحة التوجه والسلوك، فهم الذين يصدق عليهم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٠].

وإذا كان الأمر كذلك، فليس لنا عن الاقتداء بهم أي محيص، إلا إن أردنا أن نسلك سبل الغواية بدل الرشاد، أو أن نغامر في اتباع ما لا يجدي أو غرس ما لا يثمر. ونسأل الله أن يسلِّمنا ويقينا من الوقوع في هذا التيه.

ونحن اليوم نعلن عن صدق إيماننا بالله واستسلامنا لألوهيته وحكمه، تماماً كما أعلن أصحاب رسول الله ﷺ.

ويظهر اليوم في الساحة الإسلامية من يسمون بالإسلاميين أو الجماعات الإسلامية، يضعون أنفسهم من عامة الناس موضع الصحابة ممن بعدهم، فهم النموذج الذي ينبغي أن يقتدى به اليوم بعدهم، إذ هم طليعة رجال الدعوة إلى الله، والقائمون بأمر الله، والمجاهدون في سبيله، والمنافحون عن حرماته.

والحق أن على عامة المسلمين، في هذه الحال، أن يقتدوا بهم وينهجوا نهجهم، إذ هم الوارث للخصائص التي تميز بها الصحابة عمن سواهم.

ولكن، أفيسلك هؤلاء «الإسلاميون» فعلاً مسلك رسول الله ﷺ ومن ثم مسلك أصحاب رسول الله؟ أفيحصرون أنفسهم، فعلاً، في نطاق الواجبات التي كلفهم الله بها، في حق أنفسهم والناس الذين من حولهم، ويفوضون ما التزم لهم به الله إلى الله؟

إننا ننظر، فنجد، ويا للأسف، عكس ذلك تماماً.

لقد نامت في نفوسهم مشاعر الواجبات الذاتية، التي أذاب أصحاب رسول الله ﷺ أنفسهم في ضرام السعي إليها والنهوض بها، واستيقظت بدلاً من ذلك لديهم مشاعر التطلع إلى الوعود التي تكفل الله لهم بها.

أمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يصطبغوا بذل العبودية لله عزَّ وجلَّ؛

شعوراً وتبتلاً وأخلاقاً وسلوكاً، فشَرَدوا عن واجبهم هذا بأحلام السعي إلى إقامة الحكم الإسلامي!..

وأمرهم الله عزَّ وجلَّ أن يعرّفوا الناس على الله وأن يبلغوهم كلماته وأحكامه، وناشدهم ذلك رسول الله ﷺ قائلاً: «بلغوا عني ولو آية» فتشاغلوا عن واجبهم هذا بهموم الوصول إلى الحكم، ومناوأة من يصدُّهم عن ذلك.

والخلاصة أنهم قصروا كل التقصير فيما طلبه الله منهم، واجتهدوا كل الاجتهاد فيما ضمنه الله لهم!.. فصدق عليهم قول ابن عطاء الله السكندري: (اجتهادك فيما ضُمِن لك، وتقصيرك فيما طُلِب منك، دليل على انطماس البصيرة منك).

هما كلمتان، خاطب الله بهما عباده المسلمين من خلال قرآنه:

حققوا في أنفسكم أهلية الحكم في الأرض عبودية وإخلاصاً لله، وتزكية نفسية ومن ثم أخلاقاً زكية مع عباد الله، أصعدْ بكم إلى سدَّة القيادة في الأرض، وأضع بين يديكم مقاليد الحكم من حيث لا تحتسبون.

وقد رأينا كيف وعى أصحاب رسول الله هاتين الكلمتين، فعكفوا على الواجب الذي ألزمهم به الله عبودية وإخلاصاً وتزكية وأخلاقاً.. وما هو إلا أن ورثهم الله مقاليد الحكم، من حيث لا يحتسبون.. أجل من حيث لا يحتسبون!..

ثم خلف من بعدهم خلف، تجملوا من حيث الألفاظ

والشعارات، بما يرقى بهم إلى مصاف صحابة رسول الله ﷺ، وتنكبوا من حيث العمل والسلوك عن هذا النهج الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ثم جعلوا كل همهم بدلاً عن ذلك في طرق أبواب الحكم، بكل ما تطول إليه أيديهم من الوسائل التكتيكية والأسباب المتنوعة.

أين هي ليالي التبتل بين يدي الله؟ وأين هي مجالس «تعالوا بنا نؤمن ساعة»؟ وأين هي معارج التزكية بالنفس إلى حيث الإيثار بدلاً من الأثرة، والحب بدلاً من الحقد، والتضحية بالحظوظ بدلاً من التضحية بالخصوم؟ وأين هي حِلَق الذكر التي كانت تزدان بأصحاب رسول الله ﷺ فتورثهم الأفئدة الرقيقة والعيون الدامعة؟

أين هي مجالس التبليغ عن الله والتعريف بألوهية الله وعظيم سلطانه؟ أين هو البحث عن التائهين والشاردين والضالين، وما أكثرهم في كل فجٍّ وصوب، للحوار معهم والإجابة عن مشكلاتهم وتذويب شبهاتهم والصبر في سبيل ذلك على أذاهم؟

أين هو السلاح الأول في حياة المسلم الرباني القائم على حدود الله وأوامره؟ وهل هو إلا صدق التوكل على الله والثقة بالله والرضا عن الله، ثم الاصطباغ - في التعامل مع الناس - بأخلاق رسول الله ﷺ الذي قال فيما صحَّ عنه: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فلتسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق»؟

إنني أنظر.. وينظر الناس جميعاً معي، فلا نرى إلا انصرافاً عن هذا كله.

آلاف التائهين والشاردين، تتصيدهم كل يوم شباك الشهوات والأهواء، أو تتربص بهم جهود الدعاة إلى النار، وقد تسلحوا بما كان أولى بالإسلاميين أن يتسلَّحوا به، من حسن المعشر وخفض الجناح ولين الجانب، والصبر على مشاق الرحلة، ومخاوف الصدِّ والردِّ.. ولسان حال هؤلاء التائهين والجاهلين يصرخ قائلاً: ألا من منقذٍ يخلصنا من رقِّ أهوائنا التي تحكمت بنا، أو من هؤلاء الماكرين المبشرين الذين يحيطون بنا؟ أين هم ورَّاث شريعة الله ورجال الدعوة إلى الله، ينتشلوننا من عذاب نفوسنا ومن كيد المتربصين بنا؟

غير أن لسان حال الإسلاميين والجماعات الإسلامية يردُّ قائلاً: نحن في شغل شاغل عن هذا الذي تدعوننا إليه وتستنجدون بنا من أجله؛ إننا مشغولون عنكم باتخاذ أسباب الوصول إلى الحكم ولسوف ننعطف إليكم من فوق كراسي الحكم، لنقودكم إلى الحق عندئذٍ كرهاً، بدلاً من أن نحاوركم وندعوكم إليه عن طواعية ورضا!..

أجل.. هذا ما يقوله اليوم لسان حال هؤلاء الإسلاميين. بل هذا ما يقوله كثير منهم بألسنتهم عندما يأتي من يذكرهم بتنكبهم عن الطريق، وهذا ما قاله لي كثير منهم في كثير من المناسبات.

ولكن، ألا ترى، يا قارئي الكريم، أن هذا الاعتذار الذي يأتي بلسان الحال أو بلسان المقال، إنما هو في الحقيقة تطاول إلى تصحيح النهج الذي قضى وأمر به الله؟

إن المضمون الذي يختفي وراء هذا الاعتذار، ليس إلا قراراً تصحيحياً لما أمر الله به عباده ولما تعهد لهم به، ثم للسلوك التطبيقي الذي لبى من خلاله الصحابة أمر الله، وللعهد الذي أنجزه الله لهم لقاء ذلك، وإن هذا القرار التصحيحي لينطق قائلاً:

خير من سلوك هذا الطريق الطويل إلى نشر دين الله في الأرض وبسط سلطانه على النفوس والبلاد، عن طريق دعوة الناس ومحاورتهم فرداً فرداً، أن نقفز إلى كراسي الحكم فنتبوأها، فنفرض سلطان الإسلام على الناس من هناك شرعة ومنهاجاً. والحكم الذي سيحققه الله لنا، باتباع هذا المنهج الطويل، من حيث لا نحتسب، بوسعنا أن نناله الآن، بسلوك الأسباب والوسائل التي يسلكها غيرنا، من حيث ندري ونحتسب!..

* * *

هذه هي مأساة العمل الإسلامي الذي تحول إلى جهد خائب وسعي ضائع، وأخفى عن كثير من الأذهان الحقيقة العلوية المشرقة للإسلام، ثم أبرز له صورة زائفة أخرى ما هو منها في شيء تبعث على الاستيحاش والنفور منه، بل وربما بعثت على الارتياب في مصدره وحقيقته.

غير أنا لا بدَّ أن نستثني قلة من المسلمين الإسلاميين يسلكون سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه في سكينة وهدوء، يبلغون عن الله كما كانوا يبلغون، ويلقون بالدعوة إليه فلول التائهين والشاردين والفاسقين في حوار ليِّن مشفق كما كانوا يفعلون، وقد تركوا النتائج التي تكفل لهم بها الله لمشيئته وحكمته.. وإني لأعدُّ جماعة التبليغ أول السالكين في هذا الطريق وخير القائمين بهذا الواجب، ولكنهم من القلة بحيث لا يسدُّون مسدّاً، وربما كانوا بحاجة إلى دعامة من العلم والعلماء يكونون رفداً لهم في سلوكهم، وسلاحاً إضافياً أمام الشبهات وعكر الفلسفات الجانحة التي تواجههم.

ومهما يكن من فضل هؤلاء المبلغين وجهودهم السلفية(١) الأصيلة الحميدة، فإن ضجيج هذه الجماعات الإسلامية التي تنكبت عن تعاليم القرآن ثم ابتعدت عن النموذج التطبيقي لهذه التعاليم في حياة الصحابة الكرام، لم يبقِ فرصة في الآذان التي تسمع أو للأبصار التي ترى، للتنبه إلى وجود خطوط أو خطوات أخرى، سليمة عن أي اعوجاج، تنهج منهج كتاب الله وتتعقب خطوات رسول الله ﷺ ثم صحابته البررة الكرام.. ذلك لأن قلة أصحاب هذا الخط، وابتعادهم عن الأضواء إلى الظل، وعن الضجيج إلى الهدوء، من شأنه أن يدع الساحة البارزة

---

(١) لا نقصد بكلمة السلفية هنا تلك الجماعة التي تخالف السلف الصالح فكراً وسلوكاً بمقدار ما تشدُّ نفسها إليه بالكلام والادعاء؛ ولكنا نقصد بها السير على قدم الصحابة رضوان الله عليهم، لا سيما في منهج الدعوة إلى الله والتبليغ عن الله.

الكبرى لا تفور إلا بهذا النهج الثوروي الأرعن، ومن ثم فهو وحده الذي يقع تحت أشعة الأضواء الإعلامية التي يستغلها ويتاجر بها الأعداء العالميون لهذا الدين. وإنهم ليقطفون اليوم من ثمار ما يجري على هذه الساحة ما لم يكونوا يرجونه ولم يخطر منهم على بال.

أجل، هذه هي مأساة العمل الإسلامي، في أبرز ما يتجلى على الساحة الإسلامية، ولكن ما هو مصدر الأخطاء التي أورثت هذه المأساة، والتي يقطف اليوم منها، الأعداء العالميون لهذا الدين، أشهى النتائج والثمار؟

إن مصدر الأخطاء كلها، يتمثل في العدوى التي سرت إلى الجماعات الإسلامية، من واقع المذاهب والأنظمة الوضعية، والاتجاهات السياسية والثورية التي يسلكها قادة هذه المذاهب ودعاتها، لفرض مذاهبهم وأنظمتهم على المجتمع.

ومن المعلوم أن هناك قاسماً مشتركاً بين الإسلام والمذاهب الوضعية، ولكنَّ بينهما فارقاً أساسياً كبيراً في الوقت ذاته.

أما القاسم المشترك، فيتمثل في أن كلاً منهما يقدم مشروع نظام، يفترض أنه الأفضل والأكثر استجابة لحاجات الإنسان ومصالحه.

وأما الفارق الأساسي الكبير، فيتمثل في أن النظام الإسلامي يأتي ثمرة دينونة الإنسان لله، وإيمانه الطوعي بوجوده ووحدانيته، وثقته التامة بحكمته وعدله ورحمته، ومن ثم فهو

لا يطمئن إلى حكم غير حكمه ولا يثق بنظام يصلح لمعاشه ومعاده غير نظامه. أما الأنظمة والمذاهب الوضعية فهي ثمرة رؤى وأفكار بشرية، تبناها أصحابها بدافع مزيج من الاجتهادات التي اقتنعوا بها، والأغراض التي استهوتهم، والعصبيات التي أسرتهم؛ ومن هنا لم يكن لها من سبيل إلى الأفئدة والعقول، تقديساً لها وإيماناً بها؛ إذ الناس مهما اختلفوا في الأعراق وتمايزوا في الثقافات والمدارك، تجمعهم مشاعر النديَّة المتكافئة، وتفرق بعضَهم عن بعض مصالحهم المتخالفة وأهواؤهم وأمزجتهم المتعارضة. فهيهات أن تسري آراء ثلة من الناس إلى عقول الآخرين من أمثالهم، من خلال قناة التقديس والإذعان بأنها خير آراء أخرجت للناس.

ولما كان أصحاب كل مذهب حريصين على أن يكون مذهبهم هو السائد بين الناس، وهو المعمول به في المجتمعات، كان لا بدَّ لهم من سلوك السبيل الوحيد الذي لا ثاني له ولا غنى عنه، ألا وهو سبيل الفرض والإلزام، وللناس بعد ذلك أن يعتقدوا أو لا يعتقدوا بجدوى نظامهم وفائدته.. وليس من سبيل إلى الفرض والإلزام إلا الوصول إلى الحكم ثم استعمال السلطة التنفيذية من هناك.

ويتلخص هذا الفرق في أن بلوغ الحكم في سلَّم العمل الإسلامي، نتيجة وثمرة للقناعات الإسلامية الحقيقية إذ تنتشر في عقول الناس وأفئدتهم، على حين أن بلوغ الحكم في سلَّم الأنشطة التي يمارسها قادة المذاهب والنظم الوضعية، هو

المفتاح الذي لا بدَّ منه لبسط أنظمتهم ومذاهبهم التي يدعون إليها.

نعود إلى المصدر الأول للأخطاء التي وقع فيها جلُّ الجماعات الإسلامية اليوم، وقد قلنا إنه سريان عدوى هذه الأنظمة الوضعية إليها.

أَجَلْ، فقد نظر قادة هذه الجماعات إلى قادة الأحزاب والمذاهب الوضعية، ورأوا كيف يتجهون إلى كراسي الحكم عن طريق الدخول في المعتركات السياسية، أو اقتحام الطرق الثورية، وما هي إلا بضع محاولات على هذه الساحة أو تلك، وإذا هم متربعون فوق عروش الحكم، وإذا بأنظمتهم وأفكارهم تنبسط في المجتمع دون أي مشاغب أو معارض!.. فما هو إلا أن استهوتهم - أي استهوت الإسلاميين - هذه السرعة الخاطفة في نجاح تلك المنظمات أو الأحزاب في فرض سلطانهم، ومن ثم فرض أفكارهم وأنظمتهم على الناس.

وأخذت العدوى تفعل فعلها في أفكارهم، بل في نفوسهم: لماذا لا نسلك مسالك هؤلاء الناس؟.. إنهم يحملون إلى الناس أفكاراً وأنظمة بشرية تافهة، ونحن نحمل إليهم الإسلام، ألسنا أولى منهم بالتوجه إلى كراسي الحكم والتحكم بمقاليده، سواء أتيح لنا ذلك بالاشتراك في المعتركات السياسية أم باقتحام الطرق الثورية؟!.. ولئن كان قدر الناس في هذا العصر أن تفرض المذاهب عليهم بالقوة، فلنكن السباقين إلى ذلك، وليكن المذهب المفروض عليهم هو الإسلام!!..

وفي غمار هذه المحاكمة أو المراوضة الفكرية التي فرضتها العدوى، نسي قادة العمل الإسلامي أن الإسلام الذي يدعون إليه وينهضون بخدمته إنما هو دين واعتقاد قبل كل شيء، والدين إنما يسري إلى العقول عن طريق القناعة واليقين، وإنما سبيله الدعوة والحوار والإقناع، أمّا ما فيه من شرعة ونظام، فنتائج طبيعية لدينونة العقل والقلب لألوهية الله وسلطانه. ولو أن إحدى دول البغي والكفر في الأرض أعجبت من الإسلام بشرعته ونظامه فاتخذت من شرائعه وأحكامه بديلاً عن نظامها الذي كان سائداً، لما أدخلها ذلك في حظيرة الإسلام من حيث إنه دين يستجيب به الإنسان لأمر الله ويمارس من خلاله العبودية لله. وليس بين شريعة الإسلام والنظام الذي كان سائداً من قبله، في هذه الحال، أي فرق.

ولكنَّ قادة الجماعات الإسلامية نسوا، في غمار هذه المراوضة الفكرية تحت سلطان تلك العدوى، هذه الحقيقة التي هي من البداهة بمكان. واستهوتهم مغامرات رؤساء المنظمات والأحزاب، فأعرضوا عن مهام الدعوة إلى عقائد الإسلام عن طريق التربية والحوار، ثم تفرغوا هم الآخرون للدخول في المعتركات السياسية، أو اتجهوا إلى رسم الخطط الانقلابية والثورية.

وهكذا تحول هؤلاء الذين عرَّفوا الناس على أنفسهم، دعاة إلى الله وخداماً لدين الله، إلى طلاب حكم ينتجعونه في ساحة العمل السياسي أو يطرقون أبوابه من خلال المغامرات الثورية.

وبوسعك أن تتبين عندئذٍ سلسلة الأخطاء والانحرافات الفرعية التي لا بدَّ من الوقوع فيها نتيجة هذا الخطأ الكبير القتال.

ولست أدري هل أنا بحاجة إلى عدِّ هذه الأخطاء التي لا أحسب أن فينا من لا يتبيَّنها أو لا يعلم ضرورة الوقوع فيها، بعد الاستسلام لهذه العدوى الخطيرة التي تحدثنا عنها.

* * *

ومع ذلك فلنزد هذه الحقيقة الواضحة وضوحاً بعدِّ بعضٍ من الأخطاء:

أولاً - (وأفرض أنني أنا المتورط في هذه العدوى المهلكة والعياذ بالله) إنني عندما أقرر الدخول في المعترك السياسي ابتغاء الوصول إلى الحكم، لا بدَّ من أن يكون وجودي الغالب في المناخ الملائم لهذا المعترك، ولا بدَّ أن يتجه جلُّ نشاطي الفكري والسلوكي إلى رسم الخطط والأساليب المتكفلة بالوصول إلى هذا الهدف. والشأن في ذلك أن يبدِّد صفائي الروحي، وأن يورثني مع الأيام قسوة القلب واضطراباً في النفس، وأن يمدَّ غاشية من الضباب على مشاعر عبوديتي لله ومشاعر ثقتي به وتعظيمي له ومراقبتي إياه..

ولا بدَّ أن يؤثر هذا الحال في تبديد معظم ما أتمتع به من عدَّة على طريق الدعوة إلى الله وخدمة دينه. يعلم هذا كل من كان معافى، ثم زجَّ نفسه في هذا المناخ وابتلي بهذه الحال.

ثانياً - إن دخولي في هذا المعترك، يضعني وجهاً لوجه أمام محاور سياسية متعددة، ويفرض عليَّ الانجذاب إلى فلك واحد منها، ومن ثم التحركَ لحسابها.. إن من المستحيل أن أزجَّ نفسي في ساحة العمل السياسي، قائداً لجماعة تتبع سيري وتنقاد لإشارتي، دون أن أتحالف مع هذا الفريق أو ذاك، ذلك لأن النشاط السياسي الذي يطرق أبواب الحكم، لا يمكن أن يتحرك في فراغ.. إذ هو محاط بتيارات متخالفة، بل متصارعة شتى. ولن يكون لاستقلال صاحب هذا النشاط عنها إلا معنى واحد هو اتخاذ موقف المعاداة لها، ومن ثم فلسوف تلتقي هذه التيارات كلها، على اختلافها، على التربص به والكيد له. والنتيجة التي لا مناص منها، هي أن تضيع وتستهلك قواه وسط تألب تلك التيارات وفي ضرام عدوانها.

ذلك هو شأن الدخول في المعتركات السياسية، لا بدَّ فيه من أحد مصيرين: إما الانحياز والتحالف مع أحد محاورها، وإما الاستقلال عنها جميعاً وهو ما يعني تألب الأطراف والمحاور كلها على صاحب هذا الاستقلال بالعدوان والقهر.

ثالثاً - في غمار هذا التوجه، وتحت تأثير هذه التيارات المتصارعة، وما يكتنفها من ضجيج وتوقعات ومفاجآت، لا بدَّ من أن أتجرد عن عملي مبلغاً عن الله ومعرفاً بدينه داعياً إلى صراطه، وأن أتحول إلى مخاصم في شؤون السياسة مجاهد في سبيل بلوغ الحكم، مفكرٍ في الوسائل التي يجب أن أتخذها للتغلب على الخصوم.

ولا تنسَ أنني أضرب المثل في كل ذلك بنفسي، مفترضاً أنني أمير جماعة إسلامية أو واحد من أفرادها، فلا جرم أن هذه هي الحال التي سيكون عليها أتباعي أو سائر زملائي وإخواني.

إذن، فقد تقاعدت الطائفة التي تسامت ذات يوم إلى مستوى الوصية الربانية القائلة: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢] عن شرف التفقه في الدين والتوجه به إلى عامة الناس معلمين ومبشرين ومنذرين. واستعاضت عن ذلك بهذا الذي أقحمت نفسها فيه.

هذا، والناس الذين من حولي، كلهم أو جلهم، جاهلون بالدين ينتظرون من يبصرونهم به ويحببونه إليهم، تائهون، متنكبون عن صراط الله عزَّ وجلَّ، ينتظرون من يأخذون بأيديهم، قد أحاطت بهم شياطين من الإنس والجن، باسم التبشير أو التنوير أو التثقيف، يشوهون لهم حقائق الإسلام، ويعكرون من صفوه، ويبعثون في نفوسهم - بكل ما يملكون - دواعي الاشمئزاز منه.

الدعوة التخريبية قائمة على كل قدم وساق، والإسلاميون الدعاة إلى الله في شغل شاغل عن مقاومة التخريب بالبناء، وعن النهوض بما أقاموا أنفسهم فيه من مهام الدعوة إلى الله وتبليغ كلمات الله وأحكامه.

فكيف يكون عمل هؤلاء الناس - وهذه هي الحال - جهاداً في سبيل الله؟

بل كيف لا نكون مؤاخذين عند الله يوم القيامة على هذا التشاغل والإعراض؟

وكيف لا نتحمل أوزار هؤلاء الشاردين والتائهين الذين شُغلنا عن نصحهم وإرشادهم ودعوتهم إلى الله، بانصرافنا إلى ساحة المعتركات السياسية وتطلعنا إلى بلوغ كراسي القيادة والحكم ومناصبة الحكام في سبيل ذلك فنون العداء؟

* * *

ولكن، ما هي الحجة التي يعود بها هؤلاء الإخوة الذين يأبون إلَّا الإعراض عن مبدأ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥]، والإقبال بدلاً عنه إلى شعار: أمسك بناصية الحكم ولا تبالِ من أي طريق وصلت؟

حجتهم هي القول بأن أقصر طريق إلى تطبيق مبادئ الإسلام وأحكامه، هو فرضها على الناس بالقوة. والطريق الوحيد إلى فرضها بالقوة هو بلوغ الحكم.

وأقول في الجواب: أرأيت إلى ما قد ذكرناه آنفاً من العدوى التي سرت إلى كثير من الحركات والجماعات الإسلامية، من واقع حال الأحزاب والمذاهب الفكرية والسياسية الأخرى؟ إن ما قلناه آنذاك يتضمن نصف البيان لخطأ هذا التصور وبعده الكبير عن الإسلام واستعصائه على الواقع والتنفيذ.

أما بيان النصف الثاني فنوجزه فيما يلي:

إن سدى ولحمة المجتمع الإسلامي المنشود، إنما يتمثلان في أفراده. وما حكامه إلا فئة من هؤلاء الأفراد. ومن ثم فإن وجود المجتمع الإسلامي لا يعني أكثر من صلاح أفراده واستقامتهم على صراط الله عن بصيرة ووعي.

فإن لم يصلح هؤلاء الأفراد، بل ظلوا - كما هي الحال الآن - بين شارد ومرتاب وضال وفاسق وملحد، إلا من رحم ربك، فهيهات أن يتحقق أو يتألف المجتمع الإسلامي، من إطار يجمعهم، أو من مجرد اجتماعهم تحت مظلة حكومة مسلمة تنادي بالإسلام وتقتنع بتطبيق شرائعه وأحكامه.

أرأيت إلى فئات شتى من اللصوص، إنَّ تحولهم إلى جيش نظامي من اللُّصوص تحت قيادة راشدة، لا يمكن أن يجعل منهم ملائكة مطهرين أو بشراً منزهين. بل إن حقيقة السوء التي كانت متناثرة في أفرادهم، تتحول تحت سلطان هذا التجمع والتلاقي إلى تيَّار متلاطم من السوء!..

أَوَليس هذا الذي أقوله من الوضوح بمكان؟ بل أَفيوجد في الناس من يرتاب فيه دون مكابرة أو عناد؟..

وهل الحكم وسلطانه إلَّا حزام ضبط وتجميع؟ ومتى كان الضبط والتجميع يغنيان عن تزكية النفس وتطهيرها من الزغل والآفات؟

وإن في ذاكرتي لصوراً كثيرة لرجال إسلاميين قفزوا إلى

كراسي الحكم وأمسكوا بنواصيه، متجاوزين واجب التربية والدعوة والإقناع بالحجج العلمية والثقافية، فلم يتأتَّ منهم أن يصلحوا أي فساد أو يقوِّموا أي اعوجاج. ولم يفيدوا الإسلام بتربعهم على كراسي المسؤولية والحكم إلا ما أوهمته أجهزة الإعلام المعادية وأدخلته في قناعة كثير من الناس، من أن الإسلام برهن على عجزه عن القيام بأي إصلاح!.. فها هم أولاء رجاله يحكمون، وها هو ذا الفساد الذي كانوا يتأففون منه باقٍ كما هو!..

إنه لأيسر في سبيل الإصلاح وتقويم الاعوجاج وبسط فاعلية الإسلام، أن تطمع بعقل الحاكم وفؤاده، فتقول له - كما تقول لغيره - بمنطق القرآن: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٨-١٩]، من أن تطمع بكرسيه فتقول له بمنطق النفس المتوثبة إلى المغانم: هل لك إلى أن تتحول عن هذا الكرسي لآخذ محلك فيه؟

ما الذي يضرُّ الإسلام ويسوءه ألّا تكون أنت الحاكم في الأمة، إذا كانت التزكية النفسية والهداية العقلية قد حلَّ كلٌّ منهما محله من كيان الحاكم وأفئدة الناس؟ وما الذي يفيد الإسلام وينفعه إذا كنت أنت الحاكم، وكان الفساد مستشرياً في النفوس، والضلالة مهيمنة على العقول؟

وإذا كان الجواب واضحاً، فما لك لا تتجه إلى الناس كلهم - شعوباً وقادة - بالنصيحة والإرشاد والسعي إلى تزكية النفوس وتصعيدها إلى مستوى الحب لله والانتعاش بدين الله؟ علماً

بأنك تنفذ بهذا أمر إلهك الذي أنهضك إلى هذه الوظيفة وشرَّفك بها، وتنال بذلك أجراً لا ينال مثله إلا كبار الربانيين، وسيضع الله في كلامك سرَّ الهداية والقبول، فيتحقق لدى الحاكم الإسلامُ العملي الذي تريد، وينقاد الناس إلى الحكم الإسلامي الذي تنشده وتنادي به؟!..

إن كان المبتغى هو قيام المجتمع الإسلامي فعلاً، فهذا هو وحده السبيل، وهو الضمانة التي لا بديل عنها.

أما إن كان المبتغى منافسة الآخرين على الحكم، ومخاصمتهم في سبيله، فما لهؤلاء الناس لا يعلنون إذن عن قصدهم هذا؟ وإنه لقصد طبيعي لن يجرّمهم من أجله أحد. كل ما في الأمر أننا نستذكر في هذا قول رسول الله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

قال لي أحدهم، وكان الحديث عن الجزائر، وكنت أذكِّر بالنهج الإسلامي الصحيح في السعي إلى خدمة الإسلام، وأحذِّر من الاستمرار في هذا الخطأ القتّال، والمتمثل في الإعراض عن الإسلام شغلاً بمخاصمة الحكام ومنافستهم على كراسي الحكم، قال لي:

إنك تتحدث دائماً عن خطأ هؤلاء الإسلاميين، ولا تتحدث عن الجريمة التي ارتكبها الحكام الجزائريون، إذ اغتصبوا منهم

حقهم الذي وصلوا إليه بالطرق القانونية والديمقراطية المعتمدة!..

قلت له: لو علمتُ أن الذين اغتُصب منهم هذا الحق، هم طلاب حكم ومحترفو عمل سياسي، إذن لاختلف الموضوع، وإذن لكان بوسعي أن أعلن عن استعدادي لدفاع قانوني عنهم، كما يدافع أي محامٍ عن طرف وقعت عليه الظلامة في تجارة بمال، أو في مغنمٍ سياسي، أو في حق مكتسب بممارسة حكم، بقطع النظر عن أثر ذلك على الإسلام سلباً أو إيجاباً. وعليهم في هذه الحال ألّا يجعلوا من الإسلام متَّكأً لدعم حقهم، أو سلاحاً للطعن في خصومهم، وليَسَعْهم أن يتحركوا كغيرهم في الدفاع عن حقهم الذي لا ينكر، داخل ساحة الأنظمة الديمقراطية والحقوق الدولية، ولسوف يجدون من ذلك خير لسان مدافع عنهم وأفضل قوة تناضل عن حقوقهم. ولكن بوصف كونهم ساسة ابتغوا لأنفسهم سبيلاً إلى القيادة والحكم، شأنهم في ذلك شأن عامة السياسيين المحترفين من ذوي الهواية في المناصب السياسية لا أكثر.

ثم قلت: إلا أن هؤلاء الإخوة إنما يؤكدون للعالم كله أنهم قد جندوا أنفسهم وسائر إمكاناتهم لخدمة الإسلام وإقامة حكمه، ويجزمون بأن سعيهم إلى الحكم إنما يأتي على طريق خدمتهم للإسلام ورفع شأنه وإقامة دولته.

إذن لا بدَّ أن يختلف، هنا، حديثنا لهم.. لا بدَّ أن نقول لهم، انطلاقاً من هذه الهوية التي يعرفون العالم على أنفسهم

من خلالها: إن عليكم في هذه الحال أن تضحوا بحقكم الذي كان ينبغي أن تنالوه من الوصول إلى القيادة والحكم، في سبيل الإسلام الذي تقولون إنكم حماته وجنوده، لا أن تضحوا بالإسلام وتجعلوا منه وقوداً في ضرام هذه الفتنة، في سبيل أن تنالوا حقوقكم التي اغتصبت فعلاً منكم!..

وعندما ننظر، فنجد - على الرغم من هذا التذكير المنطقي الواضح - أن دوافع الثأر النفسي والانتقام للذات، هي التي تحرك هؤلاء الإخوة فيما يقدمون عليه من اقتحامات ومغامرات، أيّاً كانت ومهما قيل في وصفها، ونرى بأم أعيننا كيف أن الإسلام هو الذي يُنال منه وينتقص من شأنه، وتتراجع قواه وفاعليته في ذلك الضرام؛ عندئذٍ لا تغدو المشكلة الحقيقية أن فرصة في وصول جماعة من المسلمين إلى الحكم قد أهدرت أو اغتصبت، وإنما المشكلة المصيرية القاتلة أن الإسلام هو الذي يذهب ضحية الطرفين ويتمزق تحت السنابك!..

ومن ثم، فلا معنى لتوجهنا إلى مغتصبي الحق كي ينصفوا خصومهم الذين يدعون أنهم جنود لخدمة الإسلام وتقديم أنفسهم قرابين رخيصة له، وإنما الواجب الذي يهيب بنا وبكل مسلم، هو التوجه إلى حلّ هذه المشكلة الخطيرة القاتلة.. وذلك بأن نناشد جنود الإسلام وحماته، أن يشفقوا على الإسلام الذي ينسحق ويذوب وسط ما يشعلونه من ضرام.

غير أن المصيبة الكبرى التي لا تنزل هي الأخرى إلا برأس

الإسلام، أن الدوافع المهتاجة في نفوس هؤلاء الإخوة إلى الثأر والانتقام، تقصيهم عن تفهم هذا الكلام والالتفات إليه، وتستثيرهم في رعونة غاضبة للإنكار علينا ولاتهامنا بالتحيز إلى الغاصبين الذين استلبوا حقوقهم في بلوغ الحكم وامتلاك أزمَّته.

إذن لم تعد الرغبة في الحكم وسيلة لخدمة الإسلام، وإنما غدا الإسلام وسيلة لبلوغ الحكم، ومن ثم فلا حرج أن يمزَّق الإسلام كل ممزَّق في هذا الضرام أملاً في قهر الخصوم الذين يصدُّون عن بلوغ هذه الأمنية الذهبية؛ وبالمقابل، فلا يجوز أبداً إنهاء هذه الفتنة وإخماد هذا الضرام، مهما رأينا بأم أعيننا أن الإسلام هو الوقود الأول الذي يلتهب عليه هذا الضرام.

ومن المؤسف أن الغرب الذي أعلن في السنوات الأخيرة، حربه ضدَّ الإسلام، قد درس هذا الواقع المؤلم، وأمسك بهذه المشكلة القاتلة ورقة رابحةً يحاول أن يلعب بها في كل صقع. وها هو ذا ينفخ في نيران هذا الضرام ما وسعه ذلك؛ وإنه ليشعر بنشوة ما مثلها نشوة، أن رأى المناخ الإسلامي أمامه صالحاً ومهيَّأً لضرب الإسلام بمن يسمون أنفسهم جنوداً للإسلام!!..

نشرت مجلة Foreign Affairs الصادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية ولسان حالها، في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٢ مقالاً عن خطر الإسلام على العالم الغربي، والسبل التي يجب أن تتخذ لشلِّ فاعليته والقضاء على خطره، والسبيل فيما صرح

به كاتب المقال هو تقطيع جسور الثقة بين الدول العربية خاصة والإسلامية عامة، للقضاء على بقايا ما قد يشيع بينها من روح التعاون والتضامن، ثم استثارة أسباب الاضطرابات والقلاقل داخل كل منها على حدة، والاستفادة مما هو جارٍ الآن من خروج كثير من الجماعات الإسلامية على حكامها، وتألب حكامهم عليهم. وبذلك تتمزق فاعلية الإسلام فيما بينهم عن طريق التآكل الذاتي، وتبتعد فرص الاستقرار التي هي الأساس الذي لا بدَّ منه للنمو الاقتصادي ولاستغلال ما قد تملكه من قدرات وثروات!..

ومصيبة المصائب في نظري، أن أجد، بعد هذا الحق الذي لا يتيه عاقل عن تبينه ورؤيته، من يضيق ذرعاً بهذا الذي أقول، ويتمنى أن أشغل نفسي وقرائي بأي موضوع آخر نتسلَّى به!..

ولكن قل لي: كيف يتأتى أن يكون الإنسان مسلماً صادقاً مع الله في إسلامه، ثم يرى هذا الخطأ القتّال الذي انجرف فيه بعض الإخوة باسم الإسلام، ثم يرى بعينه أثره السريع في شل فاعلية الإسلام وهدر كل مكتسبات ما سميناه يوماً بالصحوة الإسلامية، ثم يرى ويسمع خطط الأيدي الخفية التي تتجه مسرعة لاستغلال هذا الخطأ واستثماره، ثم يعرض عن ذلك كله، ساكتاً غير مبالٍ بشيء من وارد الأمر أو صادره أو نتائجه المخيفة المقبلة؟

بل قل لي: كيف يتأتى منك - وأنت مسلم صادق مع الله - أن تجد أصحاب الخطط الخفية يستغلون هذا الخطأ

ويستثمرونه لحسابهم، ثم لا ينهضك إسلامك لسعي ما إلى إصلاح هذا الخطأ؟

* * *

أنا لا أنكر أن لكثير من الحكام دوراً في استثارة الإسلاميين وتهييجهم بقصد أو بدون قصد، إلى كثير من التصرفات التي يقومون بها اليوم، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم يؤدون في ذلك دوراً قد عهد به إليهم وطلب منهم.

ولكن، أَفَيكون ذلك عذراً لتحرر هؤلاء الشباب عن الانضباط بالمنهج الإسلامي وقيوده وأحكامه، وللارتماء بدلاً عن ذلك وسط تيارات ردود الفعل الجارفة؟

بعض الإخوة الدعاة أو المفكرين، يعطونهم هذا العذر!..

ولكن هذا العذر لو جاز إعطاؤه لعامة الناس أو المسلمين، فلا يجوز أن يعطى لمن يسمون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله عزَّ وجلَّ. وهل الجهاد إلا بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله؟ وأي بذل للجهد يبقى عند من لا يصبر على الاستثارة التي يبتغى منها إبعاده عن الانضباط بكوابح الإسلام وأحكامه ثم زجه في ردود فعل من شأنها أن تأتي بنقيض ما قد جنَّد نفسه في سبيله؟

هما أحد أمرين: إما أن يعذَر هؤلاء، إذن يجب إبعاد سمة الدعوة والجهاد في سبيل الله عنهم. وإما أن نصدِّق أنهم فعلاً

دعاة إلى الله ومجاهدون في سبيله، إذن فلا يجوز أن يُعذَروا في الانجرار إلى هذا الخطأ القتّال.

وصفوة القول أنه يجب فك الاشتباك بين الإسلاميين وحكام بلادهم، حيثما وجد نوع من هذا الاشتباك. والسبيل الطبيعي إلى ذلك أن يتعاون الطرفان لتحقيق هذه الغاية التي ستأتي بخير كبير للجميع.

ولكن، إن لم يشأ الحكام أن يمارسوا إلى ذلك أيَّ دور تعاوني جاد، فإن السبيل إلى ذلك يصبح من مهمة وواجب الإسلاميين وحدهم، ومهما كانت حظوظ النفس البشرية تتأبى ذلك وتثور عليه، فإنَّ شأن المجاهد الصابر والمصابر في سبيل الله هو الترفع فوق حظوظ النفس وقهر أهوائها ولواعجها، في سبيل حماية المدِّ الإسلامي مما قد يراد به، ومن ثم في سبيل بلوغ رضا الله عزَّ وجلَّ.

فإن سأل منهم سائل: ولكن فما البديل من مجابهة الحكام لإزاحتهم واتخاذ أماكنهم؟

قلنا في الجواب: وهل كانت هذه المجابهة يوماً ما خطوة جهادية في سبيل الله، حتى تبحثوا لها عن بديل؟ لقد أوضحنا بما لا يدع مجالاً للريب أنها مجرد استجابة لحظ نفسي واستجابة ساذجة لكيد خفي، فالتحول عنها تصحيح لخطأ، والابتعاد عن الخطأ لا يحتاج إلى الاشتغال ببديل.

ولكن نقول لهؤلاء الإخوة: دعوا هذه المجابهة الخاطئة التي

أقصتكم عن مهمتكم الجهادية فعلاً، لتعودوا إلى شرف النهوض بها، بعد أن طال بكم البعد عنها.

دعوا استثارة الحكام التي طالما شغلتكم عن شرف الدعوة إلى الله، وتبليغ أحكام الله، وإدخال حب الإسلام إلى قلوب عباد الله، وانعطفوا سراعاً عائدين إلى هذه المحاريب التي لا أجلّ ولا أرضى منها لله عزَّ وجلَّ، وليكن شعار هذه العودة نداءً صادراً من القلب: وعجلت إليك ربِّ لترضى.

فإن أبى هؤلاء الإخوة إلا مضيَّاً في هذا الاشتباك وانصياعاً لنداء الثأر واستجابة لحظوظ النفس، مهما بقيت ساحات الدعوة إلى الله والتعريف بدينه فارغة مهجورة، فليعلموا أنهم، عدا عن كونهم خالفوا أمر الله وهديه، لن يصلوا إلَّا إلى نتيجة واحدة، هي أن يجعلوا من هذه البلاد مغرباً للإسلام بعد أن كانت مشرقاً له.

ولكن ذلك لا يعني أن تختفي شمس الإسلام من هذه البقعة في مغرب لا شروق لها من بعده، بل ستختفي، من جراء هذه الأخطاء هنا، لتشرق هناك.. في أماكن من الغرب نائية، بفعل جهاد خفيٍّ هادئ من الدعوة المتحرقة إلى دين الله هناك، ينهض بها نساء ورجال كانوا بالأمس القريب ضائعين عن هوياتهم.. شاردين عن ربوبية مولاهم وخالقهم، غارقين في يمٍّ آسن من الشهوات والأهواء المشقية.

ها هم أولاء، وقد انتشرت أشعة دعوتهم إلى الله والتعريف

بدينه، في الفجاج التي يقيمون فيها أو التي يرحلون إليها، يعيدون فيما ينهضون به من هذا الواجب الجهادي سيرة أصحاب رسول الله ﷺ مظهراً ومضموناً. إنهم لا يلتفتون إلى واقع حكم غير إسلامي يظلُّهم، ولا يعبؤون بنظام إلحادي غريب عن معتقداتهم وأمانيهم والتزاماتهم.. وإنما ينصرفون بكل ما يملكون من جهد إلى استنبات البديل الذي سيحلُّ محلَّ هذا الحكم وسيحوِّل اتجاه هذا النظام، إن آجلاً أو عاجلاً.

إنهم ينصرفون إلى هداية العقول وتزكية النفوس، بدءاً بالأقارب والأرحام، إلى الجيران والأصدقاء، بصبر منقطع النظير وحلم لا نهاية له.

أجل، تلك هي المهمة التي ينهض بها اليوم كل فتى أو فتاة هُدِيتْ، في ربوع الغرب، إلى دين الله عزَّ وجلَّ. والعجيب أنهم لا يحتاجون إلى من يبصِّرهم بمنهج الدعوة، أو إلى من يحذرهم من هذا التزييف الذي يمارسه كثير من المسلمين باسمه، وهي المشكلة التي نصدر في بيانها المؤلفات، ونلقي فيها المحاضرات، ويمتد حولها الجدل المتطاول، بل تراهم اتجهوا بحكم الفطرة الإيمانية التي شدتهم إلى الله وحررتهم من أنفسهم وحظوظها، إلى المنهج السديد في الدعوة إلى الله والذي ورثه الصحابة عن رسول الله ﷺ.. إنهم لا يرهقون أفكارهم ساعة واحدة في نسج صورة الحكومة الإسلامية والمجتمع الإسلامي والتخطيط لهما، وإنما يرهقون أنفسهم ويبذلون كل جهودهم في أداء المهام والواجبات التي كلفهم الله

بها، وفي مقدمتها إبلاغ كلمات الله إلى العقول بعد الآذان، والتعريف بالإسلام ومبادئه وأحكامه، وهم يعلمون - بدون الحاجة إلى أي جدل أو نقاش - أن القيام بهذه الواجبات هو ثمن ما سيكرمهم الله به من الحكم والمجتمع الإسلامي..

ودعني أختم هذا البحث بهذه الصورة النموذجية السامية للقيام بواجب الدعوة الإسلامية وخدمة دين الله، بل للسبيل الحقيقي الذي لا بديل عنه إلى إقامة المجتمع الإسلامي، ولسوء الحظ أو لحسن الحظ، فإن بطل هذه الصورة النموذجية التي نبحث في بلادنا الإسلامية عنها، فتاة بريطانية تعيش في لندن.

دخلت هذه الفتاة الإسلام، وما إن أشرب قلبُها حبَّه، حتى بدأت تبذل كل ما تملك من جهد لإقناع أخويها الشابين وأختها الصغرى باعتناق الحق الذي عانقته، وصبرت وصابرت في سبيل ذلك، حتى كتب الله لهم الهداية واعتنقوا الإسلام والتزموا بأحكامه عن دراية وحب.

واتجهت الفتاة الداعية عندئذٍ إلى أمها تعرفها بالإسلام وتدعوها إليه. وصبرت وعانت في سبيل ذلك ما عانت. ومرت سنوات دون أن يأتي جهدها هذا بطائل. ثم إن الأم مرضت مرضاً عضالاً، أدخلت على أثره المشفى.. وجلست الفتاة الداعية تسهر إلى جانب أمها لا لكي تقوم بواجب تمريضها فحسب، بل لتواصل سعيها وجهادها لهداية أمها إلى الإسلام، وقبيل أن تصل الأم إلى الرمق الأخير أعلنت عن انشراحها

للإسلام واستعدادها لاعتناقه. فما كان من الفتاة إلا أن اتصلت بالمركز الإسلامي في لندن، تبحث عمن يأتي من المسلمين فيه، فيشهد على إسلامها، لتعامل بعد وفاتها معاملة المسلمين في أمور التجهيز ونحوه. وأجابها موظف السنترال الباكستاني معتذراً بأنه لا يوجد أحد من المسلمين تلك الساعة في المركز.. ولكن الفتاة ناشدته أن يأتي هو إذن، للضرورة القصوى.

ولما وصل الموظف الباكستاني إلى المشفى، كانت الأم قد انتهت من وضعها السيئ إلى سبات عميق، وكانت ابنتها تجلس إلى جانبها وقد أدنت فمها من أذنها، وهي تردد دون انقطاع: أشهد أن لا إله إلا الله، ولم يكن من الرجل، عندما رأى هذا المشهد، سوى أن جلس هو الآخر في الجانب الثاني يردد على سمع الأم التي تعاني من غيبوبة تامة: أشهد أن لا إله إلا الله.. وكانت الفتاة في كرب خانق من أن تموت أمها دون أن تتشهد شهادة الإسلام.

وفجأة، فتحت الأم عينيها، ومدت الإصبع السبابة من يدها اليمنى، قائلة بصوت مرتفع - وهي لا تعرف شيئاً من العربية - أشهد أن لا إله إلا الله، ثم تابعت تقول بالإنكليزية: مرحباً بملائكة الله، وما هو إلا أن أسلمت الروح!..

هذه اليقظة التي عاودت الأم قبل موتها بلحظات، لم تكن إكراماً من الله لها، بمقدار ما كانت إكراماً منه لابنتها التي ما فتئت تدعوها إلى الإسلام وتعرفها به في صحوتها وعافيتها،

ثم ظلَّت، دون انقطاع، تلقنها الشهادة وتهتف بكلمة الإسلام على أذنها في أثناء غيبوبتها.

لقد كانت تناشد الله بلسان حالها، ألَّا يدع أمها ترحل من هذه الحياة إلا وقد اعتنقت دينه وذاقت مثلها لذة معرفته.. فكان أن لبى الله السميع البصير منها هذه المناشدة، وأيقظ أمها وهي في سياق الموت، وأنطقها بما طيب خاطر ابنتها، وبما بشرها أن دعوتها إلى الله لم ولن تذهب سدى، وإذا كان يعزُّ عليها - وهي الرحيمة بأمها - ألا يكرمها الله بمثل ما أكرمها به من سعادة معرفته والإيمان به، فإن الله أرحم بها منها وأشد إكراماً لها منها.

وزبدة القول في كل ما ذكرناه، وفي هذا المشهد الأخاذ الذي سقناه، أن الناس كلما ازدادوا تراحماً، ازداد الله بهم رحمة. ولن يتراحم الناس بشيء أجلَّ وأسمى من الدعوة إلى الله والتعريف بدين الله مع الصبر الجميل على ذلك.

❊ ❊ ❊

مشكلة الوجود الإسلامي

في ظِلِّ النِّظَامِ العَالَمِيِّ الجَديد[1]؟

١- هل سيكون للإسلام دور في ظلِّ النِّظام العالمي الجديد؟..

من المؤسف أنَّ هذا التَّساؤل إنما يشغل بال المجتمعات الغربية وحدها، فهم الذين يتطارحون فيما بينهم هذا الأمر في اهتمام بالغ، وفي افتراضات خيالية شتى للآثار والنتائج المتوقعة..

أما المجتمعات الإسلامية التي يفترض أن تكون هي المصدر الأوَّل للاهتمام به، لا بل أن تكون هي الساعية إلى رسم الجواب المطلوب، ثمَّ الساعية إلى وضعه موضع التنفيذ، فهي في شغل شاغل عن هذا كله!..

غير أنَّها - والحقُّ يقال - تشترك مع ساسة المجتمعات الغربية والمفكرين فيها، في الحديث عن طبيعة نظام عالمي

(١)كتب هذا الفصل قبل أن يتحول مشروع النظام العالمي الجديد إلى فرض العولمة والتبعية على العالم الإسلامي كله.

جديد يتَّجه التفكير إليه، بل يوشك أن يتكامل ميلاده. وتصغي باهتمام ربما إلى ما قد يقال عن طبيعة هذا النظام وأهدافه.

وربما ظهر في مجتمعاتنا هذه من قد يطرح بعض التعليقات أو التصورات أو التوقعات، تظرفاً أو لفتاً للأنظار، أو تهرُّباً - ولو في الشكل - من العزلة التي تلاحقنا، وتقترب دائرتها المحيطة بنا، تدريجياً من سائر الجهات والأطراف.

مهما يكن، فإنَّ هذا الاشتراك لا يتجاوز الحدود الكلامية، بل الإنشائية التقليدية.. أما هذا الذي يهتم به الفكر الغربي من التساؤل عن مدى إمكانية افتراض أن يقوم الإسلام بدور ما في اختيار هذا النظام أو إرسائه أو الوقوف في وجهه، فهو ما لا يعبأ به المجتمع الإسلامي لا على مستوى الساسة القياديين، ولا على مستوى العلماء والمفكرين. ولا شكَّ أن الوقائع الفردية في مثل هذا الأمر، لا قيمة لها، ولا يُرصد لها أيّ حساب.

٢- ولكن فلنتساءل عن السبب الذي يكمن وراء اهتمام الغربيين بهذا الذي كان أحرى بالمسلمين أنفسهم أن يهتموا به... ما الذي يحملهم على افتراض أن الإسلام يمكن أن يتسرب بعقائده أو أي من مبادئه الفكرية والحضارية إلى بنيان النظام العالمي الجديد الذي يحلم به الغرب ولما يولد بعد؟ ومن ثمَّ فما الذي يخيفهم منه، على احتمال أن يكون له في هذا النظام أي دور أو وجود؟.

إنَّ السَّبب يتمثَّل في تحطم ذلك الصرح الذي حسب كثير من الناس، إلى أمد قريبٍ أنه يشكل أيديولوجية لحضارة إنسانية

كاملة، بدءاً من الأساس الاعتقادي المتمثل في تفسير الكون والإنسان والحياة، وانتهاءً بالأنظمة الحياتية والسلوكية المختلفة التي تعدُّ ثمرة طبيعية، بل عملية لذلك الأساس.

وإننا لنذكر جميعاً كيف أن محترفي الغزو الفكري ضد الإسلام، على اختلاف نحلهم وانتماءاتهم السياسية، كانوا يرون في ذلك الصرح الماركسي، الصيغة العلمية الأولى، بل الوحيدة، التي يمكن أن يجابَه بها المدُّ الإسلامي، كي يبقى حبيساً داخل حدوده التقليدية الضيقة، بل كان الأمل قوياً أن يتحقق لهم من ذلك الصرح سلاح هجومي يقارعون به العقائد والمبادئ والأنظمة الإسلامية داخل أفكار المسلمين أنفسهم.

فلما تهاوى ذلك البنيان، وتحوَّل إلى حطام من قمته إلى أساسه، أفزع الأمرُ الأعداء التقليديين للإسلام والمسلمين في المعسكر الغربي، بمقدار ما أسعدهم وأثلَجَ صدورهم؛ ذلك لأنهم رأوا أن انهيار المعسكر الشرقي بكل أسسه ومقوماته، يعني تحطُّم الترسانة الوحيدة التي كانت تحول دون تسرب مبادئ الإسلام وقيمه إلى الفكر الغربي والمجتمعات الغربية، بل كانت تحاول أن تشلَّ فاعليَّته الحيَّة حتى داخل الوطن الإسلامي.

وإذا كانت أمريكة - كما هو معلوم لنا جميعاً - تستعين فيما مضى، لدرء خطر الإسلام عنها، ولإضعاف فاعليته في بلاده، بالفلسفة الماركسية ومروِّجيها وأنصارها، بالدعم والتشجيع وتوطيد المناخات الملائمة لنمو تلك الفلسفة وانتشارها؛ فبمن تستعين لدرء هذا الخطر اليوم؟ ومن خلال

أي صيغة إلحادية أو لادينية، يمكنها أن تتقدم لمحاربته؟ ومن أين لها أن تخلق البديل المناسب عما كان معروفاً في بلادنا باسم «الشيوعية الأمريكية»؟.

لقد تهاوت الترسانة التي كانت خير أداة، من وجهة نظر الغرب، لتحطيم النشاط الإسلامي في ربوعه وخارج ربوعه، وهو الأمر الذي جعل خطر هذا النشاط وشيكاً، وجعل السبيل بين الإسلام وعقول الناس ميسرة معبدة. هذا إلى جانب أن كُتلاً إسلامية لا يستهان بها ظهرت تحت أنقاض ذلك المعسكر الذي تهاوى، وهي أقوى ما تكون اعتزازاً بهذا الدِّين وقناعةً به وإدراكاً له، دون أن يخنق أو يضعف شيئاً من ذلك كله، القهرُ الذي تطاول أمده واستمرَّ قرابة قرن من الزمن.

٣- إذن.. كان لا بدَّ أن تزداد مخاوف الغرب من الإسلام، وأن يفترض كثيراً من النتائج التي لن تكون في مصلحته، في الوقت الذي لم يستطع أيضاً أن يخفي اغتباطه بانهيار المعسكر المنافس الذي استراح الغرب بزواله من أعباء الحرب الباردة بسائر ذيولها وتبعاتها.

ولعلَّ أوَّل تصريح يكشف عن الحجم الحقيقي لهذه المخاوف، ويتم نشره وتصديره بطريقة لم نعهدها لدى الغرب من قبل، تلك الكلمات التي نقلتها إذاعة لندن في بثِّها العربي على لسان تاتشر، مساء اليوم الثالث من شهر شباط عام ١٩٩٠ في برنامج الشؤون العربية في الصحف البريطانية. وهذا هو التصريح:

«كان أمام الغرب عدوان اثنان: الشيوعية والإسلام، وقد تم القضاء على العدو الأوَّل، دون أن يقدم الغرب في سبيل ذلك خسائر تذكر. ويقف الغرب اليوم مع الشرق الأرثوذوكسي والكاثوليكي في خندق واحد، لمجابهة العدو الباقي وهو الإسلام».

ولا أدري هل كان لحرارة هذا التصريح ومظهره العدواني الواضح، أثر ما في إقصاء تاتشر عن الحكم، وقد جاء بعد تصريحها هذا ببضعة أشهر فقط.

أياً كان الأمر، فإن التصريحات المشابهة، ظلت تصدر إلى يومنا هذا تباعاً من مسؤولين غربيين في كل من أمريكة وفرنسة، وإن كانت تتسم بأساليب أقل إثارة، وتبتعد في نقدها المباشر عن جوهر الإسلام، لتتجه إلى ما يصاحبه اليوم من أحوال كثير من المسلمين وأنشطتهم التي يمارسونها باسم الإسلام، وفي مقدمة ذلك مظاهر العنف والتطرُّف التي غدت بالنسبة إلى الغرب ذريعة هامة وباهظة الثمن، قد لا يقوم مقامها أي بديل في ستر عدوانهم الحقيقي لجوهر الإسلام.

إن الانتقادات الشديدة التي توجه إلى الإسلام اليوم، من خلال استمرار لفت النظر إلى ما يسمُّونه بالتطرُّف آناً والأصولية آناً آخر، ومن خلال رسم صور كاريكاتورية وهمية سوداء، لكثير من مبادئه وقيمه، تتزايد يوماً بعد يوم، غير أنها تبرز مشاعر الخوف منه، أكثر من أن تعبِّر عن مشاعر الازدراء والاشمئزاز تجاهه.

وقد يجدر في هذه المناسبة أن أنقل - مثالاً بارزاً يجسِّد

ما أقول- صورة دقيقة عن حوار جرى بين السَّيِّد الرَّئيس حافظ الأسد، رئيس الجمهورية العربية السورية، ومعاون وزير الخارجية الأمريكية السابق، السيد مورفي، في لقاء تمَّ بينهما في دمشق، أنقلها طبقاً لما حدَّثني به السَّيِّد الرَّئيس مباشرةً:

قال السَّيد مورفي: ألا تلاحظون أن خطر المسلمين الأصوليين عاد يظهر في بلادكم من جديد؟

أجابه السَّيد الرَّئيس: ليس بيننا وبين المسلمين الأصوليين أيّ مشكلة.. وإنما كانت مشكلتنا مع المسلمين غير الأصوليين.

ثم قال له: إن أصول الإسلام تتمثَّل في القرآن الكريم الذي هو كلام الله، وفي السُّنَّة التي هي تعاليم رسول الله، ولا شكَّ أن المتمسك بهذين الأصلين إنسان مثالي الأخلاق والسلوك. ثم تابع الرَّئيس يقول: لقد أصبحت شخصياً على قناعة تامة بأن مشكلات الشرق، ومشكلاتنا بالذات، لا يمكن حلُّها إلَّا من خلال الإسلام الأصولي.

قلت للسيِّد الرَّئيس: كيف كانت انطباعات الرجل من كلامكم هذا؟

أجاب قائلاً: لقد حاول جاهداً أن يخفي فزعه الَّذي ارتسم واضحاً على قسمات وجهه، وأن يبدِّد حيرته التي تملَّكته في الإجابة عما لم يكن يتوقَّع أن يسمع!..

وقد حدَّثني قبل عامين وزير الشؤون الدينية الأسبق في الجزائر، أنَّ الرَّئيس الفرنسي أرسل إلى الرَّئيس الشاذلي بن

جديد، بعد إعلان النظام الديمقراطي في الجزائر، ووضعه موضع التنفيذ، يناشده إعادة النظر في هذا القرار، لا سيما بالنِّسبة إلى الحركات والأنشطة الإسلامية، وأكَّد له أن فرنسة مستعدَّة مقابل ذلك لتحمل سائر الديون التي ترزح الجزائر تحت وطأتها.. ولكن الرَّئيس الشاذلي أجابه:

إن أبواب الديمقراطية قد تم فتحها ولا مجال لإغلاقها ثانية. أما الديون فالله هو المستعان في سدادها.

إذن، فالغرب في الوقت الذي أعلن عن اغتباطه بزوال المعسكر الشرقي المناوئ، لم يستطع أن يخفي فزعه الشديد من مدّ إسلامي متوقّع، في أعقاب انهيار سدِّ الإلحاد الشيوعي.

على أن ميلاد هذا الفزع أو التخوف من المدِّ الإسلامي المتوقَّع، لم يكن مصاحباً لانهيار المعسكر الشيوعي وموت الأيديولوجية الماركسية؛ بل هو تخوفٌ قديم ظلَّ يساور قادة المجتمعات الغربية بدءاً من عصر النهضة الأوربية الذي صاحب انهيار الخلافة العثمانية. ولعلنا لم ننس بعدُ تقارير كبار المبشِّرين والمستشرقين من أمثال صموئيل زويمر، ووليم بالكراد، والمستشرق الإنكليزي جب، وغيرهم، وهي جميعاً تلتقي على التنبيه إلى خطورة الإسلام على الحضارة الغربية، نظراً لما يتصف به من مقومات البقاء والعوامل الذاتية التي تدفع به إلى النمو والانتشار خارج أقطاره.(١)

---

(١)انظر التقرير المطوّل الذي كتبه المستشرق الإنكليزي H.A.R. Gipp تحت عنوان WHITHER ISLAM أين يتجه الإسلام، طبعة لندن، عام ١٩٣٢.

غير أنَّ هذا التخوف ازداد سلطانه في نفوس قادة تلك المجتمعات، بانهيار هذا السدّ الذي كان يشكل - في تصورهم - أقوى حاجز، يعوق الإسلام (باسم العلم والفلسفة المادية الحديثة) عن التقدم والانتشار.

٤- والآن، ما هي التدابير التي اتخذها الغربيون، على أثر ظهور هذا الوضع العالمي الجديد الذي زاد من خطورة الإسلام على مصالحهم، فيما يقدِّرون ويتصورون؟

أعتقد أنَّ هذه التدابير التي سأشير إليها باختصار شديد، لم تتخذ عقب انهيار المعسكر الاشتراكي أو الشيوعي، كما قد يتصوَّر البعض، بل كانت مرسومة جنباً إلى جنب مع التدابير المتخذة للقضاء على ذلك المعسكر والتَّخلص من عقابيله كلها... فالخطط المرسومة والرامية إلى زجِّ المعسكر الاشتراكي في الإفلاس فالدمار، كانت - في الحقيقة - جزءاً من الخطط الرامية إلى تحجيم فاعلية الإسلام والمسلمين، وتبديد سلطان الإسلام وقوته من خلال شغل العرب والمسلمين بمزيد من المشكلات وأسباب الفرقة والشتات.

أي إن سلسلة التدابير التي اتخذت لإنهاء الاتحاد السوفييتي وتفكيك عراه، هي ذاتها التي تضمنت، فيما تضمَّنت، رسم الأسباب المباشرة لما قد جرى بعد ذلك من اجتياح العراق للكويت، ثمَّ إلجاء دول المنطقة إلى الترامي على أذيال الولايات المتحدة، لكي يتاح لها أن تغزو المنطقة، وهي متفضلة مشكورة!..

أجل، فسلسلة التدابير واحدة، وحلقاتها متساندة ومتَّسقة، وليس في الأمر خطة مستقلة ألحقت بأختها بعد ظهور أحداث أو طروء مفاجآت[١].

ولكن، ما هي هذه التدابير التي كان الغرب ولا يزال يتخذها عموماً، ثم الولايات المتحدة خاصة، من أجل تبديد المخاوف المتفاقمة لديها، من مدٍّ إسلامي ينتشر ويهيمن على أعقاب انفراد القوة الأمريكية، تقريباً، على مسرح الأحداث؟

إن الحديث التفصيلي عن هذه التدابير يدخلنا في متاهات وعلاقات معقدة جداً وهي هدف مطلوب بحدٍّ ذاته، بل هي جزء أساسي من سلسلة التدابير ذاتها.

غير أنَّ نظرة متفحِّصة إلى الخطوط العريضة المستخلصة، تضعنا أمام تبصّر واضح للأهداف الفرعية التالية:

أولاً: إثارة مزيد من المشكلات التي تستعصي على الحلّ، في العلاقات القائمة بين معظم الدول الإسلامية لاسيما العربية، ابتغاء تبديد ما قد تتمتع به من استقرار وقوة، وزجها جميعاً في يمٍّ من القلق وفقدان الثِّقة، ومن ثمّ إخضاعها لتيار التبعية السياسية والفكرية والاقتصادية، للغرب.

إن حرب الاستنزاف التي اتَّقد سعيرها بين العراق وإيران، وانتهت إلى ما عبروا عنه مجاملةً: (لا غالب ولا مغلوب) وهي

---

(١)كتب رياض الريِّس مقالاً في مجلة المستقبل العدد ١٢٧ الصادر في تموز لعام ١٩٧٩، بعنوان (الخليج العربي، عودة الاستعمار) ذكر فيه أن دبلوماسياً بريطانياً سابقاً أطلعه على خطة استعمارية جديدة تهدف إلى الاستيلاء على ينابيع البترول في الخليج، وأن الاتحاد السوفييتي لن يعارض.

إنما انتهت في الحقيقة إلى هلاك مرسوم حاق بكلا الطرفين؛ إن هذه الحرب ليست إلا واحدة من هذه المشكلات المبرمجة ابتغاء الوصول إلى آثارها المتطلَّبة. ولعلَّ الذين تابعوا ما سمِّي بفضيحة إيران غيت، وصبروا على متابعة تعقيداتها المصطنعة بدقة إلى النهاية، أتيح لهم أن يضعوا أيديهم على الخطط الخفية التي رسمت ابتغاء هدف واحد، هو أن تدور من تلك الحرب رحى الدمار على سائر ما قد يوجد من قدرات مادية ومعنوية لدى كلا الطرفين، بعد إثارة عوامل البغضاء العرقية بينهما إلى أقصى الحدود الممكنة[١].

وإن مأساة الخليج التي بدأت بخطة اجتياح العراق للكويت، ثم أدَّت إلى انتشار الجيوش الأمريكية وحلفائها متمركزة حول ينابيع البترول، ثم انتهت بالحرب العاصفة التي أتت على بقايا القوة المادية والمعنوية التي كانت تتمتَّع بها المنطقة، ثم خلفت من ورائها عوامل التدابر والبغضاء، وأحالت كثيراً من دول المنطقة إن لم نقل كلها إلى محاور متشرذمة، قد تقطَّعت مما بينها جسور التواصل والقربى، لتترسخ في مكانها جسور من العاطفة المشبوبة نحو الغرب. أقول: إن هذا المأساة التي فرضت على المنطقة فرضاً، حلقة فريدة في سلسلة هذه التدابير المبرمجة، وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بعمليات التعجيل بالقضاء على المعسكر الشرقي.

(١) اقرأ فصل (إيران غيت) من كتاب (أمراء الموساد) تأليف: يوسي ميليمان ودان رافيف YOSSI MELMAN AND DAN RAVIV.

والثمرة المرجوة من جرِّ هذه المأساة، هي فرض السياسة الأمريكية الجديدة على المنطقة، والدائرة على محور (سأنقذكم من الغرق بشرط أن تعطوني قلوبكم)[١].

ثانياً: إثارة الخصومات المفتعلة والدائرة بين قادة كثير من دول المنطقة العربية، وفئات من مواطنيها باسم السعي إلى تحقيق إصلاحات إسلامية، والتي تنتهي في أغلب الأحيان إلى هياجات عدوانية واتهامات بالمروق والكفر، وهي ليست في حقيقتها إلا من دخان هذه التدابير. وقد تعوق كثافة الدخان عن رؤية السبل المتخذة لذلك. ولكنَّ اختراق الدُّخان يسير على من يراقب الأمور ويتَّبع سلسلة الأحداث.

إن هذا الهياج المتصادم يتم من خلال خطتين متقاطعتين، تنتهيان إلى غاية واحدة.. الأولى منهما تتمثَّل في استثارة العواطف الإسلامية المتأجِّجة في صدور كثير من الشباب، ثم السعي بهم إلى مزاحمة الحكام على كراسي الحكم، لفرض الإسلام على الناس من هناك.. والثانية منهما تتمثل في لفت أنظار الحكام إلى الخطر الحقيقي الكامن في تحركات هؤلاء الناس وتطرُّفاتهم، بل ربما في لفت أنظارهم - في الوقت المناسب - إلى صلات خفية ممتدة بين هؤلاء الإسلاميين وقوى أجنبية معادية.

---

(١)انظر: حوارات مع مسلمين أوربيين، للدكتور عبد الله أحمد الأهدل. ص١٣، طبعة دار القلم.

ثالثاً: الثمرة المرجوة من التخطيط لهذا التصادم تحقيق غايتين اثنتين:

أولاهما تفويت فرص الاستقرار في المنطقة كلها ما أمكن، عن طريق شغل القادة والحكام بالعمل على درء هذه الأخطار الداخلية.. والثانية تسليط الجماعات الإسلامية وفئات الحكام بعضها على بعض، كي يتم تمزيق الطاقات الإسلامية عن طريق التآكل الذاتي، بعيداً عن أيِّ يد أجنبية ظاهرة قد تتهم بالتدخل.

ولا شكَّ أن سلسلة هذه العمليات التي تنفذ بإتقان، قد آتت - ولا تزال - ثمارها المرَّة هذه. ونظرة سريعة إلى أحداث المناطق الإسلامية القريبة منا والبعيدة، تجسِّد هذا الواقع كله، بدءاً من التدابير الخفية التي لم تعد - بحمد الله - خفيَّة، وانتهاءً بالثمار المرَّة التي عم فينا جميعاً مذاقها.

٥-والآن.. وفي ضوء كل هذا الذي أوضحناه، يحين لنا أن نتساءل: هل للإسلام دور في ظلِّ النظام العالمي الجديد؟

عندما ننظر إلى الإسلام بحدِّ ذاته، بقطع النظر عن المسلمين، فالجواب ماثل في الذهن رأساً، وهو: نعم، لا شكَّ أن الإسلام له دور الريادة في قيادة العالم الجديد.

ذلك لأن المناخ العام في المجتمع الغربي، بشطريه الأوربي والأمريكي، قد تهيأ لتفهم الإسلام وقبوله، كما لم يتهيَّأ لذلك في أيِّ عهد سابق من قبل... إن الإنسان الغربي لم يعد يجد

اليوم في نفسه شيئاً من الثقة التي كان يشعر بها تجاه الحضارة الغربية فضلاً عن الاعتزاز الذي كان يتمتع به.

فالمجتمع هناك لا يزال متجهاً إلى مزيد من التفكُّك، والأسرة ماضية إلى الاضمحلال حتى غدت في كثير من المناطق وهماً لا يجسِّده إلا هيكل دار قائمة.. والنظام الاقتصادي يثبت في كل يوم مزيداً من الأدلة على سوء نتائجه، وخيبة آمال الناس فيه؛ والكساد متفاقم، والبطالة المستشرية ثقل خانق يتعاظم وقعه المخيف على المجتمع كله..

وتتزايد، تحت وطأة ذلك كله، عوامل القلق النفسي، وتتلاحق الأسئلة الملحة عن أسرار الانفصال العجيب بين السعادة النفسية وأسبابها المادية المتوافرة، وتزداد الأسئلة في غمار ذلك عن أصل هذا الكون.. وقيمة الحياة.. ونهايتها.. وما قد يكون وراءها، والسبيل الأمثل إلى طمأنينة النفس وراحة الفؤاد[١].

وما إن يتاح لك أن تبعث نظرة متأملة إلى تلك المجتمعات التي هذه هي حالها حتى تلاحظ بوضوح أن السعي اللاهث هناك إلى المتعة وأسبابها، لم يعد كما كان من قبل، استزادة من مقومات السعادة ورغد العيش، وإنما هو اليوم، على الأغلب، مجرد فرار من وطأة القلق والاضطراب، وتسبب لنسيان أو تناسي المجتمع وأوضاعه السائدة التي تظل سائرة بشكل متناقض مع فطرة الإنسان وحاجاته الأصيلة.

---

(١) انظر «حوارات مع مسلمين أوربيين» ص١٥ و ٤ و ٧.

هذا هو المناخ العام الذي يسود المجتمع الغربي، ولا شكَّ أنَّه تعبير فطري صريح وقاطع عن حاجته الماسَّة، بل الحتمية، إلى الإسلام.

ذلك لأنه ليس ثمة من علاج لسلسلة هذه المشكلات كلها إلا الإسلام، متمثلاً في عقائده القائمة على المنطق والعلم والمتفقة مع الفطرة الإنسانية، ثم في عباداته التي تُبقِي على حيوية تلك العقائد، وتمنحها من القوة والفاعلية ما تهيمن به على سلوك الإنسان، ثمَّ في أخلاقه وأحكامه السلوكية التي تضمن للمجتمع تماسكه، وتحصن الأسرة وتحيطها بإطار من الحماية والقداسة.

غير أنَّ الإسلام لا يتحقق إلا بمسلمين، فهم مظهره المتجسد، وهم الحماة له، وهم الأدلَّاء عليه، وهم المعرفون على ضرورته ووجه الحاجة إليه، لا سيما عندما يتكاثر الأعداء والخصوم المتربِّصون به، والذين يرون في المناخ الذي ذكرناه ما يجسِّد خطورة الإسلام عليهم، بدلاً من أن يبصروا فيه الدواء الشافي لهم.

فأين هم هؤلاء المسلمون؟..

إن المسلمين اليوم، على كثرتهم، لا قبل لهم برصد المخططات التي تتخذ ضدهم، ثم تنفَّذ تباعاً في حقِّهم، فضلاً عن أن يواجهوها بخطط وتدابير مقابلة.. فضلاً عن أن يضعوا تدابيرهم هذه موضع التنفيذ!..

والمسلمون اليوم منهمكون فيما قد زجَّهم قادة الاستعمار الغربي فيه.. إنهم منهمكون في خصوماتهم، منصرفون إلى قضاياهم ومصالحهم الجزئية المتناقضة، وقد أعرضوا عن جذور مصالحهم الواحدة والموحدة.

والإسلام الذي يتعامل معه كثير من قادة الشعوب العربية والإسلامية، إسلام أطر ومظاهر وشعارات، وتشهٍّ لمنجزاته الحضارية.. أما حقائقه وجذوره التي لا يمكن أن تستنبت وتزدهر إلا في تربة الاصطباغ الحقيقي بعبودية الإنسان لله، فبعيدة عن الأذهان، مقصية عن الواقع التطبيقي المبرمج.

وأهم من هذا كله، أو أساس هذا كلّه، أن أصابع القيادات الغربية، هي التي ترسم أطر العلاقات التعاونية وحدودها، بين كثير من دول المنطقة وحكامها، سواء على المستوى الاقتصادي أم السياسي أم الاجتماعي العام. وواضح أن رسم ذلك كله إنما يتم طبقاً لمصلحة الغرب، وطبقاً لما تقتضيه خطة الهيمنة على قيم هذه المنطقة وثرواتها، وطبقاً لما تقتضيه مقاومة سعي القائمين عليها، إلى تحقيق أيِّ تضامن أو تعاون حقيقي فيما بينهم.

وعلى سبيل المثال، إن مقومات التكامل الاقتصادي بين الدول العربية، متوافرة على نحو لا تكاد القوى البشرية المخططة تملك القدرة على توفير مثلها، ولكن التدابير الأجنبية المفروضة عليها بطريقة ما، تمنعها من أي إقبال إليها أو استفادة منها، فضلاً عن أن تجني شيئاً من ثمارها. ولعلَّ واقع

السودان الشقيق وعلاقته المأساوية بكثير من جيرانه وأشقّائه العرب المسلمين، واحد من الأمثلة الواقعية على ما نقول.

إن كثيراً من الناس يتحدَّثون اليوم عمَّا يسمونه التحدِّيات التي تواجه الإسلام، من حيث هو طاقة إصلاحية فريدة، ويعدون منها المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية المختلفة، غير أنني أقول: إن التحدي الحقيقي لا يكمن في شيء من ذلك كله، وإنما هو يكمن بل يتجلَّى في هذا الَّذي أقول، إنه يكمن في التدابير المتخذة لإقصاء المسلمين عن إسلامهم ثم لتقطيع جسور التواصل الممتدة فيما بينهم.

أجل، فإن التحدي الذي يواجه الإسلام من خلال المسلمين المتناثرين في أوطانهم المترامية اليوم، إنما يتمثَّل في تلك القوى الأجنبية التي تمنع الأشقاء من أن يمدّوا أيدي التعاون بعضهم إلى بعض، ومن أن يعملوا على نسج وحدة اقتصادية أو سياسية أو فكرية عامة فيما بينهم، قد متعهم الإسلام بأسسها ومقوماتها، وأمرهم الله، كما أمر الناس عامة، أن يضعوها من حياتهم موضع التنفيذ.

فهذا لا غيره هو التحدِّي الخطير المعلن الذي يردده المسؤولون الأمريكيون أولاً، ثم كثير من المسؤولين الأوربيين ثانياً، في كلِّ مناسبةٍ وبشتى الأساليب.

ذكر طبيب أمريكي، في مقال نشرته مجلة ليفيغارو LE IFIGARO الفرنسية، عن الإسلام في أمريكة ما نصه: إن

الإسلام دين تسامح، وإن الحكومة الأمريكية تحارب الإسلام في كل مكان في العالم، لأنَّها الديانة التي تقنع الفرد بسرعة، كما تحارب توجه المسلمين نحو أي اتحاد فيما بينهم، لأنه إذا اتَّحد المسلمون فلن تكون هناك ولايات متحدة أمريكية في العالم[١].

والمفروض أنها تحدِّيات مخفقة، لا تملك أكثر من التعبير عن أحقاد أصحابها، غير أن هذه التحديات الخائبة واجهت، ويا للأسف، نفوساً تأسرها عوامل الرغبة والرهبة تستمرئ المغانم وتفرُّ من المغارم، قد هانت على نفسها بمقدار ما تعاظمت ملاذ الدنيا وشهواتها في أعينها، فكان أن سيق أصحاب هذه النفوس من نقطة الضعف هذه، ثم كان أن نجحت التحديات التي أشرنا إليها وفعلت فعلها المميت في حياة هذه الأمة التي كانت يوماً ما أمة واحدة هي خير أمة أخرجت للناس، فتدابر الإخوة بعد أن كانوا مجموعة جهود متضافرة، ومنع كل منهم رفده عن صاحبه وامتنع عن مقايضته بمثله، ليعود به إلى العدو المشترك أو ليتقبَّله منه لا من أخيه!.. ألم يقل لهم هذا العدو من قبل: «أعطوني قلوبكم، وسأنقذكم من الغرق».

ونتأمل في هذا الواقع، وإذا هو في جملته وتفصيله ينطبق انطباقاً دقيقاً على الرؤية النَّبويَّة الشَّريفَة لما سينتهي إليه حالنا،

---

(١)من مقال بعنوان: الديانة الإسلامية في أمريكة، نشرته مجلة LE FIGARO الفرنسية في عددها الصادر في ١٣ حزيران عام ١٩٩٢.

وراء حواجز الدهور والقرون، تلك الرؤية التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث المتَّفق عليه:

«أبشروا وأمِّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى عليكم أن تبسط الدُّنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فَتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكُم كما أهلَكَتهُم».

أجل.. إن هذه الأسطر الثلاثة ليست إلا تلخيصاً مكثفاً لقصة هذه الأمة العربية والإسلامية التي نشهد اليوم أخزى فصولها.

٦- غير أن هناك عدة نقاط مضيئة، ينبغي التنبيه إليها والوقوف عندها قبل أن نستخلص من هذه الوقائع والأحداث أي جواب سلبي عن سؤالنا المطروح الذي جعلنا منه عنواناً لهذا البحث:

أولاً: إن ما يسمى بالنِّظام العالمي الجديد الذي تتداوله ألسنة الناس وأقلامهم، على سبيل التنبُّؤ آناً، وعلى سبيل الدعاية والإعلام آناً آخر، هو أبعد ما يكون عن أن يعدّ في واقع الأمر وحقيقته نظاماً عالمياً، أي معداً للعالم كله.

إن نظاماً عالمياً ينهمك في إعداده ووضعه ١١٪ من سكان هذا العالم هو بحق نظام عنصري استغلالي مميت.. ومهما قيل عن القدرات التي مكنت أمريكة من القضاء على خصمها اللدود، من خلال حرب استنزاف باردة زجَّته بين براثن الإفلاس، فإن ذلك لن يعطيها أي امتياز بأن تنطق باسم العالم

وتتولَّى عنه وضع النظام الذي يروق له، فضلاً عن أن يعطيها أي مبرر شرعي للتحكم بقدرات الأسرة الإنسانية وخيراتها وحريتها.. والديمقراطية إنما يستبين معناها الصادق أو الوهمي من خلال هوية هذا النظام، لا من خلال العلاقة السارية بين الكونغرس والبيت الأبيض حصراً.

لذا.. فإنه لا يتوقع أبداً ولادة هذا النظام على يد هذه النسبة الضئيلة من سكان العالم، اللهم إلا أن تكون ولادة ميتة لا تعقبها حياة.

والتوازن الذي انهار سريعاً لحساب أمريكة بين المعسكرين الشرقي والغربي، سيعود، وإن لم يكن سريعاً، بمقومات أكثر أهمية ورسوخاً. وليس المهم أن يكون التوازن دائماً بين شرق وغرب، إنما المهم أن سنة الله في خليقته هذه نافذة ولن يقع فيها أي تبديل. وقد عبر عنها البيان الإلهي بقوله عز وجل:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١].

ثانياً: إن الوحدة الأوربية غدت حقيقة ماثلة في الذهن، وإن لم تكن قد ولدت بعد على صعيد الواقع.. إن أعلامها ذات النجوم المتضامنة في استدارة كاملة، تخفق في كل شارع وساحة من ربوع أوربة وأصقاعها.

وعندما يرتسم المحور الأوربي، إلى جانب المحور الأمريكي، فسوف ينبثق من ذلك وضع جديد، قد يكون غاية

في التعقيد، ولكن الأهم من هذا أنه وضع يبعث على رفض تبعية العالم كله لهذين المحورين، سواء عن طريق اتباعه لهما، أو انشطاره بينهما.

أجل... فإنه لا الظُّروف والمصالح الاقتصادية المختلفة، ولا الثقافات الإنسانية المتنوعة، ولا الموازين أو القيم الحضارية المتعددة، تسمح لأصحابها بأي شكل من أشكال التضافر والاتحاد، في سبيل أن يجتمعوا فيتلاقوا مستسلمين، سعياً على طريق هذا الاتباع.

وهذا يعني أنه لا بدَّ أن يتحقق عندئذٍ المناخ الملائم لظهور محاور حضارية وإنسانية أخرى، هي اليوم موجودة، ولكن لعلَّها تمرُّ برحم التكامل والنضوج أو لعلَّها تتخير لولادتها الظرف الملائم.

إن تعدُّد المحاور التي لا بدَّ أن يتوالى ظهورها ويتنامى رسوخها في تربة التوازن العالمي الذي لا مفرَّ منه، هو الضمانة الوحيدة لظهور معنى النِّدية المتوازية أو المتكافئة فيما بينها. ومن ثم فهو الضمانة لقيام ديمقراطية عالمية، إن جاز التعبير، تؤدي بالضرورة إلى تعارف أفضل بين الحضارات والثقافات المتنوعة، حيث لا بدَّ أن يؤدِّي ذلك أخيراً إلى ما نسمِّيه بحوار الحضارات.

وعندما تكون حقيقة الندية المتكافئة هي السائدة في جو الحوار، بدلاً مما هو سائد الآن من واقع التبعية الخفية أو

الظاهرة، والمفروضة بشكل ما، فلا بدَّ أن يصبح الحوار حينئذٍ حقيقياً ومثمراً.

وفي هذا الجوّ سيتجلَّى دور الإسلام قوياً وراسخاً.

إن الإسلام الذي هو جذور اعتقادية راسخة، وبنيان حضاري باسق، لم يفرض نفسه ذات يوم إلا من خلال الحوار... الحوار الذي يطابق ظاهره باطنه، ويتجه إلى العقول صافياً عن شوائب الأسبقيات أو الذرائع أو التحكم أو الاستغلال.

لقد كان - ولا يزال - سبيل انتشاره اتباع المنهج الرباني القائل:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٥].

إن تحكم ١١٪ بـ ٨٩٪ من سكان العالم سيختفي!..

ولكنه لن يختفي تحت سلطان قهر الأغلبية أو بقوة السلاح أو في أعقاب حروب مدمرة؛ بل سيختفي تحت سلطان قوة أخرى، هي أمضى وأشدّ فاعلية من ذلك كله.. إنها قوة الحوار الذي لا بدَّ أن يفرض ذاته من خلال السنَّة الربانية التي لا يقع فيها أي خلف أو تبديل... سنَّة التوازن الذي لا يكاد يختفي بمظهره المتقادم حتى يعود فيتجلى بمظهر متطور جديد...

إن كلَّ السُّبل التي تتخذ اليوم من قبل القوى المتحكمة الكبرى، للتربص بالإسلام والكيد له، إنما هي سبل قهرية، بل حرب مقنَّعة آناً ومكشوفة آناً آخر... ومثل هذه السبل قد تكفّ

اليد عن البطش، بل حتى اللسان عن الكلام؛ ولكنها لا تكفّ الفكر عن التأمل ولا العقل عن البحث... والقوة الكامنة في الإسلام هي تلك التي تسري منه إلى العقول والألباب، لا التي يخيل إلى البعض أنها تقهر النفوس أو تلاحق الحريات.

وإذا كان القضاء على الباطل الذي هو باطل، لا يمكن أن يتم عن طريق خنقه، كما يتوهَّم عشَّاق العنف ودعاته، فإن القضاء على الحق لا يمكن، من باب أولى، أن يتم عن طريق السعي إلى خنقه.

إن بين الحق والباطل تناقضاً لا يجهله أحد، ومن ثم فإن الرصاصة التي يتم إزهاق الباطل بها إنما هي الصدع بكلمة الحق مستنيرة بضياء العلم والمعرفة ليس غير، ومهما حاولت استعمال الوسائل القهرية الأخرى فلن تأتي جهودها بأي طائل، ومن ثَمَّ فإن انبلاج الحق هو وحده الذي يؤذن بزوال الباطل.

وانظر إلى هذه الحقيقة الكونية الكبرى، كم هي واضحة إلى درجة التألق في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٨].

والجهاد الذي شرعه الله وجعله دعامة الوجود الإسلامي لا يتعارض مع شيء مما نقول؛ ذلك لأنَّ مواجهة الباطل بمنطق الحق عن طريق البيان والحوار، مع الصبر في سبيل ذلك على كل مكروه، أول أنواع الجهاد وأقدسها... ولأنَّ القتال الذي يشرع بعد ذلك، ليس من أجل اغتيال الباطل في مظهر رجاله المتشبِّثين به أو المدافعين عنه، وإنما هو مشروع

لردّ غائلة الذين يقاومون مبدأ مواجهة الباطل بمنطق الحق... فالقتال الجهادي في هذه الحالة إنما هو لحماية الحوار، ولإبعاد شبح الجبر والإكراه أياً كان الجانب الذي يقدم منه.. على أن هذا القتال لا يشرع إلا فوق أرض يستوطنها المسلمون، وفي ظلِّ دولة ترعى سير هذا القتال وتقدِّر نتائجه وتشرف على تنفيذه.

ثالثاً: مهما قلنا عن إعراض المسلمين التقليديين عن النهوض بواجب الصدع بكلمة الحق هذه، ومهما كانت الأخطاء المتسربة إلى المجتمعات الإسلامية كبيرة، سواء منها المتمثلة في التصورات الخاطئة، أو في السلوكات الجانحة.. ومهما كانت تعليقات القوى المعادية وتقاريرها تتسم بالشماتة والطمأنينة التامة إلى أن الطاقات الإسلامية التي كانت توصف يوماً ما بأنها خارقة قد تمزقت اليوم بأيدي أصحابها(١)، فإن واقع الأمر يخالف ذلك مخالفة حادة.

ذلك لأن الحق الكامن في طوايا الإسلام لا يتم القضاء عليه بتقاعس أهله أو بتخلِّيهم عن رعايته والاهتمام بشأنه أو بأخطاء اجتهادية صادرة منهم، أو حتى - مع أسوأ الافتراضات - بسبب بيعهم لدينهم الإسلامي الحق بعرض من الدنيا قليل.

(١) كتبت مجلة LE'VENEMENT DEGEUDI الفرنسية في عددها ٣٨٠ الصادر بتاريخ ١٣ فبراير عام ١٩٩٢ تقريراً وافياً عن مصير الإسلام والنشاطات الإسلامية في كل من تونس والجزائر والمغرب ومصر وسورية والسودان وتركية والأردن، وينتهي التقرير إلى الابتهاج بأن القوى الإسلامية قد تم القضاء عليها، ولم يعد فيها ما يخيف!..

إنَّ الَّذي يتصوَّر هذا أو شيئاً منه، ربما كان ممن يتخيَّل أن المسلمين، فيما مضى، هم الذين أوجدوا الإسلام، ووضعوا فيه مزاياه وسماته؛ مع أن الواقع نقيض ذلك تماماً؛ فالإسلام الذي هو وحي الله المتضمِّن جملة وصاياه وتعليماته، هو الذي أوجد المسلمين ووضع فيهم مزاياهم وصفاتهم التي اختصوا بها من دون سائر الناس.

وعندما ينفضّ هؤلاء المسلمون عن إسلامهم الذي صاغهم هذه الصياغة، ويخلعون كسوة المزايا والصفات التي ميزهم الله بها بفضل دينه، فإن قدرة الإسلام على صنع الأمم والرِّجال هي هي، لأن الإسلام هو هو، وكما لم يعجز بالأمس عن اصطفاء حفنة من سكان الصحراء لقيادة عالم بأسره وإنشاء حضارة إنسانية كاملة، فلن يعجزه شيء اليوم عن اصطفاء فئة أخرى من الناس، أياً كانوا وأينما كانوا، فذلك شأنه، وتلك هي وظيفته، ألم يقل في بيان ذلك صاحب هذا الدين وقيُّومه:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨]؟

ومرة أخرى أقول مؤكداً: إن كل ما نراه من مظاهر إهمال المسلمين لإسلامهم، أو من مظاهر انحرافاتهم وأخطائهم، مضافاً إليه الكيد المتواصل له من أعدائه وأعدائهم، مع أضعاف ذلك كله لو أضيف إليه، لا يقضي على الحق الذاتي الكامن في طوايا هذا الدين؛ ذلك لأن الحق، بحد ذاته، لا يعيش في باطن الأرض بل على ظاهرها، ولا يحبس في

أقفاص أو وراء قضبان، بل يمتدّ وينتشر داخل الأدمغة والرؤوس.

رابعاً: وبناء على ما أوضحنا، ليس مهماً أن يصحو أو لا يصحو المسلمون التقليديون عندنا إلى هوياتهم الإسلامية، إنما المهم ألَّا ننسى أن الحق الكامن في تضاعيف الإسلام كالشمس تماماً قد تغرب أشعتها عن رقعة من الأرض، غير أنها في الوقت ذاته تبعث الأشعة ذاتها مشرقة في بقاع أخرى من الأرض ذاتها. وإنها لسنَّة ربانية لا يلحقها أي خلف، أَوَلَمْ تقرؤوا قوله عزَّ وجل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤]؟

وإن المصداق الدقيق لهذا الكلام الرَّباني، يتمثَّل فيما نراه من واقع الحرب المعلنة على الإسلام اليوم على ألسنة أكثر قادة الغرب وحكامه!..

إن هذه الحرب المعلنة، وما يتبعها من التقارير التي تتعقَّب واقع المسلمين بالحرب الكلامية هنا وهناك، هي ذاتها التي تلفت نظر الشعوب الغربية إلى الإسلام، وتبعث فيها الاهتمام به والرغبة في الإقبال على معرفته ودراسة حقيقته!.. وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة نتيجة طبيعية لمقارعة الحق ومحاولة

القضاء عليه، فإن القوى الغربية المعادية للإسلام لا تدرك هذه النتيجة، ومن ثم فهي لا تحسب لها أي حساب!..

كنت أتحدَّث في مدينة «ستراسبورغ» في فرنسة، عن المكائد الكثيرة التي ترصد لمحاربة الإسلام هنا وهناك - وكان ذلك في أواخر عام ١٩٩٠ - فأقبل إليَّ شاب فرنسي مسلم، وكلَّمني بعربية لا تخلو من رطانة ولكنة فقال: أين أنت من صادق وعد الله عز وجل؟ ألم يقل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٤].

إن مأساة إعراض كثير من المسلمين عن إسلامهم، وتفرقهم بين متاهات الشهوات والأهواء، لا تشكل خسارة تحيق بالإسلام، وإنما هي خسارة كبرى تحيق بهم أنفسهم. فالحصن الذي يتخلَّى عنه أصحابه يظلُّ حصناً في واقعه وطبيعته وأداء مهمته، ولا بدَّ أن يأوي إليه آخرون؛ وإنما تحدق الأخطار بأولئك الذين تخلوا عنه وآثروا لأنفسهم الانتشار في العراء.

وربما قيل الكثير عن تسبب سوء حال المسلمين التقليديين اليوم، في تعكير الرؤية الصافية إلى حقيقة الإسلام، أمام أبصار الشعوب الغربية التي تتطلع، في ظمأ كبير، إلى معرفة الإسلام. ولا شكَّ أنه قول يؤيّده منطق الأحداث وطبيعة النفوس.

غير أن قوة الإسلام تكمن في الحق النابع من ذاته، بقطع

النظر عن حال المتلبّسين أو المتجمّلين به، ودلائل هذا الحق وبراهينه معروضة أمام سائر البصائر والأبصار. وما أيسر لمن أراد أن يتعرَّف على هذا الحق ودلائله من مصدره الذاتي، أن يدرك لدى النظرة الأولى أن واقع المسلمين في منطقة كالخليج مثلاً لا يكاد يعبر عن شيء من هذا الحق، مهما كانت أصوات الأذان فيها مجلجلة ومهما كانت الأحاديث فيها عن الإسلام منمقة، ومهما كانت تلاوة القرآن فيها مجوَّدة!..

ثمَّ من يدري!.. لعلَّ المخطَّط الرَّباني الذي لا ترصده أعين الناس، ولا تتبيَّنُه مدارك كثير منهم، يقضي بأن يعود الإسلام فيشرق من مغرب هذا العالم، أي من حيث تتَّجه السهام متلاحقة بالحرب إليه والكيد له!... ولقد سبق أن اختار الله لتربية كليمه موسى أحضان عدوّه فرعون.

وصدق الله القائل:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾

[فصلت: ٤١/ ٥٣].

مشكلة المعرفة.. وعلاجها
في حَيَاتِنَا الفِكْرِيَّة المُعَاصِرَة

مقدمات

١ـ المعرفة والمنهج:

من الثابت والمعلوم لنا جميعاً، أن المعرفة هي أساس السلوك، ومصدر التعامل مع الحياة، وإنما تتم المعرفة ببصيرة العقل ودلالته.

ولو أن النفس البشرية كانت لا تتلقَّى توجيهها وإرشادها، إلا من العقل وحده، لما كانت للمعرفة مشكلة، ولما اختلف الناس في أمرها. إذ إن جوهر العقل عند الناس جميعهم واحد، ومقاييسه الكلية ثابتة لا تتخالف.

غير أن من الثابت أيضاً، أن النفس الإنسانية تتلقى التوجيه من مصادر متنوعة مختلفة في كيانها. هي العصبية بأشكالها وأنواعها، ودواعي الشهوات والأهواء، ووحي ردود الفعل، ومقتضيات المصالح المادية المختلفة، وليس صوت العقل

المتحرِّر إلا واحداً من بينها؛ على أن صوت العقل هذا، يضيع ويلتبس على صاحبه في غمار تلك الوساوس والإيحاءات الأخرى، فلا يستبين له، في أكثر الأحيان، هوية.

وهكذا.. فإن غراس المعرفة إنما ينبت بين أمشاج الأعشاب والنباتات المختلفة المتنوعة التي لا بدَّ أن تترعرع وتنمو على سطح الشعور النفسي لكل إنسان.. وهو الأمر الذي يحوج الناس إلى معاناة للفرز والتمييز بين شجرة المعرفة التي هي العقل المتحرر الصافي، وتلك الشجيرات والنباتات الطفيلية الأخرى؛ كي يسلم لهم الإيحاء العقلي السليم صافياً عن الشوائب والكدورات الدخيلة عليه.

هذا إلى جانب أن السير في طريق المعرفة بحدِّ ذاتها، بعد تطهير الطريق من تلك الشوائب، يحتاج إلى ترتيب معين في الخطا وقطع المراحل؛ فإن مسائل العلم والمعرفة مترابطة ومرتبة من حيث المنال، ومتدرجة من حيث الصعود والاتساع، ومتنوعة من حيث البساطة والتعقيد، فاقتضى ذلك كله ضرورة الالتزام بنظام معيَّن لدى السَّير في طريق المعرفة وتغذية العقل.

هذا النظام المتكفِّل بتمييز الإيحاء العقلي السديد، عن منطق الرعونات والأهواء النفسية، والمتكفِّل بتنسيق أدوات المعرفة وأسبابها وفق النظام الذي يتوقف على توافره سلامة المعرفة، هذا النظام هو الذي نسميه: منهج المعرفة.

ولعل هذه المقدمة الوجيزة وحدها، أوضحت مدى ضرورة التزام كل متعلم وباحث، بالمنهج، في سبيل أن تأتي المعرفة

سليمة غير مزيفة، كما أنها أوضحت أن من دخل غمار البحث عن المعرفة دون انضباط بالمنهج الصحيح، حريٌّ به أن يقع في مخاضة ما يسمونه «الجهل المركب» أو أن يقع في تيه الحيرة والاضطراب، أو أن يقع في كَمين الأهواء والعصبيات والرعونات، فيركن إلى زيفها ظانّاً أنها الحقيقة التي أوصله إليها العلم.

٢- المنهج حقيقة ثابتة وليس عملاً إبداعياً:

عرفنا إذن، أن المنهج ليس أكثر من ميزان يلجأ إليه الإنسان، في تقوم أفكاره، ابتغاء التأكد من صحة قراراتها، وسلامتها من الشوائب والأخطاء.

ومن المعلوم أن الميزان حقيقة ذات وجود خارجي ثابت، يخضع للدراية والاكتشاف، شأنه كشأن أي من الموجودات المادية الثابتة بحدِّ ذاتها، دون أن يتأثر وجودها أو شكل وجودها، بأي فكر إنساني أو نظرة اجتهادية. وإلَّا لم يكن جديراً بأن يُسمَّى ميزاناً يتحاكم إليه الناس في شؤونهم وخلافاتهم، سواء المادية منها والفكرية والمعنوية.

وإذا ثبت أن المنهج ليس أكثر من ميزان يستبين به مدى سلامة الفكر من الشوائب والأخطاء، فلا بدَّ أن يكون له هو الآخر وجود ذاتي مستقر، لا يخضع لأيِّ تطوير فكري أو جهد إبداعي؛ إذ لو خضع لذلك لاحتاج الفكر في أثناء الدخول في معاناة تطويره أو إبداعه أو تبديله، إلى مقياسٍ يضبط سلامة

سعيه ومنهجٍ يسدد خطاه، ويبعده عن مزالق الزلل والانحراف، لما قد عرفناه قبل قليل، من أن أي جهد فكري لا بدَّ لضمانة خلوصه من الوهم والانحراف، من اعتماده على منهج يسدد خطاه؛ وعندئذٍ يحتاج هذا المنهج المبحوث عنه إلى فكر يبدعه ويوجده، ويحتاج هذا الإبداع الفكري بدوره مرة ثانية إلى منهج... وتتسلسل الحاجة إلى المناهج، إلى ما لا نهاية، وتبقى عندئذٍ عملية المعرفة منوطة برياح الحيرة والاضطراب تابعة للمقاييس الفكرية المتوالدة التي لا نهاية لها.

إذن.. لا جرم أن المعرفة لا تستقرّ إلا على جذور ذات وجود مستقل بنفسه، وإنما تتمثل هذه الجذور في المنهج الذي يخضع للدراية والاكتشاف، وهو أبعد ما يكون عن أن يأتي نتيجة رغبة أو إبداع. ومن هنا نعلم أن المنهج السديد لمعرفة الحقائق لا يمكن أن يخضع لأي تطوير.

وألفت النظر إلى أننا نعبر بـ «المنهج السديد» احترازاً عن منهج قد لا يكون سديداً بحدّ ذاته..

وعندئذٍ فإن إدخال أي تعديل عليه يصبح ممكناً، ولكن ذلك لا يسمى عندئذٍ تطويراً، بل هو في الحقيقة إصلاح وتصحيح.

ولعل من هذا القبيل المنطق اليوناني الذي رسمه الفلاسفة اليونانيون، منهجاً للمعرفة أياً كان نوعها.

إن من الثابت يقيناً أن الذين رسموا قواعد هذا المنطق لم يبدعوه من داخل أفكارهم، كما شاءت لهم تلك الأفكار أن

تتصور وتقرر. ولكنهم تلمَّسوه على صعيد الواقع الذي يدلُّ عليه قانون الفكر والنظر. غير أنهم ربما تعرَّضوا لخطأ في النظر والاكتشاف، أو خانهم التوفيق في ضبط بعض القواعد والمبادئ بشروطها وقيودها المعتبرة. ثم جاء من بعدهم فتنبهوا إلى تلك الأخطاء أو الثغرات، في أثناء الممارسة والتطبيق، فمن الواضح أن هذا المنهج يخضع، من أجل هذا، للاستدراك والإصلاح. غير أن هذه العملية أبعد ما تكون عن أن تسمى إبداعاً أو تطويراً.

وإذا كنا نضرب المثل بالمنطق اليوناني، فإن من الحق والإنصاف أن أوضح هنا أنَّ هذا المنطق، من حيث إنه ثمرة سعي إلى اكتشاف منهج سليم ثابت للمعرفة، في بعض جوانبها، قد تكون فيه أخطاء، بل لا ريب أن فيه أخطاء، ولا شكَّ أن الإقدام على نقده بشكل بنَّاء؛ يهدف إلى إصلاح تلك الأخطاء أو التحذير منها، جهد عظيم مبرور. غير أن من الظلم أن نحكم عليه بالبطلان جملة وتفصيلاً، لمكان تلك الأخطاء المنثورة فيه.

ومن الثابت يقيناً أن السعي إلى دراسة منهج شامل للمعرفة، في أي عصر من العصور، لا يمكن أن يتمَّ بمنأى عن المنطق اليوناني والتعرف عليه ودراسته دراسة معمقة مستوعبة، بقطع النظر عن الثغرات التي فيه. يدرك هذا كل من حاول الدخول في هذا المضمار، سواء على سبيل الدراية والتطبيق أم على سبيل التنقيب والتأريخ.

٣- دورنا في دراسة المنهج:

بعد أن عرفنا أن دراسة المنهج دراسة علمية صحيحة، لن تكون إبداعية، ولا حتى تطويرية بحال من الأحوال، نقول: إننا، لحسن الحظ، لن نحتاج في عصرنا هذا إلى اكتشاف المنهج أو إلى التفتيش عنه.

فإنَّ المنهج موجود، وإن عصر الإسلام الذهبي قد شهد تكامل بنيانه على أيدي المسلمين اكتشافاً وتنسيقاً وتدويناً، وذلك في غمرة اهتماماتهم بنشر الإسلام، ودخولهم مع الوافدين إليه في سلسلة المناقشات والمحاورات المتعلقة بأصول الدين، ومن خلال سعيهم إلى التوفيق بين مدرستي الحديث في الحجاز والرأي في العراق، حيث دونوا مناهج تفسير النصوص وأصول الاجتهاد لمعرفة الأحكام. كما رسَّخوا القوانين المتكفّلة بالتفريق بين الحقائق التي لا يصح تلقيها إلا عقلاً والتي لا يمكن تلقيها إلا نقلاً.

ولقد كان لا بدَّ لهم أن يعودوا إلى المنطق الأرسطاليسي فيتعرفوا عليه، ويقوِّموه ويستبينوا موضعه من مجموع البنيان المنهجي الذي هم بصدد إشادته. ولسنا الآن في معرض الكشف عن وجوه الاتفاق والاختلاف التي سجلها تاريخ الفكر الإسلامي، بين ذلك المنطق اليوناني وعموم المنهج المتكامل الذي توفروا على كشفه وتدوينه. كما أنا لسنا بصدد بيان مواقف المذاهب الإسلامية المختلفة من ذلك المنطق،

أو الإشارة إلى أعدلها موقفاً وأصوبها دراية وعلماً[١]؛ إنما المهم أن نعلم أن هذا المنهج موجود ومتكامل الجوانب والأركان، في حياتنا العلمية والإسلامية عموماً. وفي نطاق السعي في طريق الدعوة الإسلامية خصوصاً.

غير أن المطلوب منا، في هذا العصر الذي يمتاز بمشكلاته الفكرية والنفسية والاجتماعية الفريدة، هو إعادة التنسيق بين فروعه وأجزائه المتنوعة على نحو يتفق مع حاجاتنا الراهنة، وبتعبير أدق:

المطلوب منا اليوم هو التقاط ما تلحُّ الحاجة الشديدة إليه، من مجموع فصول ذلك المنهج وجوانبه الكلية المتكاملة، ثم إبرازه بلغة العصر وتبسيطه قدر الاستطاعة، ثمَّ طرحه في ساحات الدعوة الإسلامية، ليسير الحوار الإسلامي في ضوئه وينضبط بهديه.

٤- صورة موجزة لواقع الحركة الفكرية والنشاط المعرفي في هذا العصر:

ولكي نكون على بينةٍ من هذه المهمة وأقوم السبل إلى إنجازها بدقة، لا بدَّ من تصور إجمالي لواقع الحركة الفكرية وأصول النشاط المعرفي في هذا العصر. فإن الحاجة إلى المنهج إنما هي وليدة مشكلة، وما لم تتضح المشكلة

(١) يمكنك، للوقوف على تفصيل ذلك، الرجوع إلى كتاب «منهج البحث عند مفكري الإسلام» للدكتور علي سامي النشار.

وتتشخص جذورها وأبعادها، لن يتيسر العثور على المنهج الملائم الذي يناط به حلّها.

بوسعنا أن نوجز بيان ذلك في عالمنا الذي نعيش فيه من خلال النقاط التالية:

أولاً: تهيمن الحضارة الغربية على أوجه النشاط الإنساني المختلفة، في ربوع الغرب على اختلافه، ويعكس ذلك تأثيراً مباشراً على العالم الإسلامي بدرجات متفاوتة بين صقع وآخر، وفئة وأخرى. ومن المعلوم أن عناصر هذه الحضارة إنما تدور على محورها الوحيد الذي لا ثاني له، ألا وهو الزخم المادي.. ذلك الزخم الذي أحال إنسان الحضارة الغربية، بكل خصائصه الفكرية والوجدانية والروحية، إلى حيوان يلهث سعياً وراء المتعة المادية، ثم يلهث سعياً للبحث عن أيِّ سبيل لاكتشاف فنون جديدة منها.

ثانياً: كان لا بدَّ أن يفقد الفكر الإنساني حريَّته تحت سلطان هذا الزخم المادي، فيتحول إلى جندي يتحرك في خدمة ذلك الحيوان المادي الهائج بين جوانح هذا الإنسان الجديد. وهذا ما تحقق في أكثر ربوع الغرب إن لم نقل في عامتها، فقد غدت المعرفة ذريعة للمصلحة... وأصبحت العقيدة تابعة للإرادة. وجنّد البحث العملي لتسويغ كل ذلك وتبريره، بل سرعان ما تم اعتباره منهجاً إنسانياً فذاً في طريق المعرفة والبحث عن اليقين[١].

(١)من أكبر رواد هذا المذهب الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس. انظر كتاب «إرادة الاعتقاد» و«الدين والعقل» و«البراجماتزم».

إن المذهب الذرائعي «البراجماتزم» هو الواقع السائد في ربوع الغرب عامة، بكلا شطريه الأوربي والأمريكي، وهو الأساس الذي تنهض عليه فلسفة المعتقدات وتُبْنَى عليه المعارف الإنسانية على اختلافها.

صحيح أن هذا المذهب، يتحرك في نطاق متميز محدود، على المستوى الأكاديمي، وله قادته وأشياعه المختلفون في الظاهر الرسمي عن غيرهم، إلا أنه هو الواقع السائد على المستوى العلمي، وهو الصبغة العامة للحياة كلها.

وهكذا.. فإن الحقيقة، في ظل هذا الواقع المادي، لم تعد منوطة ببرهانها العقلي وميزانها المنطقي، ودلائلها الواقعية؛ وإنما هي ظل متحرك لما تقتضيه المصلحة المادية والرغبات النفسية وعلى الإنسان في ظلِّ هذا الواقع أن يعوِّد عقله على كيفية الخضوع لمقتضى الرغبة(١).

ثالثاً: كان لا بدَّ أن تنتعش النزعة الإلحادية، تبعاً لذلك كله، لسببين اثنين:

السبب الأول: أن العقل الإنساني إن تم إخضاعه للغريزة البشرية ولواعجها، فقدت الحقيقة بذلك حصنها الوحيد. ومن اليسير عندئذٍ أن يتم تسخير العقل الذي فقد ذاتيته واستقلاله لمقتضيات الإلحاد ومبرراته؛ إذ النزعة الإلحادية ليست مظهراً لنشاط فكري متميِّز، كما قد يظنُّ البعض، وإنما هي في جوهرها أثر من آثار الغريزة البشرية إذ تأخذ مظهرها العصبي

(١)انظر إرادة الاعتقاد لوليم جيمس ص٤ و٥.

فتثور على العقل، وتتجه في رعونة إلى مطامحها الغريزية المتنوعة.

السبب الثاني: أن هذا التيار الذرائعي من شأنه أن يحتضن شعار الإيمان بالله وما قد يستتبعه من مستلزمات سلوكية وأخلاقية بقطع النظر عن مؤيداته العقلية والعلمية، لمجرد أن يديره في فلكه ويسيِّره لمصلحته، ويستخدمه ذريعةً لتلك المصالح النفسية والمادية والسياسية التي سبق أن أشرنا إليها. فينقطع الإيمان بذلك وفي مثل هذا الجوّ، عن براهينه العقلية وأسسه الفكرية والعلمية، ليرتبط بدلاً عنها بالمؤيدات الذرائعية.. وتعبيراً عن هذا الاستخدام قال نابليون كلمته التي اشتهرت عنه: «لو لم يكن الله موجوداً لأوجدتُه». وانسياقاً وراء هذه الفلسفة ذاتها يدعو المفكر البريطاني بنتام في كتابه (أصول الشرائع) إلى استخدام المشاعر الإيمانية أداةً لإخضاع الناس لمقتضى القوانين التي يراها المجتمع متفقةً مع مصالحه، فيقول:

«يجب أن يكون سير الديانة موافقاً لمقتضى المنفعة، فالديانة باعتبارها مؤثِّراً تتركب من عقاب وجزاء، فعقابها يجب أن يكون موجهاً ضد الأعمال المضرة بالهيئة الاجتماعية فقط، وجزاؤها يكون موقوفاً على الأعمال التي تنفعها فقط. وهذه هي القاعدة الأولية، والطريقة الوحيدة في الحكم على سير الديانة هي النظر إليها من جهة الخير السياسي للأمة فقط، وما عدا ذلك لا يلتفت إليه»[١].

---

(١)أصول الشرائع لبنتام، ص٣٠٧، ترجمة أحمد فتحي زغلول.

فمثل هذا الدين الذرائعي الذي تقطعت صلة ما بينه وبين براهينه وأسسه العلمية والعقلية المجردة، لا بدَّ أن يصبح واهي الحجَّة، عارياً عن المؤيدات الحرة المستقلة، من جراء كثرة التلاعب به، فيتكون من ذلك برهان قوي في أيدي أولي النزعة الإلحادية.

إذ يصح لهم أن يقولوا - في ذلك المناخ الذرائعي -: إن الدين إنما تحاك أصوله وفروعه في مصانع الفكر الإنساني، فهو ليس إلا جملة تصوُّرات وأوهام صاغها الإنسان لاصطياد مصالحه وتحقيق مآربه، بقطع النظر عن كونها في ميزان الرؤية العلمية حقاً أم باطلاً، ولذا ينعت الملاحدة أنفسهم في ذلك الوسط الذرائعي بالعلميين والأحرار، على حين يسمون أندادهم من أولي الفكر الإيماني: «الاعتقاديين».

رابعاً: اقتضت تبعية الفكر لسلطان المادة أن تتحول الدراسات الاجتماعية والتاريخية بأسرها، إلى تحليلات خاضعة للأمزجة النفسية أو التيارات السياسية، بعد أن كانت معاناة فكرية خاضعة لمنهج موضوعي علمي مجرد. فلقد استبعدت الطريقة الموضوعية في دراسة تاريخ الأمم والعصور؛ وحلَّت محلَّها الطريقة (الذاتية) التي أبدعها ونادى بها «فرويد».

والطريقة الذاتية تعني ألَّا يقف الباحث والمؤرخ عند رواية الواقعة التاريخية وعرضها بشكل حيادي؛ بل عليه أن يبذل جهده في تحليل عواملها وتبيّن أسبابها، مستعيناً بما يسمى

بمنهج «التوسم» و«الاسترداد»[١]، ولا ريب أن هذا يقتضيه أن يقتحم بخياله ووجدانه وانطباعاته الخلقية والتربوية، معترك تلك الأحداث الخالية، التي تقطع عنها معظم الظروف البيئية والبواعث التربوية والنفسية التي جاءت في أعقابها، ثم ينصب من نفسه قاضياً على تلك الأحداث وأبطالها، من خلال موازينه البيئية والنفسية والتربوية التي تشبّع بها!...

ومن هنا.. كان لا بدَّ أن تتحوَّل الدِّراسات التاريخية، بين أيدي أصحاب النزعات السياسية والأفكار المذهبية والرغبات النفسية، إلى مطية ذلول، يمتطيها كل منهم لبلوغ هدفه والدعوة إلى نزعته ومذهبه، دون أن يكلف ذلك كلاً منهم أكثر من أن يفسر المواقف والأحداث التاريخية على النحو الذي يتفق مع نحلته ومذهبه واتجاهه.

وما أكثر ما تتناسخ الأحداث التاريخية وتتحول وقائعها وتفسيراتها من النقيض إلى النقيض، نظراً لمصالح طارئة وانسجاماً مع مواقف سياسية جديدة!.. وهكذا، فإن التاريخ الإنساني اليوم، عاد، تحت وطأة هذا العامل الخطير إلى بوق يستنطقه كل صاحب نحلة أو مصلحة بما يريد!..

خامساً: تقطعت صلة ما بين العلوم الطبيعية، بعضها عن بعض، وتحولت إلى أوصال ممزَّقة، ثمَّ سُخِّر كلُّ قطعةٍ منها لخدمة جانب من جوانب الحضارة المادية التي تهتم بالإنسان

---

(١)انظر: مناهج البحث العلمي لعبد الرحمن بدوي: ص٢٠٧ و ٢٠٨.

غريزةً وجسماً، وتهمله روحاً وفكراً.. ومن ثمَّ، لم تعد في مكنة هذه العلوم أن تدور على محور الوحدة الكونية المترابطة المتناسقة، والمنبهة إلى وحدة المكوِّن وعَظِيم سلطانِه، إذ كيف يتاح لها ذلك، وقد تهشَّمت وحدتها وانبتت عن أصولها، وعادت مزقاً شتى يدور كل منها، في خدمة دائبة للمصنع أو المعمل الذي أنيط به وَوُظِّف من أجله؟

* * *

فتلك هي خلاصة وجيزة لواقع الفكر الإنساني، وطبيعة نشاطه المعرفي في هذا العصر. وهي تعكس لنا مظهراً بارزاً، لأزمة المعرفة. وتصوِّر لنا أهم العوامل التي ساهمت في القضاء على المعنى الحقيقي لحرية الفكر الإنساني، ثم تسببت في إقصائه عن منهجه الفطري المرسوم إلى بلوغ الحقيقة والتعرف عليها.

الحقيقة.. والمعرفة.. والنفس البشرية

من خلال بيان هذا الواقع الفكري الذي يمرُّ به الإنسان المعاصر، بوسعنا أن نبين حدود المشكلة التي يعاني منها، تلك المشكلة التي تسمى اليوم بحقٍ «أزمة المعرفة» وبوسعنا بعد ذلك أن نتعرف على العلاج الذي لا بديل عنه ولا مناص منه، للقضاء على هذه الأزمة.

الحقيقة والواقع:

لعلَّ من المناسب هنا، أن نتذكر من جديد، المعنى العلمي الدقيق لكلمة «الحقيقة» لنتبين دور الإنسان تجاهها وواجبه نحوها، ووضعه القائم اليوم في تعامله معها.

إن الحقيقة هي - كما يقول العلماء - تلك المضمونات الفكرية التي توجد لها ماصدقات في الوجود الخارجي، بشكل مستقلٍّ عن الإنسان. ونزيد المسألة إيضاحاً فنقول: إن التصورات الفكرية بحدِّ ذاتها، أي بقطع النظر عن مدى تطابقها مع الواقع، تسمى مفاهيم. والوقائع الخارجية بحدِّ ذاتها، أي بقطع النظر عن أي تصور ذهني لها تسمى موجودات. فإذا تطابقت التصورات الفكرية مع الوقائع الخارجية، فهي عندئذٍ حقائق، أما إن لم تتطابق معها، فهي أخيلة وأوهام.

ومن بدهيات الأمور أنَّ مهمة الإنسان في هذه الحياة التي يعيشها، هي أن يسلِّط فكره على الوقائع والموجودات التي من حوله، والتي لا بدَّ له من التعامل معها، ليدركها على حقيقتها، فيتكون لديه من ذلك أكبر مجموعة من الحقائق، ليتمكَّن من التعامل مع الكون والحياة على الوجه الصحيح، والنهوض بهذه المهمة يتطلب معاناة ذات نظام دقيق وضوابط صارمة، تسمى «المعرفة».

وتنبع ضرورة انضباط هذه المهمة بنظامها الدقيق، وضوابطها الصارمة، من أن جوهر المعرفة لا يتحقق إلا بأن تكون هي التابعة للوقائع والأحداث الخارجية والموجودات الكونية، بحيث تكون المعرفة مرآة دقيقة لها.

وإذن.. فلا تسمَّى معرفةً تلك التصورات التي تسير معاكسة لهذا الطريق، أي تلك التي تحاول إخضاع الموجودات والوقائع الكونية لسلطان الأخيلة الفكرية أو الرغبات النفسية؛ بل تظل أوهاماً مجردةً، لا تعبِّر إلا عن خطأ فكري يقبع في ذهن صاحبه. ولا بدَّ أن يتجلَّى أثر هذا الخطأ الفكري الغريب عن سلطان الواقع، عند محاولة صاحبه التعامل مع الكون والحياة على أساسه؛ إذ تبرز حقيقة التنافر والتشاكس بين الواقع والوهم، وتبقى محاولة التعامل معهما محاولة عقيمة وسعياً مشقياً.

العلم يتبع المعلوم:

وتعبيراً عن هذه الحقيقة الراسخة التي لا مردَّ لها، صيغت القاعدة القائلة: «العلم هو الذي يتبع المعلوم، وليس المعلوم هو الذي يتبع العلم» ولا نعلم في العقلاء والمثقفين من خالف هذه القاعدة أو ارتاب فيها أو تعامل مع الحياة على نقيضها، إلا ثلة من المتهوسين الذين يسمون بالفلاسفة المثاليين.

وهذه القاعدة، تعني بالبداهة، أن الواقع الخارجي هو المحور الثابت، والفكر الداخلي هو النشاط المتحرك بالدوران من حوله أو السعي إليه. وحتى عندما يطمح الفكر الإنساني إلى تغيير شيء من الواقع الذي يمكن تغييره، فإن السعي إلى ذلك لا يمكن أن يتم إلا من منطلق تصور ذلك الواقع كما هو، والسير في برنامج تطويره طبق سنن كونية ثابتة.

فمن هنا نشأت ضرورة انضباط الفكر بالمنهج؛ إذ لما كان عمل الفكر (في المرحلة الأولى من نشاطه على أقل تقدير) محصوراً في البحث عن الواقع والتعرف عليه، كما هو بحدِّ ذاته، كان لا بدَّ من انضباطه بالنظام الذي ينسجم مع الطريق الموصل إلى اكتشاف ذلك الواقعَ. ويتلخَّص عمل هذا النظام في تحقيق ضمانتين اثنتين:

الأولى: إقصاء سلطان الرغبة النفسية عن الهيمنة على العمل الفكري أو التلاعب به لحسابه.

الثانية: تحصين الرحلة الفكرية على طريق المعرفة عن الوقوع في اللبس والأوهام.

إذا عرفنا هذه العلاقة القائمة بين الحقيقة والمعرفة، بعد هذا الذي أوضحناه، ندرك أن مشكلة المعرفة في هذا العصر الذي نعيش فيه، تتلخص في أن زمامها قد أفلت من يد العقل وسلطانه، واستقرَّ في قبضة الرغائب النفسية، سواء في نطاق العمل الفردي أو النشاط الاجتماعي. أي إن السعي إلى المعرفة قد أصبح اليوم، في ظل الحضارة السائدة، عملاً نفسياً، ولم يعد، كما كان من قبلُ معاناة فكرية مجرَّدة(١). نعم إن للعقل دوراً لا ينكر في هذا العمل النفسي، ولكنه لا يعدو أن يكون عمل الخادم الأمين، لمطامح النفوس وأهوائها، وما أظنُّ إلا أن جميع الأزمات والمشكلات الحضارية التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية الحديثة، متفرعة عن هذه المشكلة الكلية الكبرى، ألا وهي مشكلة المعرفة.

وما أظنُّ أن في عصرنا هذا عملاً أنبل وأشرف، من أي جهدٍ مخلص جادٍّ يقوم به الإنسان ابتغاء تحرير العقل الإنساني من هذه الأزمة المستحكمة. ولا شكَّ أن الإسلام - بكل ما يتضمَّنه من عقائد وأنظمة سلوكية - إنما يتلخَّص في تحرير الإنسان من هذه الأزمة التي تتربَّص به، في كل زمان.

---

(١)انظر: البحث عن اليقين، لجون ديوي، ترجمة د. أحمد عبد العزيز الأهواني: فصل «سلطان المنهج»، ص٢٥٠ فما بعد.

أسلمة النفس لا أسلمة المعرفة:

غير أنَّ هذه الحقيقة، وإن كانت ثابتة دون أيِّ ريب، لا تستدعي رفع ذلك الشعار الذي قد يخطر في البال لأول وهلة، وهو «أسلمة المعرفة» ذلك لأنَّ الإسلام لا يتطلَّب أكثر من أن تكون المعرفة معرفة صحيحة صافية من الشوائب، وبعيدة عن التحيز إلى أيِّ جهة قد تبعدها عن ميزانها العلمي الحيادي. فإن المعرفة إذا أتيح لها أن تسير في طريقها الطبيعي المستقيم هذا، إلى النهاية، وصلت بدون ريب إلى الحقيقة الكونية الراسخة، واصطبغت بها ثم استسلمت لها، وليس الإسلام في جوهره إلا تلك الحقيقة ذاتها دون أي زيادة ولا نقصان؛ إنه استسلام العقل للحقائق الكونية الراسخة ثم الانسجام معها على صعيد التعامل والسلوك.

إن التعبير بـ «أسلمة المعرفة» يوحي بفرض تحيز ما على النشاط المعرفي للفكر. وهو ما تنأى عنه طبيعة منهج المعرفة من حيث هو، بل هو ما يحذر منه مضمون الآية القرآنية العظيمة، وهي:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦].

غير أن السعي بالمجتمع الإنساني - ولا سيما العالم الغربي - على منهج سديد للمعرفة الحرة هذه، يتطلب قبل كلِّ شيء، تحرير العقل من غوائل النفس وأهوائها ورعونتها، وذلك

يتطلب حواراً علمياً يهدف إلى إعادة النظر في المعنى السائد في أذهان كثير من الناس لكلمة «الحرية» أو «التحرر الفكري».. فإن المعنى المغلوط لهذه الكلمة، كان ولا يزال، يمثل أخطر العوامل التي لعبت دوراً كبيراً في تعكير سبيل المعرفة وإخضاعها لنزوات النفوس، ومتطلبات المصالح والأهواء.

إن استسلام رجل الحضارة الحديثة لكل ما تتشهاه نفسه، من الرعونات واللذائذ والأهواء، هو المعنيّ بشعار الحرية أو التحرر في مقاييس العلوم الاجتماعية (إذا ما أقصينا الجانب السياسي عن الموضوع).. وواضح أن استجابة الإنسان لكل تلك المتطلبات لن تكون إلا على حساب ما تقضي به الموازين العقلية الصافية من الشوائب. على أن أضرارها لا تقف عند مخالفة تلك الموازين فحسب؛ بل إنها بالإضافة إلى ذلك، لا بدَّ أن تمدَّ عليها غاشية من الضباب. فلا يكاد الفكر يتبين مؤشرات تلك الموازين ودلائلها عند التأمل، وعند اللجوء إليها للتفريق بين قرارات العقل وتمنيات النفس.

إذن.. فإن أولى خطوات السعي على منهاج المعرفة، إنما تتمثَّل في التنبه والتنبيه إلى أن أول معاني التحرر الإنساني وأجلّها على الإطلاق، إنما يتمثَّل في أن يتمتَّع الإنسان بقدرة ذاتية كافية تمكنه من إقصاء رغباته وأهوائه النفسية عن الساحة الفكرية التي تتطلب الركون إلى صوت العقل صافياً عن الشوائب، وهو يحدِّثه عن الواقع الكوني الذي من حوله، ويعرِّفه على الطريقة المُثلى للتعامل معه.

أجل.. تلك هي أولى خطوات السعي على منهاج المعرفة. وبوسع كل منا أن يزداد يقيناً بذلك، لدى الرجوع إلى ما قلناه آنفاً عن معنى الحقيقة والمعرفة، وعلاقة العلم بالمعلوم، وكيف أن الأول منهما تابع للثاني دائماً.

غير أن صعوبة هذه الخطوة الأولى تتمثل في أنها لا تتحقق بمجرد القناعة النَّظرية؛ بل يتوقَّف تحقُّقها على الوجه المطلوب، على قدر كبير من المعاناة التربوية والتحرر الوجداني، شأنها في ذلك شأن سائر المشكلات النفسية المشابهة. ولا ريب أن هذه المعاناة كانت هي العقبة الكبرى التي وقفت في وجه استجابة جمهرة الناس للرسل والأنبياء، والتي تغلبت بالنسبة إلى أكثر الناس على نصاعة الحق الواضح الذي استيقنته عقولهم. فكان سلوكهم الفعلي - من جراء ذلك - في واد، وكانت قناعاتهم الفكرية في واد آخر. وهذا الواقع الخطير هو الذي عبر عنه البيان الإلهي بقوله عزَّ وجل:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤].

وتلك هي أبرز الوظائف والمهام التي بعث الله من أجلها الرُّسل والأنبياء؛ إنها إيقاظ الناس ودفعهم بكل السبل الإنسانية الممكنة إلى أن يعبّدوا طريق المعرفة والعلم أمام العقل، نظيفاً نقياً من عثرات الأهواء والرغائب والعصبيات النفسية. إذ إن بنيان المجتمع الإنساني لا يمكن أن ينهض بشكل سوي يورث السعادة والطمأنينة لأهله، إلا بهذا الشرط الذي لا بدَّ منه. فإن امتزج سلطان العقل بعواصف الشهوات والأهواء،

بحيث أصبح سلطان العقل مغلوباً عليه، تقوض بنيان السعادة الإنسانية وانتشرت في جنباته عوامل الهرج والمرج وفسدت أصول المعايش، وتحولت ساحات المجتمع الإنساني إلى آجام مخيفة تجوب فيها سباع ضارية!..

وكم هو دقيق هذا التعبير القرآني الذي جاء تنبيهاً إلى هذه الحقيقة، التي هي - كما قلنا - خلاصة ما بعث الرُّسل والأنبياء من أجله:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٧١].

وبوسعنا أن نتصور مدى أهمية هذه الخطوة الأولى في منهج المعرفة، عندما نتذكر - إن أتيح لنا أن ننسى - أن سائر مرافق الحضارة الإنسانية اليوم، إنما تقاد من أزمّةٍ يقودها جميعاً سلطان الأهواء والرعونات والرغبات النفسية. وهي حقيقة ثابتة يلتقي على الإيمان والاعتراف بها، كلٌّ من نقَّاد الحضارة الغربية وعشاقها على السواء. يقول الدكتور إسماعيل مظهر في كتابه (فلسفة اللذة والألم):

«إن أكثر المرافق التي تكوِّن حضارة الإنسان، كالتجارة والصناعة والزراعة ونظام الأحزاب، والديمقراطيات بأنواعها، والحريات على مختلف ألوانها، أكثر ما تحركها الانفعالات، وتقودها الشهوات والأهواء، وتتحكم فيها المطامع والأغراض. وأقل ما تكون خضوعاً لمحكمة الضمير. ولو أن إخضاع هذه

المرافق للعقل أجدر بالنوع البشري وأجدى؛ ولكنك لا تجد لها من أثر إلا في المثاليات»[١].

وعندما تكون الأمم والشعوب مصابة بهذه المشكلة الأساسية في حياتها الفكرية، فإن سائر العلاجات العلمية والبحوث والتوعيات الفكرية، لا تجدي لحلّ هذه المشكلة شيئاً. إذ ماذا عسى أن تفيد الروافد العلمية والفكرية التي قد تصب في تيار الثقافات والمعارف الإنسانية، إذا كان مجرى هذا التيار في مجموعه، قد تحوَّل لمصلحة الأهواء والمبتغيات النفسية؟..

التزكية النفسية بوابة المنهج إلى المعرفة:

وإذا ثبت أن الأمر كما أوضحنا، فلا ريب أن العلاج الأوَّل لحلِّ هذه المشكلة التي تقف - كما قلنا - عقبة كأداء في طريق المعرفة الصافية الصحيحة، هو العمل التربوي الذي يسميه البيان الإلهي «التزكية».

والتربية أو «التزكية»، مهما تنوَّعت مظاهرها وأساليبها، تتلخَّص في ترويض الوجدان الإنساني ابتغاء تطويعه لمقتضيات القرار العقلي[٢]. وحسبنا من مظاهر أهمية هذا العلاج وضرورته، أنه يعدُّ المرحلة التحضيرية التي لا بدَّ منها بين يديْ أيِّ عمل فكري.

---

(١) فلسفة اللذة والألم، إسماعيل مظهر، ص٣٩.

(٢) انظر فصل: «تربيتنا الوجدانية بين مشكلات الابتداع وفقد الاتباع»، من كتاب «الإسلام ملاذ كل المجتمعات» لكاتب هذا البحث.

ومن المعلوم أن النهوض بهذا الجهد التربوي، يعتمد نجاحه على دعامتي الترغيب والترهيب: الترهيب من مغبَّة سوْق المعارف العقلية وراء مقتضيات الشهوات والنزوات النفسية. والترغيب في الآثار الحميدة التي لا بدَّ أن تنالها النفس ذاتها، قريباً أو بعيداً، والتي تترتَّب على تحرير العقل والوجدان، ومن ثمَّ السلوك، من سلطان تلك الأهواء والنزوات.

ولا يزال بعض الباحثين في شؤون التربية والنفس، يهوِّنون من الاعتماد، في إصلاح هذا الفساد، على الترغيب والترهيب، موهمين ومتوهمين أن في التوعية العقلية التي تنبه صاحبها إلى القيم، ما يقنعه باعتناق الحق والصلاح، ويبعده عن مطارح البغي والفساد.

ولكن المشكلة التي فصلنا القول في بيانها وتصوير أبعادها، في هذه الصفحات التي مضت، هي وحدها تشكِّل أوضح دليل على بطلان هذا الوهم؛ فلو كان في القناعة العقلية والوعي الفكري ما يحرر الإنسان من الزيغ والفساد، ويدفعه إلى اعتناق الحق والصلاح، لما ظهرت إذن هذه المشكلة أصلاً، ومن ثمَّ لما احتجنا إلى البحث عن حلٍّ لها، ولما احتاج المجتمع الإنساني إلى ما يسمى بالتربية أو «التزكية» حسب التعبير القرآني.

من الثابت أن الإنسان نزاع إلى البحث عن سعادته؛ وسعادته لا تتم إلا في ظل مبتغياته ورغائبه. وعندما نوجه الإنسان إلى سماع صوت العقل، والابتعاد قليلاً عن ضجيج رغائبه وأهوائه

النفسية، فإنما نفعل ذلك لأن في اتباع هدى العقل والخضوع لسلطانه، ما يضمن سلوك أقصر طريق ممكن إلى رغائبه النفسية ذاتها، ودون أن تجرّ عليه ذيولاً من الآلام والأضرار له أو لبني جنسه، فلئن اتبع الإنسان هذا النصح وسار وراء نصيحة الرُّشد والعقل، فإنما يفعل ذلك تعلقاً منه بهذه الآمال، واقتناعاً منه بأن اللذائذ التي يجنيها قفزاً فوق هدي العقل وتعليماته، لا بدَّ أن تتحوَّل فجأة إلى آلام مبرحة وأضرار غير متحملة.

وهكذا.. فإن الرغبة والرهبة في حياة الإنسان هما مدار سلوكه، وسرُّ نشاطه، ولو أن الإنسان استرشد بدلالة العقل والفكر المصفى عن الشوائب، لتبصَّر بأهم الرغبات التي ينبغي أن يشد نشاطه السلوكي إليها، ولتنبه إلى أخطر الأضرار التي ينبغي أن يبتعد جهد استطاعته عنها، ولكنه لما ركن إلى رعونات النفس وطيشها، وسار وراء دنيا الأحلام الخيالية، قامت من ذلك الأغشية الكثيفة التي حجبته عن نداء العقل ورشده.. فتفرق الناس في أسواق تلك الأهواء والأحلام، ثم قامت من ذلك المنافسات ونشأت المصادمات، واستحكمت العداوة والبغضاء.

إذن.. فلعلَّ من الثَّابت يقيناً أن المجتمع الغربي اليوم إنما يعوزه هذا المدخل التربوي الذي لو تحقق في حياته على نهج سوي سديد، لاتَّجه بعد ذلك إلى إصلاح نفسه بنفسه بخطا آلية، ولاستضاء عقله بنور المعرفة الصافية عن سائر الشوائب والأخلاط.

دور كلٍّ من العقل والنقل

فإذا تجاوز المجتمع الإسلامي هذه المشكلة، وتحقق له القدر الذي لا بدَّ له منه من «التزكية»، فإن بوسعه أن يستوثق من درب المعرفة ويغذ السير فيها على بصيرة ورشد.

وفي هذه المرحلة، لا بدَّ أن تواجه الإنسان عقبتان اثنتان، في أثناء سيره الطبيعي بحثاً عن الحقيقة.

إلا أن كلاً من هاتين العقبتين يكفي لتخطيهما والتغلب عليهما الحصول على دراية علمية مقنعة بأمور لا بدَّ منها. فالمعرفة النَّظريَّة وحدها كفيلة، هنا، بتفتيت هاتين العقبتين والقضاء عليهما، على حين أنا رأينا أن تلك العقبة الكبرى التي فرغنا من الحديث عنها، والمتمثّلة في مشكلة خضوع العقل والفكر للنزوات والأهواء النَّفسية، لا يكفي للقضاء عليها مجرد المعرفة والإدراك النظري، ولا سبيل للقضاء عليها إلا من خلال جهد تربوي وسعي على طريق «التزكية».

إذن.. فهاتان العقبتان، بعد اجتياز تلك العقدة العظمى، لا يتكون منهما أي مشكلة، لأن المعرفة الفكرية السليمة كفيلة بإبعادهما عن متن الطريق، فلننبِّه إليهما ولنعرّف بهما:

العقبة الأولى: تتمثل في احتجاب كل ما هو مستور في ظلام الغيب عن العقل والإدراك اليقيني، فإن العاقل مهما اشتدَّت بصيرته لن يستطيع الوصول إلى يقين عن المصير الذي سينتهي إليه، أو النهاية التي تسير إليها حركة هذه المكونات، كما أنه مهما أوغل بخياله وذهنه المتوقد في ظلمات الماضي السحيق؛ فلن يعود من جهده ذاك بأي طائل له وزن في نطاق المدركات اليقينية، ولن يكون حظه من التأمل في البدايات السحيقة أو التفكر في النهايات البعيدة إلا الظنون والأوهام.

وهكذا، فإن الدراية العقلية وحدها، لا تستطيع أن تتحرك على بصيرة وهدى، في دائرة أو ساحة الغيبيات. وتلك هي المعضلة الكبرى التي عانى منها الفلاسفة قديماً وحديثاً، ثمَّ عانى منها علماء العصر الحديث، على الرغم من كلِّ ما أبدعوه من اختراعات واكتشفوه من دقائق وأسرار؛ فلا أولئك ولا هؤلاء استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن الغيوب المحجوبة بظلمات الماضي السحيق، أو المخبوءة وراء غياهب المستقبل البعيد؛ وبقي العلم في مضمونه وحدوده اللذين يمكن أن يتحرك فيهما الإنسان، محصوراً في نطاق الملاحظة ثم التجربة، ثمَّ استخراج ما دلت عليه التجارب مما يسمونه قانوناً أو نظاماً.. والقانون لا يسمى قانوناً إلا في مناخ تجربة مستمرة. والتجارب بنتائجها المختلفة لا تعيش، كما يقول العالم التجريبي دافيد هيوم، إلا في ساحة الزمن الحاضر، إذ

لا ضمانة لاستمرار نتائج التجربة ذاتها، في أي من مسائل العلوم على اختلافها (والمقصود - كما هو واضح - العلوم الطبيعية) وراء نطاقها العملي الذي يغطيه الزمن الحاضر وحده؛ ذلك لأن احتمالات الشذوذ في الأنظمة والتخلف فيما يسمونه القوانين السائدة، ليست مجرد فرضيات متخيلة، بل هي توقعات علمية تستند إلى أحداث ووقائع مشابهة لا تكاد تحصى.

وهكذا، لم يمكن العثور إلى الآن، على أي خيوط أو جسور علمية يقينية واصلة، بين فكر العالم أو الفيلسوف، وما قد يتصوره من أحلام الأزمان المقبلة، أو وقائع الدهور المتصرمة البعيدة.

العقبة الثانية: وهي متفرعة عن الأولى، غير أنها تأخذ شكلاً مستقلاً عنها، وقد كنا أشرنا إليها باختصار من خلال النقطة الخامسة، في أثناء تحليلنا الموجز لطبيعة الواقع الفكري والنشاط المعرفي السائدين في هذا العصر. ونزيدها وضوحاً وتفصيلاً هنا، فنقول: إنها تتمثل في تحول فصيلة العلوم الطبيعية والكونية إلى أمشاج مستقلة متنافرة، وأوصال ممزقة من المعارف والعلوم، قد تقطَّعت مما بينها رحم الوحدة العلمية ووشيجة النسب الفكري الواحد الذي يفترض فيه أن يعكس على الأذهان واقع وحدة الكون في كل جوانبه.

والسَّبب أن شرطاً أساسياً لا بدَّ منه، في نطاق السير نحو

المعرفة، قد فقد في حياتنا العلمية الراهنة؛ أي في ظل هذه الحضارة الغربية.

ويتلخَّص الحديث عن هذا الشرط في أن الوجود الكوني، لما كان وحدة مترابطة المرافق والأركان والأجزاء، فقد بات واضحاً أنه لا يمكن أن تتحقق معرفة أي جزء منه إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها إجمالاً.

ذلك لأن ما قد نراه من العلوم والمعارف المستقلة في الظاهر بعضها عن بعض، ليس في الواقع إلا أجزاء وأعضاء مترابطة من هذا الهيكل الكوني كله. فهي في الحقيقة، ليست كما يتوهمون، مستقلة بعضها عن بعض، حتى إن بوسع كل من أراد، أن يتجه إلى واحد منها بالدراسة والاختصاص، دون أن يعبأ بالعلوم الأخرى!.. بل إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل ما يجعل الباحث لا يحيط علماً بأيٍّ منها إلا بمقدار ما يبصره المجموع الكلي للهيكل الكوني الشامل.

إن هذه العلوم المستقلة بعضها عن بعض، فيما يبدو، ليست إلا فصولاً متتالية من كتاب ذي موضوع واحد، ومن البداهة بمكان أن استقلال هذه الفصول بعضها عن بعض، ليس إلا من حيث الشكل التنسيقي فقط، أما من حيث المعنى والموضوع فهي مترابطة فيما بينها ترابطاً تاماً، إلى درجة أن استيعاب أي فصل منها وتذوقه رهن باستيعاب الفصول التي سبقته ومتابعة الفصول التالية من بعده، بل رهن أيضاً بتبصر موضوع الكتاب في مجمله. وهكذا فإن علوم التاريخ، والتاريخ الطبيعي،

وطبقات الأرض، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والطب، والنفس، وغيرها، فصول متناسقة مترابطة من كتاب واحد، هو كتاب هذا الكون في مجموعه. فمن لم يتبصَّر الخارطة الكونية في جملتها أولاً، لن يحيط علماً حقيقياً مطمئناً بأي تلك الفصول المتناسقة، تماماً كشأن الرجل الذي يريد أن يتعرف على موقع بلد ما من العالم، فيحملق في وسط الخارطة باحثاً عن أسماء البلدان، قبل أن يتعرف على مجموع الخارطة ويتبيَّن رموز جهاتها وخطوط العرض والطول التي فيها. وقد يقع الرجل على اسم البلدة ويرى الخطوط الدالة عليها، ولكنَّها تعدُّ معرفة ميتة لا قيمة لها في الواقع الحقيقي.

وآية هذا الذي نقول أنك تجد أصحاب المعرفة التي من هذا القبيل، لا يكادون يستريحون إلى شيء من معارفهم التي جنوها بعد طول بحث وجهد؛ بل تراهم مشوشين متشككين، بل إنَّك لتنظر في حالهم فتجد أن معارفهم تلك لم تزد صفحة الكون أمامهم إلا تعقُّداً وغموضاً.

أجل.. فتلك هي قصة معظم العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم الدنيا (ممن عاشوا في ظلِّ الحضارة الحديثة). لقد عادوا بعد معاناتهم الطويلة في سبيل المعرفة، يشكون الجهل ويتبرمون بالحيرة ويعانون من الاضطراب.

يقول العالم والفيلسوف البريطاني «برتراندرسل» في مقدمة كتابه «سيرتي الذاتية» أنه قضى حياته كلها في السعي إلى ثلاثة أهداف: الحب، والسلام، والمعرفة، وأنه قد استطاع أن

يحقق قدراً ما من الهدفين الأولين، أما المعرفة فقد عاد منها بأوكس الحظوظ!!..[١]

وينقل الكاتب الأمريكي جورج فيرك عن أنشتاين، أنه قال له، وقد سأله بعض الأسئلة المحرجة عن الكون: «اسمح لي أن أجيب بمثل، إن العقل البشري مهما يكن عليه من عظم التدريب وسمو التفكير، عاجز عن الإحاطة بالكون؛ فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف، حتى غطت جدرانها، وهي مكتوبة بلغات كثيرة، فالطفل يعلم أنه لا بدَّ أن يكون أحدٌ قد كتب تلك الكتب، ولكنه لا يعرف من كتبها ولا كيف كانت كتابته لها، وهو لا يفهم اللغات التي كتبت بها»[٢].

وليست هذه الحيرة الجهلاء من خصائص الحضارة الغربية وأنشطتها العلمية، بل هي قاسم مشترك بينها وبين أولئك الذين يفسرون الكون على أساس المادية الجدلية الملحدة. بل إن هذا الفريق يعاني أفراده من حيرة أشد، ولا يكادون يثقون، في الحقيقة، بشيء من تصوراتهم وأفكارهم عن الكون والإنسان والحياة.

ولننظر إلى هذا الكلام العجيب الذي يقوله «أنجلز» وهو، كما نعلم، شريك ماركس في ترسيخ نظرية المادية الديالكتيكية، يقول في كلام طويل عن الجهالة التي تحيط بفكر

(١)سيرتي الذاتية: برتراند رسل، ٦ و٧.

(٢)مجلة العلوم اللبنانية: السنة الرابعة، العدد الثالث.

الإنسان تجاه الظاهرة الكونية التي يعيش فيها: «... فكم هي زهيدة معرفتنا بأصل الكريات الدموية، وما أكثر الحلقات التي تنقصنا حتى الوقت الراهن، من أجل إقامة رابطة عقلانية ما، بين أعراض أحد الأمراض وأسبابه الحقيقية على سبيل المثال، وكثيراً ما يحدث بعض الاكتشافات، فتضطرنا إلى مراجعة كاملة لسائر الحقائق الأخيرة والنهائية المقررة من قبل، في مجال علم الحياة، وإلى وضع أكوام كاملة منها في سلّة المهملات دفعة واحدة» ثم يقرر قائلاً: «إن الأمر أشدّ حراجةً وأكثر بعداً عن المعرفة التي تدعونا إلى الاطمئنان، إذا ما راجعنا جهودنا العلمية في ميادين العلوم التاريخية. وهكذا فإن معرفتنا في مجال التاريخ الإنساني لأشدّ تخلُّفاً أيضاً، في ميدان علم الحياة».

ثم ينتهي من كلامه هذا إلى هذه الجملة التي صاغها بأسلوب درامي فياض بالانكسار والأسى: «إن الأجيال التي ستصحح أخطاءنا، هي على الأرجح أكثر عدداً بما لا يقاس، من تلك الأجيال التي سنحت لنا فرصة تصويبها»(١).

بل إنني لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة، من مثالية، ومادية، ووجودية، وذرائعية، ونحوها.. ليس إلا ثمرة اضطراب جاء على أعقاب معرفة مقطعة مجزَّأة عن تصور الهيكل الكوني لهذا الوجود.. هذا مع التجاوز وفرض أنها معرفة صحيحة مطابقة.

---

(١)أنتي دوهرنغ: تأليف أنجلز، ترجمة فؤاد أيوب، ص١٠٥

فهاتان العقبتان، ولا ثالث لهما هما اللتان تشكلان أزمة المعرفة في ظل هذه الحضارة المادية الجانحة، وذلك بعد أن تجاوزنا الحديث عن المشكلة النفسية الكبرى، ألا وهي مشكلة خضوع الطاقة العقلية لسلطان النفس وأهوائها.

فمن أين تشكلت ثم استصلبت هاتان العقبتان، وما السبيل للقضاء عليهما؟

إن المصدر الذي تشكلت منه هاتان العقبتان، واحد. ذلك لأنهما في الحقيقة - كما أوضحنا من قبل - عقبة واحدة. ويتلخص هذا المصدر في تحميل العقل أكثر من طاقته، بل في تكليفه بما ليس من شأنه، وبما لا يدخل في مقدوره.

ولقد عرفنا من أوليات قواعد المنطق أن نوافذ المعرفة تتلخص في الحواس الخمس، والوجدان، وتلقي الأخبار. ولكل من هذه النوافذ المطلَّةِ على العقل قناة خاصة به، تمتص ما يناسبها من وقائع الكون وأحداثه ومشاهده، فما يرد إلى العقل من قناة الأخبار لا يمكن أن تنوب عنه القناتان الأخريان، والعكس أيضاً صحيح.

إن الحصول على علم يقيني بنشأة هذا الكون ونهايته، لا يمكن أن تستقل بنقله إلى العقل نافذة الحس ولا نافذة المشاعر الوجدانية، ولا بدَّ أن يستقل به منهج الخبر اليقيني القائم على شروطه وقواعده العلمية الدقيقة.

كما أن الحصول على تصور علمي حقيقي لبنيان هذا الكون

بمجمله، كما يتصور الإنسان مجمل العالم مرسوماً على خارطة شاملة للكرة الأرضية، لا يمكن أن يتم هو الآخر إلا اعتماداً على الخبر اليقيني القائم على منهجه العلمي السديد.

ولتصوير هذه الحقيقة الثابتة، بمزيد من البساطة والوضوح، نذكر بأن بنيان هذا الكون على ضخامته واتساعه، ليس في حقيقته أكثر من جهاز، جهاز دقيق معقد... ونظراً إلى أن جهازاً هذا شأنه، لا بدَّ أن يكون من إنتاج مصنع، قد قام بتصميمه وإنتاجه، إذن فلا بدَّ لكل من أراد أن يقتنيه ويستفيد منه، أن يبدأ قبل كل شيء بتناول ذلك الكتيب المقرون به، والممهور بختم المصنع ذاته، أي «الكاتالوك» فيتعرف على الجهاز من خلاله، ويتبين مزاياه، وكيفية استعماله وصيانته.. وهكذا لا بدَّ أن يتلاقى العقل والنقل ويتلاقحا في مجال الاستفادة من هذا الجهاز على وجهه أو التعرُّف عليه على حقيقته..

إن هذا المثال الذي لا يرتاب في واقعه أحد، ليس إلا تجسيداً لقانون أساسي أصيل في منهج المعرفة، وهو: أن كل ما قد دخلته يد الصنعة وأنتجته القدرة المدبِّرة، فإن عقلاً إنسانياً ما لا يمكن أن يستقل في السعي إلى فهمه ومعرفة مزاياه، وسبيل التعامل به، حتى يتلقى علماً إخبارياً وإرشادياً من صاحب تلك الصنعة والتدبير. وعندئذٍ يتلاقح كل من العلم الخبري، والإدراك العقلي، فتتولّد مما بينهما الحقيقة العلمية الصحيحة، وتزول الحيرة والاضطراب عن العقل.

وإذا كنا نعلم يقيناً بأن هذا الكون المتناسق المترابط

المتوحد في نسقه وبنيانه، ليس إلا جهازاً ضخماً ومعقداً أنتجه وأبدعه صاحبه، فإن من الوضوح بمكان أن أولى خطواتنا إلى التعامل مع هذا الجهاز والتعرف عليه، ينبغي أن تبدأ بالبحث عن الكتيب المعرف به وبأصول الاستفادة منه «الكاتالوك»، وإن من البداهة بمكان أنّ أي جهد فكري نبذله بعيداً عن دراسة هذا الكتيِّب، لن يورثنا إلا خليطاً من الشكوك والأوهام والمعارف السطحية الميتة.

غير أنا علمنا من خلال النقاط التي ذكرناها في تحليل واقع الأنشطة الفكرية والعلمية في ظل الحضارة الحديثة، أن منهج المعارف والعلوم يعتمد في هذا العصر، على نافذة التجربة والمشاهدة الحسية فقط، فإن تجاوزها إنسان الحضارة الحديثة متحرراً متأملاً، لم يزد على بذل الجهد للاستنباط الذاتي، اعتماداً على دراية الفكر وحده. فهو يحاول أن يلقي بحبال تأملاته العلمية إلى ظلمات الغيوب الماضية والمقبلة، ويحاول مستعيناً بهذه الحبال وحدها أن يتصور أبعاد الكون والهندسة الإجمالية العامة لبنائه، والعلاقة المتبادلة بينه وبين الإنسان، دون أن يصغي إلى كلمة إخبارية واحدة من تعريف الصانع بصنعه، وإخباره بقصة المبدأ والمنتهى، ووظيفة الإنسان ومركزه في خضم هذه الحياة!.. والعجيب أن هذا الإنسان ينتظر مع ذلك أن يأتي من جهوده الفكرية العزلاء، بطائل، وأن يضع يده على أسرار الكون ونظام الصنعة، ثم يضعه كما هو تحت إبطه، يستغله لما يريد ويستخدمه كما يحب، دون أن

يحوج نفسه إلى أي كلمة إرشادية من ذاك الذي صنع ونظَّم ودبَّر!..

* * *

منهج العقل ومشكلة هذا المنهج:

هذه الحقيقة الساطعة على طريق المعرفة، لا يجهلها أحد، لا من المسلمين ولا غير المسلمين، فهي قانون عقلاني يمارسه الناس جميعاً في أصول معايشهم على اختلافها.

ولكن المشكلة التي تصد الرجل الغربي عن الخضوع لهذا القانون، في مجال المعرفة الكونية، هي أنه رأى أمامه ركاماً من النقول والإخبارات التي تتحدث عن خفايا الكون ومغيباته، ولكنه لم يجد هذه النقول، ولا شيئاً منها محصناً بالمنهج العلمي الذي يرقى بهذه النقول والإخبارات إلى درجة اليقين العلمي، بل ولا إلى درجة الظن الراجح، فنحن لا نشك بأن الغربيين قد عكفوا على دراسة علمية نقدية لنصوص كتبهم المقدسة التي بين أيديهم بحثاً عن قيمتها التاريخية والعلمية، فانتهوا من دراساتهم تلك إلى ارتياب شديد في مصادرها، بل إلى يقين بأنها ليست كما يقال، نصوصاً هابطة من مشكاة الوحي، وإنما هي أفكار بشرية يعوزها البرهان العلمي!.. وتلك هي معذرتهم في السير إلى المعرفة مستعينين بعجلة جانبية واحدة، هي الفكر الأعزل وحده.

يقول ستوارت ميل في كتابه «الحرية» جواباً لمن سأله، لماذا

لا يستهدي بنصوص الإنجيل التي تحوي الحقيقة كلها: «إن أكثر ما يعزى اليوم إلى السيد المسيح لم يقله ولم يتحدث عنه. وإن كثيراً مما قاله لم يبلغنا. وإن ما يسمى بالآداب الكهنوتية آداب وضعتها الكنيسة الكاثوليكية على سبيل التدريج أثناء القرون الخمسة الأولى»[١].

وهنا تبرز أهمية الإسلام وضرورته في حلٍّ هذه المعضلة المستعصية.

ومن المعلوم أن كلمة **الإسلام** تطلق على حقيقة واحدة، لم تتبدل خلال العصور المتصرمة كلها.. تتمثل هذه الحقيقة في جملة الإخبارات التي تلقاها الإنسان من الله عن قصة هذا الكون: مبدئه ومنتهاه، والعلاقة المتبادلة بينه وبين الإنسان، والإرشادات السلوكية التي ينبغي أن يسير عليها في تعامله مع الكون والحياة وأخيه الإنسان.

ومن المعلوم أن هذه الإعلامات والتعليمات تكررت وتجددت على مسامع الناس خلال الأجيال، عن طريق الرُّسل والأنبياء الذين ابتعثهم الله تعالى إلى الناس، كلٌّ إلى طائفةٍ أو فئةٍ منهم، خلال عصور وأزمان متفرقة، ثم كان آخر هؤلاء الرسل والأنبياء بعثةً، محمَّدٌ عليه الصَّلاة والسَّلام. فمن أجل ذلك كانت بعثته إلى الناس كلهم، لم يختصّ ببقعة دون أخرى ولا بعصر دون غيره.

---

(١) «الحرية»: جون ستوارت ميل، ص٨٦.

ونظراً إلى ذلك، وبناءً على أنه لن يُبعث من بعده أي رسول آخر يجدد ما تقادم من تعليماته، أو يقوّم ما قد يعوجّ على أيدي الناس من المبادئ والأحكام التي تركهم عليها وعرَّفهم بها؛ نظراً إلى ذلك، فقد أنفذ الله هذه الرِّسالة الأخيرة التي ابتعثه بها، في نفق من الحفظ والوقاية يمتدّ كشريان عبر الأجيال والعصور، فلم يتسلل إليها زيف ولم يمتدّ إليها أي عبث أو تحريف، وذلك هو مصداق ما قد ألزم الله عزَّ وجل به ذاته في قوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ١٥/٩].

وهكذا.. فقد أنزل الله على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام كتاباً جامعاً، حوى كل ما ينبغي أن يعلمه الإنسان عن هذا الجهاز الكوني الذي يترامى من حوله، والذي يسير دائباً في خدمته، وعن علاقته به والمهمة التي خلق من أجلها والنهاية التي هو مقبل عليها.

ثم قيَّض الله عزَّ وجل من عباده، من حصَّن السَّبيل إلى هذا الكتاب نقياً من الشَّوائب بعيداً عن أيِّ عبثٍ أو تحويرٍ أو تبديلٍ، بمنهج علمي دقيق تعرف به درجات النقول والأخبار التي يتلقاها الإنسان في رحلته العلمية من صحيح وضعيف ومتواتر وآحاد، مع تصنيف دقيق لدرجات الرواة والناقلين، وحصر أسمائهم جميعاً، لا في ملفات صغيرة محدودة، بل في قواميس من نوع فريد تحصي أسماء الرِّجال وتعرف بهم، بدلاً من إحصاء الكلمات وتقويمها!!..

ولقد كان ميلاد هذا المنهج العلمي الفريد، حدثاً علمياً وحضارياً فذاً من نوعه، تفردت به هذه الأمة دون سواها. فما عرف في تاريخ الحضارة الإنسانية أن أمة استطاعت أن تدوِّن منهجاً علمياً لضبط النقول والأخبار، وفرز الصحيح منها عن الباطل، وما يورث منها الظن عما يورث العلم واليقين، وأن تدون فناً بِسِيَرِ الرجال ونقدهم، وهو الذي يسمى اليوم بفن الجرح والتعديل؛ غير علماء المسلمين، وذلك يوم وجدوا بين أيديهم كتاب الله وسنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام، وخافوا أن يتسلَّل إليهما ما قد تسلَّل إلى الكتب السماوية السابقة من التزييف والتحوير والتبديل، فدونوا من أجل ذلك علماً كاملاً مستقلاً برأسه هو علم مصطلح الحديث بكلا شقّيه: علم الحديث رواية، وعلم الجرح والتعديل.

وبوسع كل باحث موضوعي اليوم، أياً كانت نحلته ومذهبه، أن يتأمل في النفق العلمي الدقيق الذي وصل إلينا منه القرآن منقولاً بيقين عن فم محمَّد عليه الصلاة والسلام، ينقله عن ربِّه، فيستيقن أنه هو بذاته الكتاب الذي رواه محمَّدٌ للناس عن ربه قبل خمسة عشر قرناً، لم يتسلَّل إليه مع الزَّمن أي تغيير ولا تبديل، وأن يتأمَّل في المنهج الَّذي وصلت إلينا عن طريقه أقواله وأفعاله التي تسمى في مصطلح الشَّريعة الإسلامية بالسُّنَّة، فيتبيَّن منها الصحيح الذي يُعمل به في الأحكام، والمتواتر القطعي الذي يعتمد عليه في الاعتقادات، والضعيف الذي لا يعمل به لا في الاعتقادات ولا في الأحكام.

إذن.. فاجتياز هاتين العقبتين، رهن بأن نتذكر المنهج الذي لا بدَّ منه لنحقِّق المعرفة (بعد تحرير العقل من سلطان النفس وأهوائها) ثم أن نطبق هذا المنهج على حقيقته دون زيادة ولا نقصان.

وقد علمنا أن موضوع المعرفة عندما يكون أمراً محسوساً مما يدخل في نطاق القضايا المادية الماثلة في الوقت الحاضر، لا يحتاج إلى أكثر من منهج التجربة والملاحظة فالاستنباط، مع الاعتماد في كثير من الأحيان على السبر والتقسيم. وهذا ما قد أتقنه الغرب في مجالات علومه المادِّيَّة المنثورة وامتلك للوصول إليه منهجاً علمياً يعدُّ أسمى ما تعتزُّ به الحضارة المعاصرة.

ولكن عندما يتَّجه الفكر إلى مسألة غير خاضعة للحس، كالبحث عما وقع في الماضي السحيق، أو عما ستنتهي إليه قصة الكون، أو عن القالب الوحدوي الجامع لأشتات الموجودات والمؤلف لأنظمتها؛ فلا بدَّ عندئذٍ من أن يتضافر صريح المعقول مع صحيح المنقول للوصول إلى معلوم يقيني في ذلك. وهذا ما قد أخفق فيه الغرب أيما إخفاق.

ومع ذلك فلو أن الغربيين طووا الجوانب الغيبية من الكون وأبعدوها عن ساحة البحث والنظر، واستطاعوا ألَّا يشغلوا أفكارهم بها، لوسعهم أن يزعموا بأنهم ليسوا بحاجة إلى أن يصدّعوا رؤوسهم بأخبار تلك الألغاز الكونية الغامضة، وبأن لهم في مشاغلهم المادِّيَّة وعلومهم الطبيعيَّة ما يصرفهم عن

الخوض في تلك المتاهات، غير أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك. فهم اليوم مرهقون عقلياً ونفسياً تحت وطأة تساؤل ملحّ عن جذور هذه الحياة وعاقبتها، وعن الصيرورة الكلية الشاملة التي تتحرك تحت سلطانها الأجهزة الكونية عامة.. ثم إن محاولة إجابتهم عن هذا التساؤل لا تلقى إلا سدوداً كثيفةً سوداء، أنى اتجهوا أو التفتوا. وهو الأمر الذي من شأنه أن يحيل قلقهم وإرهاقهم إلى أمراض نفسية تعقب تصرفات شاذة غير مسؤولة!..

هذا.. على الرغم من أن الأجوبة عن تساؤلاتهم الملحة هذه، قريبة جداً منهم، بل إنها لتدوي على أسماعهم. كل ما يحتاجون إليه هو أن يلتفتوا إلى جهة النداء، ثمَّ يصغوا إليه. وأن يعلموا أن هذه الغوامض الكونية ليست مما يستطيع منهج التجربة والاستنباط أن يعلمه ويدرك حقائقه. إنما الذي يملك أن يعرّف الإنسان بها على حقيقتها، صانعُ هذا الكون ذاته. وها هو ذا يحدث الإنسان عن ذلك كله.

فإن قالوا: فما أدرانا بصدق الأخبار التي تدوّي على آذاننا؟ قلنا لهم: دونكم فتأمَّلوا حديث القرآن، وفكروا جيداً في الجذور المنهجية التي يقوم عليها، تلك الجذور الممتدَّة من فم محمَّد عليه الصلاة والسلام إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، تعلموا أنه الخبر اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وأنه البيان الذي يتضمن الإجابة الشافية عن كل

ما يؤرقكم شأنه. وستجدون فيه الطمأنينة التي تبدد كل قلق، والراحة التي تزيل كل رهق.

وعندئذٍ فما أروع وأعظم أن يتلاقى المنهج التجريبي الذي أتقنتموه في قضايا المادة وعلومها، مع منهج العقل والنقل بشروطه وأنظمته وقيوده، في نطاق المبهمات الغيبية؛ إذ تتكون منهما سدى ولحمة حضارة إنسانية باسقة مثلى يتفيَّأ الإنسان منها ظلال سعادة حقيقية طالما تأمَّلها وحلم بها.

ولكن مصيبة سدنة الحضارة الغربية أنهم عن هذا النبأ العظيم معرضون.

* * *

وبعد فإن أزمة المعرفة، في ظلِّ الحضارة الحديثة، تتجسَّد، ملخَّصةً، في مشكلة نفسية كبرى، وعقبتين فكريتين يمكن التغلب عليهما بكل سهولة:

أما المشكلة النفسية، فتتمثَّل في خضوع النشاطات المعرفية، على اختلافها، لسلطان النزوات النفسية المتنوعة. ولا تحلّ هذه المشكلة إلا من خلال معاناة تربوية تستهدف ما عبر عنه البيان القرآني **بالتزكية**، ولا بدَّ لإمكان السير في طريق هذه المعاناة، إلى جانب توفر القناعة الفكرية، من تحقيق قسط كبير من الرغبة النفسية.

وأما العقبتان الفكريتان، فناتجتان من خطأ في تصور منهج

المعرفة والسير العلمي على طريقها. ويتلخَّص هذا الخطأ في قياس السعي إلى معرفة الحقائق الغيبية والجذور الكلية العامة لبنيان هذا الكون، على السعي إلى معرفة المسائل والمشاهدات المادية وتحليلها، واستنباط القوانين والسنن الكونية منها.

وهي خطيئة كبرى زلت فيها أقدام الفلاسفة، أو كثير منهم، من قبل. واستطاع العقل الإنساني أن يتجاوزها، بعد التجارب الكثيرة المخفقة والمشقية.. فلا عذر لإنسان هذه الحضارة الحديثة أن يظل تائهاً في الأودية السحيقة ذاتها.

إن كل مطلب عقلي يتجاوز حدود المحسوس، وقوانينه، لا يمكن الوصول إلى قرار علمي يقيني فيه، إلا اعتماداً على عجلتين اثنتين، هما عجلة العقل الصريح والنقل الصحيح. كل ما في الأمر أن إعمال النقل، شأنه كشأن إعمال العقل تماماً، يحتاج إلى منهج علمي دقيق لضبطه، وإبعاد أسباب الوهم من أن تتسلل إليه.

وكما أن الإنسان لا غنى له عن معرفة المادة وخصائصها وسبل الاستفادة منها، كذلك لا غنى له عن معرفة ماضيه الذي انبثق عنه، ونهايته التي سيؤول إليها، وعن معرفة أبعاد المركبة الكونية التي تسير به، والتي يتقلَّب في جنباتها ويتفاعل معها، بدليل أن أشواق الإنسان إلى معرفة هذه الغوامض تظلُّ أشدّ من تطلعاته إلى تحليل المادة الخاضعة لحواسه المنتشرة تحت نظره ووعيه.

إذن.. فلا بدَّ لهذا الإنسان أن يمسك في رحلته هذه بمصباحين اثنين، هما مصباح العقل السليم والنقل الصحيح. وقد علمنا أن النقل المدعوم بالمنهج العلمي الصحيح، والمتضمن للحقائق العلمية العامة الشاملة، عن بنية هذا الكون وهويته، والمنبئ عن مبدئه ونهايته، قد تكفل به القرآن الذي هو كلام صانع هذا الكون ومبدعه، يخاطب به النخبة الممتازة من خليقته.

ولكني أسأل الله العظيم، ألَّا يتركنا وإخوتنا في الإنسانية، نركن إلى عماهة الفكر وعصبية النفس، بحيث يدوِّي صوت الحقيقة على أسماعنا، وتمرُّ مشاهد العِبر أمام أبصارنا، ونحن عن ذلك كله معرضون، فنكون فريقاً من أولئك الَّذين عناهم الخطاب الإلهي بقوله:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٦٧-٦٨].

مشكلة العلاقة بين العلم والدين

مشكلة العلاقة بين العلم والدين (والمراد بالدين هنا الإسلام) مشكلة حديثة لا يمضي تاريخها إلى أبعد من الميقات الذي استحدث الغرب فيه لكلمة (العلم) معنى جديداً، جعلها بموجبه حكراً للبحوث التجريبية المتعلِّقة بالمادة والقائمة على استخلاص النتيجة ثمَّ الانتهاء من ذلك إلى اكتشاف قانون.

لقد كان ميلاد هذه الاصطلاح الجديد، تأريخاً دقيقاً لانبثاق مشكلة العلاقة بين العلم والدين ومن ثم: العلم والإسلام؛ وابتداء عصر من الجدل المتطاول العقيم بين أنصار الدين وأنصار العلم!..

أما قبل ذلك، فما عرف الباحثون أو المؤرخون، أن أحداً، خلال القرون المتصرمة كلها، أو بدءاً من بزوغ فجر الإسلام، أثار أي مشكلة تتعلق بصلة ما بين الإسلام والعلم، سواء أكان هو شخصياً من ذوي الالتزام بالإسلام والمقبلين إلى معارفه وعلومه، أم كان من المتحررين عن هذا الالتزام والمقبلين إلى ثقافات أو فلسفات وعلوم أخرى.

بل كان الجميع يقدرون علاقة الإسلام بالعلم، ويدركون

مدى تمجيد الإسلام للعلم، ويعرفون بداهة أن الإسلام يأبى أن يشاد له أيّ وجود في ذهن الإنسان أياً كان، إلا على أساس واحد هو العلم، وكلهم يستشهد على هذا بالآية القرآنية المعروفة والمشهورة في الأوساط:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٣٦].

ذلك لأن العلم كان له في أذهان الناس عامة، على اختلاف ثقافاتهم ومذاهبهم، معنى شمولي عام، أوسع بكثير من المعنى المادي الضيق الذي آل إليه، في عصر النهضة الأوربية.

غير أن اصطلاحاً جديداً نشأ لكلمة «العلم» في نهاية القرن السابع عشر الميلادي، كان نتيجة لثورة أوربة على الكنيسة وما كانت تفرضه على الناس والمجتمعات باسم الدين.

وحديثنا في هذه المشكلة، لا بدَّ أن يتَّجه أولاً إلى مناقشة هذا الاصطلاح الحديث للعلم، والتساؤل عن مصدر أو وجه شرعيته، والوقوف على بعض نتائجه وآثاره.

وهنا لا بدَّ أن نتساءل: إذا كان الميزان العلمي هو المحكّم دائماً في تقويم الآراء والاتجاهات، ورصد حقيقة الفرق بين التطور الإيجابي السليم والانحراف السلبي الباعث على الاضطراب والفساد، فما هو الميزان المحكّم في الأمر، عندما يكون مصطلح «العلم» ذاته هو موضوع البحث والنقاش، وهو محور المحاكمة والاتهام؟!..

لا سبيل، والحالة هذه، إلى الاستمرار فيما اعتدنا واتفقنا عليه، من الاستنجاد بميزان العلم، إذ لا سبيل إلى أن يكون العلم حاكماً ومحكوماً عليه بآنٍ واحد، ومَن غير العلم يقرِّر أن الدور من أوضح الباطلات والمستحيلات؟

لعل خير ما نلجأ إليه، للاستعانة في مناقشة هذه المشكلة، على وجه سليم، ينتهي بنا إلى نتائج مرضية، هو رصد النتائج والآثار التي أعقبت اعتماد العلماء، خلال قرنين من الزمن، على أقل تقدير، على هذا الاصطلاح الجديد لكلمة العلم، ونبذ سائر ما لا يتَّفق معه، أي مع هذا الاصطلاح، شارداً وراء أسواره.

ولنبدأ بكلمة وجيزة عن معنى العلم والتطور الذي طرأ على معناه ومضمونه.

ما العلم؟

منذ أقدم العصور التي وعت تاريخ العلم والعلماء، إلى أوائل عصر النهضة الأوربية، لم نعثر للعلم إلا على معنى واحد، تجسَّد في تعريف متداول ومشهور، هو: «إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل» ولاحظ الإطلاق في كلمة «دليل» وربَّما تصرَّف بعضهم بالألفاظ، مجاراة للمصطلحات الفلسفية، فعرفوه بأنه «تطابق المفهوم الذهني مع الماصدق الخارجي».

والمهم أن العلم كان في تصور العلماء كلهم، خلال الأحقاب المتصرمة، عملية عقلية، تتم طبقاً لمنهج وضوابط،

يتم بها الكشف عن مجهول، بطريق الإدراك الذهني له على ما هو عليه.

ومن ثم فقد كان داخلاً في موضوعات العلم كل ما يمكن للعقل أن يصل إلى يقين بشأنه، مما يتعلَّق بالماضي السحيق أو المستقبل البعيد أو الحاضر الخاضع للحواس، أو الحاضر الغائب عنها، بشرط أن يُبتَغى للوصول إلى اليقين بشأنه المنهج العقلي الملائم له.

ومن هنا، ونظراً لهذا الشمول، كان شرف العلم وأهميته، ومدى اهتمام العقلاء جميعاً به، بقطع النظر عن أنواع المعارف والعلوم التي يتفاوت اهتمام الأمم والجماعات بها، طبقاً للظروف والعوامل الاجتماعية والثقافية المتنوعة.

فلما بدأ عصر النهضة الأوربية، وأخذت العلوم الطبيعية في الازدهار، فوجئ المجتمع الحضاري كله بتعريف جديد لكلمة العلم، لا عهد للعلم ولا للعلماء به من قبل.. تعريف يقلص صلاحية العلم بل وجوده، ثم لا يزال يقلصه، حتى أصبح حكراً للمكونات الطبيعية الخاضعة للحواس الإنسانية، فالعلم اليوم عبارة عن التجربة الحسية لأشياء الطبيعة ثم رصد النتائج، وافتراض قاعدة على أساسها.

وأول ما يدرك المتأمل في هذا التعريف الجديد للعلم، الظاهرتان التاليتان اللتان يمتاز بهما:

الأولى: أن العلم بهذا المصطلح الجديد، أصبح تجربة

مادية أكثر من أن يكون نشاطاً عقلياً، ومن ثم فهو لا يملك قرار الديمومة والثبات.

الثانية: أنه أصبح مقطوع الصلة عن كل من الماضي، والمستقبل، والحاضر الغائب عن الحواس، ومن ثم فهو مقطوع الصلة بالدين من حيث هو، أياً كان نوعه ومصدره.

ولكن ما هي العوامل التي اقتضت هذا التطوير، بل هذا الانقلاب الخطير لحقيقة العلم ومضمونه؟

تتمثل هذه العوامل أولاً في تلك القرون العشرة التي ران فيها ظلام من الجهل الحالك على أوربة كلها، إذ طُمست معالم العلم ومنائره، ونضبت المعارف والثقافات بأنواعها، وامتدت في مكان ذلك كله سلطة العقائد الدينية؛ فتنازل العلم عن وظيفته للتعصُّب الذي قاده رجال الدين.

فلما جاء القرن الخامس عشر، كانت النفوس قد فاضت حقداً على رجال الكنيسة الذين أسرفوا في الانتصار لأصولهم، فاندفع الناس بعد كبت طويل بالمجاهرة بنظرياتهم وعلومهم، وكان ذلك إيذاناً ببدء ظهور النهضة الفكرية في أوربة.

وفي ظلِّ هذا الاندفاع، نبغ كثير من العلماء، في جوانب شتى من الصناعات والعلوم المختلفة، كالفلك والفيزياء والتشريح، وارتقى علم التشريح الوصفي ارتقاءً عظيماً في مدى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وفي مقدمة القرن السابع عشر ظهرت حركة علمية كان لها

تأثير كبير في ترقية العلوم الرياضية التجريبية تمَّت على أيدي ثلاثة من العلماء، هم: غاليله، وديكارت، ونيوتن.

هؤلاء الأفذاذ الثلاثة الذين شاءت الحكمة الإلهية أن يوجدوا في عصر واحد، لتتكامل جهودهم العلمية، متجهةً إلى العلوم الرياضية والطبيعية القائمة على التجربة والحركة المادية والمشاهدة، هم في الحقيقة أول مظهر لتحوّل معنى العلم، وإعادة النظر في صلاحياته والساحة التي له أن يتحرك فيها، وأول عامل لقطع صلة ما بينه وبين كل ما هو غيبي، بعيد عن دنيا المادة الخاضعة لإِمكان التجربة والمشاهدة[١].

وكان طبيعياً في ظل النجاح العلمي الباهر الذي أحرزه هؤلاء الأقطاب الثلاثة، ثم من جاء على أثرهم، أن يتقبَّل الناس هذا التحديد الجديد لمعنى العلم، وحسبه على كلِّ حال أنه تحديد يساير نزعة التحرر عن سلطان الكنيسة ورجالها، ويحمل في المقابل ثمار كسب علمي غير متوقع في نطاق الطبيعة وكثير من كنوزها ومعطياتها.

العلم والواقع:

لم يكن متوقعاً في ظل الانطلاق من هذا الكبت الذي تنفس الغرب من خلاله الصعداء، أن يملك الغرب القدرة الكافية لجعل العلم تابعاً للواقع، بحيث يمتدُّ مع امتداده ويسير وراء

(١) انظر: دائرة المعارف لفريد وجدي، ٦/ ٥٩٩، وارتقاء الإنسان: تأليف: ج. برونوفسكي، ترجمة موفق شخاشيرو، ص١٥٠ وما بعدها.

آفاقه؛ بل كان من مقتضى الضرورة المنبثقة عن نشوة الظفر التي تلت ذلك الكبت الدِّيني، أن تكون القيادة، كل القيادة، للحدود الضَّيِّقة الجديدة التي فرضت على العلم، وأن يكون الواقع بكل آفاقه المنظورة وغير المنظورة هو التابع لهذا التحديد، بل المتقوقع داخل حجمه المادي الصغير.

من خلال هذه التبعية المقلوبة، سادت الأفكار المادية سيادة لا مزيد عليها، فطوي الإيمان بالخالق، وتحوَّلت حكاية الروح إلى أسطورة باطلة، وعاد الوعي والعقل مجرد وظيفة فزيولوجية للدماغ، وطويت القيم والحقائق الغيبية كلها في داخل الجهاز المادي الذي هو جزء من هذا البنيان الكوني كله.

فالمادة في نظر نيوتن ذات خواص مستقلة ثابتة إلى الأبد.. والمكان والزمان في نظره حقيقتان مطلقتان، أي باقيتان حتى لو فنيت كل الأشياء المادية في الكون.. والتغير الذي يتم، مهما امتدَّ أو تنوّع، فإنما يتم تحت سلطان المادة ذاتها، وهذا ما يفسر - بنظره - أبدية المادة وانبساط سلطانها على كل شيء[1].

* * *

ولكن، هل سارت الأمور فيما بعد، طبق ما اقتضته تلك النشوة التي أعقبت ذلك الكبت؟..

---

(١)العلم في منظوره الجديد: تأليف روبرت م. أغروس، وجورج ن ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، ص١٩ وما بعدها.

وهل خضع الواقع فعلاً لسلطان ذلك التصور، واستمرَّ منكمشاً لا يتحرك إلا في الساحة التي حددها له نيوتن وأشياعه؟

لقد انطوى القرن التاسع عشر، وجاء القرن العشرون بفتوحاته العلمية الباهرة، ولكنها لم تكن، بأيٍّ حالٍ، من النوع المتوقع..

فالاكتشافات الجديدة لم تكمل فيزياء نيوتن، بل أطاحت بها. وحسبنا أن نتذكر أن اكتشاف أنشتاين عام ١٩٠٥ - وهو ما أذعن له الغرب كله - هدم ركنين أساسيين من أركان النظام المادي القديم، فنظرية النسبية الخاصة، قادت علم الفيزياء إلى التخلي للأبد عن فكرة المكان المطلق والزمان المطلق. ذلك لأن أنشتاين أثبت أن علاقة المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بوصفها الموقف الشخصي للمراقب ولظروفه المادية التي هو فيها. أي إن الزمان ليس في نهاية المطاف إلا بعداً رابعاً للمكان، ولكنه بعدٌ متحركٌ غير قارّ كما قرر كثير من العلماء العرب والمسلمين من قبل[١].

أما السمات الأخرى لنظرية النسبية الخاصة، كتكافؤ المادة والطاقة، فهي في الواقع نتائج مترتبة على محورية المراقب، ومن خلال هذه النسبية أضحى المراقب جزءاً أساسياً من عالم الفيزياء وأحكامه. ولم يعد في مقدور الباحث العلمي أن

(١)انظر: الموقف للعضد الإيجي: ١/ ٤٧٢، وتهافت الفلاسفة للغزالي: ١٠٩-١١١ .

يعتبر نفسه متفرجاً حيادياً كما هو في نظام نيوتن وأشياعه[١].

وعلم الحياة الحيوانية، لم يسر هو الآخر مع نبوءات وتصورات الفكر المادي الذي فار فورته الهائلة في القرن التاسع عشر، بل وصل - على غير توقع - إلى نقيض ما كان مؤملاً.

ولعلنا لن نجد، في صدد بياننا لهذه الحقيقة، أغرب من هذا النص الذي ورد في كتاب أنتي دوهرنغ لأنجلز، المنظِّر العلمي والفلسفي الأول للمادية الماركسية. يقول:

«إنه - يقصد العلم الطبيعي - لم ينجح بعد في إيجاد الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى. وفي الحقيقة إنه لم ينجح بعد في إنتاج الهيولى البسيطة أو الأجسام الآحينية الأخرى من العناصر الكيميائية. وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة»[٢].

قد يقال: ولكنَّ العلم تقدَّم فيما بعد، ولعلَّه وصل إلى ما كان خافياً أيام أنجلز..

والحقيقة أن العلم تقدَّم فعلاً، ولكنَّه من خلال تقدمه لم يزد هذا الأمر إلا تأكيداً، ولم يأت إلا بنقيض ما توقعه جمهرة العلماء الغربيين في القرن التاسع عشر.

---

(١) العلم في منظوره الجديد، ص٢١ و٢٢.
(٢) أنتي دوهرنغ: أنجلز، ترجمة فؤاد أيوب، ص٩٠.

ولقد سُجِّلت هذه الحقيقة مجدداً في المؤتمر الذي عقده جمهور من علماء الحياة الحيوانية في نيويورك عام **١٩٥٩** للبحث في أصل الحياة ونشأتها على الأرض. وكان فيهم العالم الروسي «ألكسندر أوبارين» أستاذ الكيمياء الحيوية في أكاديمية العلوم السوفييتية، وهو من أبرز المهتمين بالبحث في أصل الحياة ونشأتها. فلقد أكد المؤتمرون في نهاية لقائهم أن أصل الحياة لا يزال مجهولاً، ولا مطمع في أن يصل العلم يوماً ما إلى أصل الحياة. أما ألكسندر أوبارين فقد أعلن من جانبه، بعد أن ظل يبحث **٣٧** عاماً في أصل الحياة، وفيما إذا كان بالإمكان إيجاد الخلية الأولى عن طريق تفاعل كيميائي؛ أعلن أن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم أو أن تتوالد من التفاعل الكيميائي والتوالد الذاتي، وأن العلم لا يمكن أن يخوض فيما وراء حدود المادة(١).

وعلى النهج ذاته، المخيب لآمال أولي الفكر المادي، سارت نظريات التطور المتعارضة بل المتناسخة، بدءاً من لامارك إلى الداروينية الحديثة؛ فمنذ اكتشاف الصبغيات وما تحمله من الجينات «المورثات»؛ وفرضيات التطور كلها - من حيث هي - في تراجع سريع مستمر.. إنَّ أبسط ما تقرره حقائق الجينات هذه أن الصفات الخَلقية والخُلُقية التي ستظهر في حياة هذا المخلوق إنما تنبثق من هذا العقل المبرمج، لا من

(١)انظر خبر هذا المؤتمر في كتاب «قصة التطور» للدكتور أنور عبد العليم: ص ١١-٢٣.

العوامل الخارجية والطبيعية الباعثة على التطور. ولعلَّ آخر بحث علمي مفصل يعزز هذه الحقيقة بما لا يدع مجالاً لريب، هو ما كتبه الدكتور موريس بوكاي تحت عنوان What Is The Origin Of Man ما أصل الإنسان[١].

وهكذا فإن العلم في مضمونه الضَّيق الحديث الذي فرض عليه، لم يستطع أن يحتوي الواقع ويخفيه، ومن ثَمَّ فلم يستطع أن يجرّه وراءه في أيٍّ من الاتجاهات التي فرضت عليه.

فقد كان لا بدّ أن تقود أحدث الاكتشافات العلمية أصحابها إلى اليقين بوجود حقيقة مستقلة اسمها الوعي، إذ لما كانت المادة في أدنى مستوياتها لا تفهم إلا باستخدام العقل، فقد كان لا بدَّ أن يكون العقل إحدى حقائق الوجود المطلقة. والحجَّة ذاتها قائمة على وجود الروح والعواطف والقيم الجمالية. وهي كلها ذات وجود مستقل عن دنيا المادة وأيّ من معطياتها[٢].

وقد استتبع اليقين بهذه الحقائق المطلقة تراجعاً لا مندوحة عنه، عن القول بسرمدية المادة وأزليتها، واستلزم تساؤل العقل عن حقيقة الماضي السحيق وما كان في أغواره، وعن النهاية التي تتربص بالمادة وما قد يكمن وراءها.

ولكن ماذا عسى أن يقول العلم في ذلك كله، وقد قضي

(١)لعل من المفيد في هذا الصدد الاطلاع على الفصل المعنون بـ (سلّم الخليقة) من كتاب (ارتقاء الإنسان) تأليف ج. برونوفسكي، ترجمة د. موفق شخاشيرو.

(٢)العلم في منظوره الجديد: ص ٢٢.

عليه بالسجن في ذلك البنيان الصغير الذي يسمى المادة أو الطبيعة؟ لا ريب أنه لن يقول شيئاً؛ إذ ليس بوسعه أن يتحدث فيما لم يعد داخلاً في اختصاصه!..

إن جاء من يسأل عن نشأة الوجود الإنساني وما كان من خبر الماضي البعيد، قيل له: لا شأن للعلم بهذا الأمر. وإن جاء من يسأل عن مصير الإنسان بعد الموت وما هو مقبل عليه، أو عن الموت ذاته، قيل له: وهذا أيضاً مما لا شأن للعلم به. وإن جاء من يسأل عن العقل وكنهه أو الروح ومكانها من الجسد قيل له: وهذا أيضاً مما لا يدخل في اختصاص العلم. وإن جاء من يسأل عن الجوهر الذي يكمن وراء الظاهرات من المادة، قيل له: وهذا أيضاً غير داخل في اختصاص العلم!..

أليس من حق أحدنا، إذن، أن يسأل عن جدوى العلم وفائدته؟!

ومع ذلك فإن هذه الحقائق عندما كانت غائبةً ومحجوبةً عن العقول، وراء تيار الفكر المادي، لم يكن في الأمر ما يشكل أو يحرج، إذ كان من المستساغ أن يقال باسم العلم: لا وجود لشيء من هذه الأمور المزعومة.. ولكن أما وقد أعلنت هذه الحقائق اليوم عن نفسها، ودانت لها العقول واعترفت بها الألسن، فإن من المحرج جداً أن يقول العلم، والعلم ذاته: لا أدري، أو إن الخوض في هذه الحقائق ليس من اختصاصي!.. إذن فإلى من يلجأ الإنسان هارباً من جهله بهذه

المعضلات التي تلاحقه أينما ذهب، بعد أن التجأ إلى العلم، فقال له سدنته وساسته الجدد: إنه قد تقاعد عن الخوض في كل ما هو خارج عن دائرة المادة والطبيعة، ولم يعد شيء من ذلك داخلاً في اختصاصه اليوم؟!.

تحت وطأة الأزمة ينبثق التصحيح:

تلك هي صورة الأزمة الفكرية المستشرية في الغرب اليوم: الحقائق الغيبية التي كانت إلى الأمس القريب محل رفض وإنكار، تشكل جلّ الموضوعات التي يتناولها الباحثون والمفكرون الغربيون اليوم بالإذعان والتقدير. بل إنها لتفرض نفسها اليوم على كثير من المنظَّمات والأندية الثقافية والمؤسسات الفكرية والعلمية والاجتماعية.

ومن المعلوم أن الأداة الوحيدة التي تملك معالجة هذه الحقائق والكشف عن أغوارها، إنما هي العلم. والعلم ممنوع من الخوض في شيء من ذلك، لأن محكمة شكلت في القرن السابع عشر حكمت على العلم بالحرمان من حق البحث والنظر في كل ما كان خارجاً عن حدود الطبيعة الخاضعة للمشاهدة والتجربة.

فمن أجل ذلك، يتَّجه كثير من الأفكار العلمية اليوم إلى إعادة النظر في هذا المصطلح الزائف لمعنى العلم، وتتوالى البحوث والمؤلفات التي تدعو إلى ضرورة الرجوع بالعلم إلى معناه الطبيعي والحقيقي، ورفع ذلك الحجر الذي لم يتضح له،

خلال ثلاثة قرون، أي معنى أو مبرر منطقي، ذلك الحجر الذي انتهى إلى تقسيم الإدراك الذهني إلى ما يسمى Science «العلم» وما يسمى بـ Knowledg «المعرفة». الأول منهما لا يتدخل في أي شيء وراء المحسوس أو المنظور، والثاني منهما يسمح له بالخوض في كل ما تجاوز المنظور والمحسوس.

إن الفكر الغربي يسير اليوم في منعطف يتجه إلى إعادة هاتين الكلمتين لأصلهما الواحد، أو التقريب بينهما ما أمكن، وإن كثيراً من المثقفين الغربيين يلحون، من خلال تسفيه آراء فرويد وأشياعه، على ضرورة رفع ذلك الحظر اللاشرعي على وظيفة العلم وحركته، بحيث يتاح له أن يمارس أول قانون من قوانينه المنطقية المعروفة، القائل: **العلم يتبع المعلوم، وليس المعلوم هو الَّذي يتبع العلم. وقد سبق أن أوضحنا هذه الحقيقة في الفصل السابق.**

إن أي عاقل يصغي إلى قرار العقل وحكمه، يعلم أن مصدر شرف العلم في الكون كله وخلال الأجيال كلها، إنما هو اليقين الذي يغرسه في العقول، مطابقاً للواقع الذي يتعلق به العلم. فحيثما وجد اليقين المطابق فقد تحققت ثمرة العلم بل تحقق معناه ومضمونه، وليسمّ من شاء من الناس هذا اليقين ما شاء، وليفصل بينه وبين كلمة «العلم» بكل ما يروق له من الحواجز المتنوعة، فإنما المقصد أن يتحقق الهدف العقلي، ولا حرج بعد ذلك أن تختلف العبارات أو أن يستبدل اصطلاح بغيره.

والآن.. هل العلم بمعناه الصحيح يوصل إلى اليقين الديني؟

ونقول في الجواب: نعم، بوسع الباحث أن يصل إلى هذا اليقين، إن هو ضبط فكره بقواعد المنهج المنطقي المدروس والقائم على أصول موضوعية معتمدة من العلم ذاته. وذلك قبل أن يحال العلم إلى التقاعد ويتخلى عن أدق المهام التي كانت منوطة به.

ولا شكَّ أن هذا المنهج العلمي يختلف حسب اختلاف طبيعة المسألة التي يراد الوصول إلى يقين بشأنها.

فإن كانت مما يخضع للتجربة والمشاهدة، فالمنهج محصور في الاعتماد على التجربة والمشاهدة، ولا يغني عن ذلك شيء، ولذا يحيل القرآن الإنسان في معرفة قضايا الطبيعة وكل ما هو خاضع للحسّ إلى هذا المنهج ذاته، دون أن يلقنه أي علم غيبي أو إخبار بشأنها. فهو يقول مثلاً عن الإنسان وتكوينه وأجهزته ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٢١]. ويقول له عما يشاهده من الأجرام الكونية في السماوات والأرض: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس: ١٠/١٠١]. دون أن يحرجه فيلزمه بأي اعتقاد غيبيّ في شأن من شؤونها المبصرة أو المحسوسة.

وإن كانت المسألة مما لا يخضع للحس، وإنما يدخل في غيوب الماضي أو المستقبل أو الموجودات الخفية في حسّ

الإنسان، كالروح والعقل والملائكة.. فالمنهج العلمي عندئذٍ هو أحد شيئين:

إما الاعتماد على الخبر الصادق الذي يرقى إلى درجة التواتر، على أن ينضبط بقيوده وشروطه العلمية المعروفة، كيقيننا بقيام الثورة الفرنسية، ويقيننا بوقعة القادسية، وبوجود معالم تاريخية في مناطق نائية لم يتح لنا أن نشاهدها.

وإما الاعتماد على البرهان العقلي المتمثل في قانون التلازم، وذلك بأن تفرض احتمالاً ما بشأن المسألة الغيبية، ثم تتلمس الآثار والمستلزمات العقلية أو الطبيعية المرتبطة بها، فإن رأيت هذه المستلزمات والآثار موجودة فالفرضية صحيحة وإن لم تعثر عليها فالفرضية باطلة، ولا بدَّ من الانتقال إلى فرضية أخرى..

ومن الثابت يقيناً أن جلّ المعارف اليقينية الغيبية التي يكتسبها الناس على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم مكتسب من أحد هذين المنهجين: الخبر المتواتر، أو برهان التلازم... إن يقيننا بحضارات الأمم البائدة والكثير من خصائصها الثقافية والاجتماعية إنما اكتسبناه عن طريق آثارهم المتبقية والمستلزمة لتلك الخصائص والسمات... وإن يقيننا بوجود الماء بعيداً، في سفح، تلوح فوقه بيوت مسكونة بين مروج خضراء، إنما اكتسبناه عن طريق قانون التلازم ذاته... أما يقيننا بأن خسوفاً على الشمس أو القمر سيظهر في ساعة محددة من تاريخ معين

فإنما نكتسبه عادة من الخبر المتواتر الذي تتناقله سائر الوكالات عن المراصد المتخصصة بهذا الأمر.

ومن المهم أن نلاحظ بأن اكتسابنا لهذا اليقين عن طريق أحد هذين المنهجين، لا فرق فيه بين أن يكون الموضوع الذي تعلق به هذا اليقين مألوفاً لعقولنا وفي مجتمعنا أو غريباً غير مألوف؛ فإن المنهج الذي نعتمده في ذلك، من شأنه أن يمتص الغرابة والشذوذ مهما كان شديداً.

إن ثمة أخباراً ترد إلينا من الغرب، هي أشبه بالخرافة والأساطير، يتبناها الغربيون بجزم ويقين، لأنها نقلت إليهم بطرق متواترة، أو ربما بدرجات أدنى من التواتر!.. ألم يبلغك يقينهم بخبر أطول عملاق في الولايات المتحدة «روبرت وادلو» الذي بلغ طوله ٢,٧٢م. وخبر أقصر قزم وهي الأميرة الهولندية «بولين موشرز» التي لم يزد طولها على ٥٩ سنتم!.. أَوَلَمْ يبغلك أيضاً نبأ الشاب الإيرلندي «تيم هايس» الذي دفن حياً على عمق ٤ أمتار تحت التراب، وبقي مدفوناً لمدة ٢٤٢ ساعة، ثمَّ أخرج في ٢ حزيران عام ١٩٧١ حياً لم يصب بأذى!.. إلى أخبار عجيبة أخرى مشابهة يستيقنها حتى العلميون والماديون، لأنها نقلت إليهم بطريق التواتر ضمن الشروط المنهجية المطلوبة.

أرأيتم إلى هذه اليقينيات الكثيرة التي تشكل جلّ معارفنا، بأي البراهين المنطقية يمكن أن نقصيها عن معنى العلم؟ ألم نقل إن كل ما يتطلبه العقل لصدق الإدراك هو اليقين العقلي

أولاً، وتطابق اليقين مع الواقع ثانياً، وبعبارة أخرى: تطابق المفهوم الذهني مع الماصدق الخارجي؟ فإذا تحقق هذا الشرط لم يعد ثمة أي موجب لإقصاء هذا اليقين عن دائرة العلم. لأنّا لن نرى بين هذا اليقين واليقين المنبعث عن التجربة الحسية أي فارق في حكم العقل أو في ساحة الشعور.

بل إننا إن تدبَّرنا الأمر بدقَّة، لا بدَّ أن نقول ما قاله دافيد هيوم من أن العلم هو ما ينبثق عن معاناة الفكر والعقل، لا ما يصدر عن تجربة الحواس. ذلك لأن تجربة الحواس لا تفيد الكلية والضرورة اللازمتين للقانون العلمي مهما كثرت وتوالت هذه التجارب. ذلك لأننا لا نرى العلية التي هي منشأ الضرورة، وإنما نرى الحادثات والنتائج فندعي العلية والضرورة بغير حق. وما يسمونه القوانين الطبيعية، ليست حقائق أزلية ضرورية تتبعها الحوادث، وإنما هي خلاصة لتجاربنا الحسية القابلة للتبدل دائماً[1].

أيهما أصدق إخباراً عن الكون: كلام الخالق أم المخلوق؟

أعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال تدخل في البدهيات التي لا يجهلها عاقل من الناس، فحديث الصانع عن صنعته والمبدع عن كيفية إبداعه، هو الكلام المصدَّق.. ولا يقبل الناس على

(١) العلم في منظوره الجديد: ١٩، وموقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين: ٢/ ٢٦١.

الإصغاء إلى الافتراضات والنظريات المتعلقة بأثر عمراني أو جهاز صناعي أو عمل إبداعي، إلا إن حيل بينهم وبين الإصغاء إلى بيان صاحب العمران أو العمل الإبداعي ذاته.

أرأيت لو أن كشفاً أثرياً برز اليوم إلى الوجود، يعود إلى عهد الفراعنة بيقين، ونظرنا فإذا هو يتضمن بياناً تفصيلياً للطريقة الهندسية التي اتبعت في بناء الأهرامات، إذن لأهملت سائر الفرضيات والنظريات التي قيلت في طريقة بنائها، لتتجه منهم البصائر والأبصار، بكل ثقة وقبول، إلى ما يقوله هذا البيان الموثق إلى عهد الفراعنة.

وإذا كان هذا واضحاً فلنقرِّر الحقائق التالية:

أولاً: لا ريب أن هذا الكون من صنع الله وإبداعه، ومن كان في شك من هذه الحقيقة فليخرج عن نطاق الجدل إذن في هذه الموضوعات الفرعية، وليعد إلى النظر في أصل القضيَّة ألا وهو وجود الصانع عزَّ وجلَّ، ولن تعوزه الأدلَّة العلمية الكثيرة.

ثانياً: لا ريب أنه ابتعث الرسل والأنبياء إلى الناس، ولا ريب أن محمَّداً ﷺ خاتم هؤلاء الرسل والنبيين. وقد تمَّ اليقين بذلك من خلال دراسة سيرته وحياته، ومن خلال الدراسات التحليلية المسهبة لظاهرة الوحي في حياته. وعلى كل من كان في شك من ذلك ألَّا يتجاوز هذه الحقيقة الكلية إلى الجدل في الفروع والجزئيات.

ثالثاً: لا ريب أن القرآن كلام الله عزَّ وجلّ، وليس افتئاتاً

من محمَّد على الله عزَّ وجلّ.. ولا تقوّلاً من أيٍّ من الخلائق على الله سبحانه وتعالى... دلت على ذلك قواطع الأدلة والبراهين المنطقية والعلمية. ومن لم يكن قد وقف على هذه الأدلة بعد، فلا يلقين شيئاً من أوزار إهماله على كواهلنا عن طريق جدل عابث لا معنى له ولا رصيد من ورائه.

وانطلاقاً من هذه الحقائق الثلاث نذكّر بما يتفرَّع عنها من الأمور التالية:

أولاً: لقد أخبرنا المبدع لهذا الكون عن قصة نشأة الإنسان وابتداء خلقه، والعناصر التي كوِّن منها والقالب الذي أفرغ فيه، وكيف جهَّزه بالعقل والمنطق منذ نشأته الأولى.. ثمَّ جاء من سلالة هذا الإنسان من أعرض عن بيان الصانع عزَّ وجل، ثم أخذ يحدّق بخياله في أعماق من غيوب الماضي السحيق، ليعود إلينا بتقرير آخر عن كيفية نشأة الإنسان وتطوره.

فما الذي يأمرنا به العلم ومنطق البداهة في فهم الأشياء؟ هل من عاقل يجهل أن العبرة بكلام الصانع في وصف ما قد صنع، وأن كلام ذلك الإنسان المصنوع فضول من القول لا قيمة له؟

ويزداد مظهر هذا الفضول تفاهة، عندما نقف بشيء من التأمل أمام هذا الكلام القرآني العجيب الذي يخاطب به الإله الصانع عباده الذين يقفون من بيانه هذا لهم موقف المعارض والمجادل، فيقول عنهم، وهو بمثابة الخطاب لهم:

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥١].

ثانياً: درج طائفة من المفتونين بكلمات العلم وعناوينه والفقراء إلى دراسة بدائية لأصوله وقواعده، على أن يجعلوا من المألوف وغير المألوف ميزاناً لما هو ممكن وما هو مستحيل، فالمألوف هو الممكن العقلي والعلمي، وغير المألوف هو المستحيل العقلي والعلمي!..

وعلى هذا فمصدر الإمكان وعدمه ليس كامناً في الأشياء التي هي موضوع البحث، وإنما هو كامن في وضع الإنسان والحالة التي يتلقى عليها أنباء هذه الأشياء، وعندئذٍ يصبح معنى الإمكان وعدمه في أحوال الكون ونواميسه تابعاً لأمزجة الناس وأحوالهم النفسية من جانب، وتابعاً للظروف والأزمنة التي يعيشون فيها من جانب آخر.

فهل في المثقفين من يصدق أو يؤخذ بهذا اللغو العجيب الذي يصاغ باسم العلم؟

ميزان الإمكان وعدم الإمكان في الأشياء، كامن في تلك الأشياء ذاتها، وليس منعكساً إليها من أمزجة الناس وأحوالهم، تلك حقيقة من أوليات العلم وقواعده التي لا عذر لأحد في جهلها، ولولا هذه القاعدة لما قام أيّ فرق بين عالم وجاهل.

وصفوة القول أن الحقائق الغيبية التي أنكرها الغرب بالأمس، ويذعن لها اليوم، كالروح، والعقل، والوجدان،

والقيم الجمالية... لا يمكن فهمها بطريقة علمية، إلا في ضوء الإيمان بوجود الخالق عزَّ وجل؛ وبدون ذلك تبقى هذه الحقائق - وإن أذعن لها العلم - لغزاً يستعصي على الفهم.

وإذا تمَّ الإيمان بالخالق عزَّ وجل، فلا ريب أن هذا الإيمان يُسْلم صاحبه إلى الدينونة بالعبودية له، ويحمله على الإصغاء إلى أنبائه وتعاليمه، ثم يدعوه إلى التقيُّد بهذه التعاليم جهد المستطاع. وذلكم هو الدين. كل ما في الأمر أن على الإنسان، وهو يتلمَّس تعاليمه، ويصغي إلى خطابه، أن يهتدي بمنهج علمي سليم، وأن يحذر من الاستسلام للعواطف التي لا تتقيَّد بضوابط المنطق والعلم.

وإذن.. فالإسلام، الذي هو الدين الحق، ليس ممارسة لحقيقة العلم، ولا هو خط مستقل أو مواز للعلم لا ينطلق معه من بداية ولا ينتهي معه إلى نهاية، وإنما الإسلام نهاية على طريق العلم، فمن أذعن للعلم وأخلص له، وواصل رحلته على طريقه، لا بدَّ أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة العلمية الكبرى.. أمام الدِّين الحق الذي هو الإسلام.

تَأمُّلات في

مشكلة الثقافة الإسلاميّة

وَدِرَاسَةٌ لأهَمِّ خَصَائِصِهَا

لن يحوجنا هذا البحث إلى الخوض في التعريف بكلمة الثقافة ومدلولاتها اللغوية والاصطلاحية، واختلاف الباحثين في المعنى المراد بها؛ فذلك كله يندرج في نقطة أخرى أسبق من هذه، ولا بدَّ أن هناك من قد اهتمَّ بها، وتناولها بالبحث والتفصيل من الإخوة المشتركين في أعمال هذا الملتقى[(١)].

غير أن الحديث عن الثقافة الإسلامية بخصوصها، لا بدَّ أن يتم الوصول إليه من خلال مدخل ولو قصير يعرّف أو يذكر بالمعنى الاصطلاحي العام المراد من كلمة «الثقافة».

ولعلي لن أحتاج، لاجتياز هذا المدخل، إلى استعراض الآراء المتخالفة حول معنى الثقافة، إذ بالإضافة إلى أنه خارج

---

(١) ألقي هذا البحث في إحدى الملتقيات الفكرية التي كانت تعقد سنوياً في الجزائر، وإليها تعود الصحوة الإسلامية التي عمت ذلك القطر.. وإلى انحراف هذه الصحوة من بعد، يعود سبب انقطاع تلك الملتقيات.

عن دائرة هذا البحث الذي نُدِبتُ للكتابة فيه، فإني أرى أنه استعراض لا طائل منه، وبوسع كل متأملٍ أن يرى من وراء المظاهر الخلافية حول المعنى المراد بكلمة الثقافة قاسماً مشتركاً عاماً، تلتقي سائر الأطراف المتنازعة عليه.

ولعلَّ أدق تعبير عن هذا القاسم المشترك أن نقول:

إن الثقافة هي مجموعة الأفكار والخبرات والمعارف النظرية التي لا بدَّ منها بين يدي ممارسة أي من العلوم التطبيقية أو المعتقدات الدينية أو المعاملات السلوكية.

وبوسعنا، من خلال هذا التعبير، أن نتبين جوانب الاتصال والانفصال، بين الثقافة عموماً، ونتائجها التطبيقية المتمثلة في أنواع العلوم والمعتقدات والمعاملات الأخلاقية والسلوكية العامة.

كما أن بوسعنا أن نتبين أنَّ لكلٍّ من هذه التطبيقات والعلوم المتنوعة، ساحة أو حمى من الثقافة الخاصة به.. فالطب علم تطبيقي يمارسه الطبيب إذ يعالج أجسام المرضى، ولكن له حمى واسعاً من الثقافة النظرية المتمثلة في معارف وخبرات كثيرة عن الإنسان وحياته وطعامه والمناخ الذي يعيش فيه وخصائص الأغذية والنباتات، بصورة إجمالية عامة.

والجيولوجيا والتكنولوجيا، هي الأخرى علوم تطبيقية تتمثل في ممارسات وتجارب وتطبيقات مادية، بيد أنها لا تزدهر ولا تحقق ثمارها إلا فوق قاعدة واسعة من الخبرات والأفكار

والمعارف العامة التي ينبغي أن يحرزها الإنسان عن التاريخ الطبيعي وحاجات الإنسان وعلاقته المتنوعة بأصناف المكونات التي من حوله.

والمعتقدات الإسلامية بما يتبعها من أحكام وآداب سلوكية، ليست في الحقيقة إلا ثمرات تطبيقية لمجموعة معارف ومعلومات وأفكار نظرية، وبينهما لدى التحقيق فرق كبير لا يخفى على المتأمل.

إننا نسمي هذه المعارف والعلوم التي تيسّر بناء العقيدة الإسلامية في العقل، وتهيئ صاحبها للسلوك الإسلامي، نسميها: الثقافة الإسلامية، فإذا آتت هذه الثقافة ثمارها العملية، فاسم هذه الثمار عندئذٍ: الإسلام أو الالتزام بمبادئه وأحكامه.

ومن هنا نعلم أن الثقافة بمدلولها العام، تنقسم إلى قسمين: ثقافة عامة وثقافة خاصة.

أما الثقافة العامة، فهي أن يتمتع الإنسان بقدر كاف من المعارف المتعلقة بكل هذه العلوم المتنوعة المختلفة. بأن يتوفر على طائفة كافية من المعارف العامة المتعلقة بالطب، وأن يتمتع بمعارف نظرية عامة ذات علاقة أولية بعلوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات وطبقات الأرض وعلم الحياة الحيوانية، وأن تكون لديه بصيرة جيِّدة بعلوم الإسلام ومصادره وتاريخه.. إلخ.

أما الثقافة الخاصة، فإنما نعني بها القدر الذي لا بدَّ منه من الخبرات والمعارف النظرية بين يدي التخصص في علم من العلوم التطبيقية أو الإنسانية.

فللطب ثقافته الخاصة به، ولعلم الحياة الحيوانية ثقافته المتميزة أيضاً، وللإسلام من حيث هو عقيدة وسلوك، ثقافته المتعلقة به أيضاً... وهكذا.

ونقول عادة عن فلان من الناس: إنه ذو ثقافة عامة واسعة، إذا كانت لديه بصيرة كافية بالأوليات النظرية والمقدمات العامة المتعلقة بكل علم من العلوم المعروفة المتداولة، وإن لم يكن ذا اختصاص علمي بأيّ منها.. ومن ثم فإن الثقافة الخاصة تتنوع وتتعدد، قدر تنوع العلوم التطبيقية والإنسانية المتعلقة بها والممهدة لها. والثقافة الإسلامية واحدة من هذه الثقافات الكثيرة المتنوعة.

وبوسعنا أن نصف إنساناً بأنه ذو ثقافة إسلامية واسعة، إن كان يتمتع بدراية كافية بمعنى الإسلام عموماً، وكان مطلعاً على سيرة سيدنا محمد ﷺ ومراحل حياته، بالإضافة إلى معرفة سليمة بالقرآن وتاريخه وأهم علومه، مع بصيرة تامة بمعنى التشريع الإسلامي وتاريخه وأهم مصادره.

ومن المهم هنا أن نلاحظ بأنه ليس من مستلزمات صاحب هذه الثقافة الإسلامية الواسعة أن يكون مسلماً في عقيدته وممارساته السلوكية؛ فما أكثر ما قد تنفرد الثقافة النظرية عن

ثمارها ونتائجها العلمية، وما أكثر الذين هم على هذه الشاكلة.. الشأن في ذلك كشأن مسلم يتمتع بثقافة واسعة عن النصرانية وحقيقتها وتاريخها وكل ما يتعلق بها.

ولا شكَّ أن لهذا الانفصال أسبابه وعوامله الداخلية أو الخارجية. ولسنا بصدد تحليلها وتفصيل الحديث عنها في هذا المقام.

إلا أن هذه الحقيقة من أهم ما يساعد في التنبه إلى الفرق بين الثقافة التي هي مقدمات ومداخل من الأفكار والخبرات والمعارف النظرية، وبين نتائجها التطبيقية التي تتمثل في تبني المعتقدات واتِّخاذ المواقف السلوكية واصطفاء نوع الحضارة.

إذن فبين الثقافة ونتائجها فرق واضح، ولكنَّ بينهما في الوقت ذاته تفاعلاً وتبادلاً في التأثير.

إن الثقافة شرط لا بدَّ منه في بناء الحضارة، وشرط لا بدَّ منه لاصطباغ العقل باليقين الاعتقادي، وشرط لا بدَّ منه أيضاً لاتخاذ المواقف السلوكية والأخلاقية. ولكنا نعلم جميعاً أن الشرط قد يوجد دون أن يوجد مشروطه معه، لمانع ما.. غير أن المشروط لا يمكن بأي حال أن يتحقق إلا مع الشرط المقترن به.

وهكذا.. فإن بين الثقافة التي هي تصورات وخبرات ومعارف نظرية، وبين العلم الذي يصطبغ به العقل والوجدان يقيناً واعتقاداً، وتتلوَّن به الحياة حضارة وسلوكاً، فرقاً واضحاً

ما ينبغي الذهول عنه، وما ينبغي للتواصل أو التلازم الجزئي الساري بينهما أن ينسينا هذا الفرق[١].

والذين يذهلون عن هذا الفرق، ولا يبالون أن يطلقوا اسم الثقافة على سائر العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية، بما لها من آثار اعتقادية وسلوكية، يضطرون أن يعودوا فيملؤوا فراغ المعنى الثقافي ذي المدلول المستقل، بما يسمونه (الفلسفة الفكرية التي تقوم عليها هذه الثقافات). أي هذه العلوم والمعتقدات والتي تستقل بتوجيه الثقافة - على حدِّ تعبيرهم - الوجهة المطلوبة[٢].

ونحن نقول: إن هذه الفلسفة الفكرية لا تنشأ في فراغ دون استناد إلى شيء. وإنما هي في الحقيقة ظلال لتلك المعارف والخبرات والدرايات المتنوعة التي لا بدَّ أن تسبق في الوجود تلك الممارسات العلمية التطبيقية أو تلك الصبغة الاعتقادية، أو تلك المعاملات السلوكية والأخلاقية التي يتكوَّن منها نسيج الحضارة وتأخذ بها شكلها المعين. وإذن فلن تكون تلك الفلسفة الفكرية شيئاً أكثر من الثقافة أو روح الثقافة.

نقول هذا الكلام كله، لننتهي في نطاق بحثنا الخاص بالثقافة الإسلامية إلى تقرير الحقيقة التالية:

---

(١) انظر: شروط النهضة لمالك بن نبي، ص١٢١ فما بعد، وهو ممن يؤكد هذا الفرق بأسلوب آخر. وانظر (الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية) لمحمد المبارك، ص٢٨ فما بعد. وهو ممن لا يلتفت إلى هذا الفرق.

(٢) انظر: بين الثقافتين الإسلامية والغربية: محمد المبارك، ص٥٥ و٥٦.

إن الثقافة الإسلامية، لا تساوي في مدلولها، اصطباغ الفكر والوجدان بالعقيدة الإسلامية، أو الممارسة الفعلية لشيء من مبادئ الإسلام وأحكامه، كما قد يوحي بذلك صنيع من لا يستشعرون الفرق الذي ذكرناه. بل إن بينهما - على الرغم من التفاعل والتلازم الجزئي - تخالفاً بالمعنى الدقيق، حسب التعبير الفلسفي.

ولكن مما لا ريب فيه أن الموانع النفسية والخارجية إذا لم تكن تفعل فعلها في تعكير الرؤية الصافية بين يدي الثقافة الإسلامية، فإنها لا بدَّ أن تُخضع العقل لسلطان العقيدة الإسلامية، ولا بدَّ أن تجعل من الوجدان جنداً ودعامة لها، كما لا بدَّ أن تدفع صاحب هذا العقل والوجدان إلى السلوك وفقها.

وحيثما وجدنا أن الثقافة الإسلامية لا تبعث في صاحبها هذا التأثير، فلنعلم أن لذلك سبباً نفسياً أو خارجياً، قد عكر الرؤية، وصدَّ هذا الإنسان عن اقتطاف ما لا بدَّ أن تثمره تلك المعارف الثقافية التي تجمعت لديه.

وسنزداد يقيناً بهذه الحقيقة، من خلال عرض أهم خصائص الثقافة الإسلامية، التي آن لنا أن نقول كلمة موجزة في تعدادها وبيان كل منها.

* * *

إن الخصائص والسمات التي تمتاز بها الثقافة الإسلامية عن

الأنواع الأخرى من الثقافات، كثيرة ومتنوعة، يطول الحديث عنها والدخول في التعريف بكل منها.

ولكني أعتقد أن كل هذه الخصائص والسمات، يندرج في ثلاث خصائص أساسية، عامة. فلنكتف بعرض بيان موجز لكل منها. وبوسع الباحث المتأمل أن يتنبه إلى الخصائص والملامح الجزئية المتنوعة والمندرجة فيها.

الخاصة الأولى: دورانها على محور الذات الإنسانية والتعريف بمسؤوليته ومصيره:

عندما عرضنا في مقدمة هذا البحث لذكر نماذج من الثقافات العامة الأخرى، غير الإسلامية، رأينا أنها جميعاً تعنى بجوانب متفرقة من المكونات المحيطة بنا. غير أنها كلها تشترك في أنها لا تتحدث عن قصة الإنسان ونشأته ومصيره والمهمة التي قد تكون منوطة به. حتى الطب وعلم النفس وما يسمى اليوم بعلم الأنتربيولوجيا.. فهي وإن كانت، فيما يبدو، تهتم بالإنسان وتتحدث عنه، غير أنها لا تتناول منه إلا جوانب ظاهرية وهامشية. فالطب إنما يتحدث عن الهيكل الجسمي للإنسان، ذاك الذي لا يزيد على كونه وعاءً ممتازاً للإنسان الحقيقي الكامن في داخله.. وعلم النفس يتناول ظواهره النفسية والوجدانية، كما تبدو في واقعها، وعلى صعيد التجارب التربوية والمعيشية.. وعلم الأنتربيولوجيا علم جديد لم تتكامل ولادته الحقيقية بعد؛ وموضوعه (الإنسان من حيث هو كائن

طبيعي واجتماعي). وقد بدأ تدريس هذا العلم لأول مرة في جامعة كمبردج عام ١٩٠٠ وفي جامعة لندن عام ١٩٠٨. إذن فهو علم حديث جداً، إذا ما قورن بالعلوم الأخرى المماثلة. بل إن حدوده ونتائجه والعلاقات القائمة بين أقسامه وأهدافه لم تتضح ولم تتبلور إلى هذا اليوم[١]، وعلى الرغم من الشمول أو الاتساع الذي ينبغي أن يمتاز به هذا العلم، فهو محصور في رصد ظواهر الطبيعة الإنسانية والاجتماع الإنساني، كما هي في واقعه التاريخي والمرئي.

غير أن ما هو أهمّ من ذلك كله، أن نصغي إلى من يحدثنا عن قصة هذا الإنسان القابع في هيكله الجسمي؛ ماذا كان من خبره وشأنه، وعن مصيره الذي هو سائر إليه، وعن المهام التي قد يكون مكلفاً بها من قبل كائن ما.. وهذا ما لا تملك أي ثقافة إنسانية أيَّ خبر عنه، ولا سبيلاً سائغةً إلى الخوض فيه، اللهم إلا الثقافة الإسلامية.

ولننظر الآن... ما هو أول ما يعيه ويتنبه إليه كل من أقبل يصغي بتدبر إلى حديث القرآن للإنسان، وما يعلق عليه محمد عليه الصلاة والسلام شارحاً ومفصلاً؟... إن أول ما يعيه من ذلك أن يقف من حديثه إليه أمام مرآة التعرف على الذات!..

ذلك لأن المحور الذي يدور عليه حديث القرآن والسُّنَّة، هو التعريف بالإنسان من حيث هو إنسان، بقطع النظر عن أعراضه

(١) انظر: مجلة العلوم اللبنانية السنة الثالثة، العدد الثامن، ص٣٨.

وظواهره: كيف خُلِق، ومن هو خالقه، وما هي المهمة المنوطة به، خلال اجتيازه مرحلة هذه الحياة، ومن هو الذي كلفه بذلك ولماذا، وما حقيقة الحياة التي تنبض بين جوانحه، وما مبعثها، وما مصيرها؟..

ألا ترى أن الإجابة عن هذه الأسئلة تشكل فاتحة القرآن وديباجة الخطاب الإلهي للإنسان؟ حتى إن أسلوب الخطاب القرآني لا يعرّف الإنسان على الخالق عزَّ وجل، إلا من خلال تعريفه ذاته وتبصيره بهويته.

ثم إنك لتجد هذا التعريف متكرراً في كلِّ مناسبة، كل مرة بطريقة جديدة وعرض مختلف. من ذلك قول الله عزَّ وجل:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١-٣].

ومن ذلك قوله عزَّ وجل:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ١٧-٢٢].

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦-٨].

وهذه الخاصة تتجه إلى تحقيق هدفين اثنين في حياة الإنسان:

الهدف الأول: تبصير الإنسان بالمنهج الأمثل إلى المعرفة. ومن المعلوم أن المعرفة في المنهج الذي يرسمه القرآن لا بدَّ أن تبدأ أولاً بمعرفة الإنسان ذاته معرفة ماهوية صحيحة ودقيقة. ذلك لأنَّ الإنسان بما ينطوي عليه من فكر ووجدان وشعور، يعدُّ أهمَّ بل أول أداة من أدوات المعرفة وجهاز من أجهزتها، ومن المعلوم بداهة أن على الإنسان الذي ينشد المعرفة أن يبدأ قبل كل شيء بالتعرف على أدواتها وأجهزتها، وأن يكون على بينةٍ من هذه الأجهزة وبصيراً بكيفية استعمالها والاعتماد عليها.

ويخطئ الخطأ الفادح من يذهب فيجمّع من حوله الأجهزة والوسائل العلمية المختلفة، ويتعرف على مدى دقتها وأمانتها في الكشف عن المعارف والعلوم، ثم لا يتنبَّه إلى ذاته الإنسانية، من حيث هي الأداة الأولى والوسيلة الأساسية العظمى في الطريق إلى تلك المعارف والعلوم.

وإذا ثبت أن الإنسان جهاز أساسي هام بين مختلف أجهزة العلم وأدواته، فإن مما لا ريب فيه أن الإنسان بمقدار ما يعرف ذاته معرفة ذاتية صحيحة، تكون معارفه عن الكون والحياة وفروعهما صحيحة ودقيقة. والعكس يورث العكس أيضاً.

وتلك هي آفة المعرفة عند أولئك الذين ينشدونها من وراء أسوار الثقافة الإسلامية الصحيحة، أي قفزاً فوق مرحلة التعرف

على الذات الإنسانية وماهيتها ومبدئها ومنتهاها، فإنها لن تكون - مهما تعمقت - معرفة حقيقية، ولن تكون موصولة بجذورها المستقرة في تربة الواقع الكوني.

ويتجلَّى زيف مثل هذه المعرفة، في تلك الطائفة من العلوم التي تسمى اليوم بالعلوم الإنسانية، كالتاريخ والفلسفة وعلم النفس والشرائع والقوانين، كما تتجلى في الآثار والممارسات المعرفية المنبثقة عن الاكتشافات والعلوم التطبيقية، وذلك عندما يذهب الفكر الإنساني الغافل عن ذاته في تفسير تلك الاكتشافات مذهباً يبعث على النشوة والغرور. إذ يخيل إلى صاحب هذا الفكر أن الطبيعة غدت ملك يده، وأنها أصبحت خاضعة لسلطانه، وأنه ما من ناموس يحكمها ويسيِّرها إلا ناموس علمه بها واكتشافه لها. وينسى في غمار هذا الغرور ما كان خليقاً بمعرفته وتذكره - لو أنه بدأ رحلته العلمية بمعرفة ذاته - من أن كل ما توصل إليه من علم أو اكتشاف، ليس إلا بعضاً يسيراً من ثمار تلك الشجرة الكونية الكبرى التي لا خبر عنده منها ولا علم له بها.. ولقد كان يسيراً عليه أن يكون عنده كل الخبر عنها والعلم بها، لو أنه بدأ فعرف ذاته واكتشف واقع عبوديته ومملوكيته لله عزَّ وجل؛ إذن لوجد الكون كله من حوله مصطبغاً بصبغة هذه المملوكية ذاتها، ولما زاده العلم إلا تطامناً وخضوعاً لمن بيده مقاليد تلك العلوم والحقائق كلها.

ومهما تنامت اكتشافاته ومعلوماته الكونية المتنوعة فخليق

بها، لو أنه بدأ بمعرفة ذاته الإنسانية، ألّا تنمو وتزدهر إلا في نطاق قول الله عزَّ وجل:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

الهدف الثاني: تبصير الإنسان بالمهمة التي خلق من أجلها، وتحميله مسؤولية إعراضه أو تقصيره في القيام بما قد كلف به، وتنبيهه إلى العواقب الخطيرة في حقه والناجمة عن تهاونه في القيام بما قد كلف به.

ومعلوم أن الإنسان لن يعرف، بل لن يتهيأ لمعرفة شيء من الوظيفة التي كلفه الله بأدائها، إن لم يعرف قبل ذلك ذاته تلك المعرفة الماهوية التي أشرنا إليها. ذلك لأن هذه المعرفة هي وحدها التي تبصره بنوع العلاقة القائمة بينه وبين مولاه عزَّ وجل. ومعرفة هذه العلاقة شرط أساسي لا بدَّ منه لاقتناع الإنسان بالمهام التي أنيطت به، وليقينه بأنه ليس مخلوقاً طليقاً يعبث كما يشاء دون رقيب ولا حسيب.

وهكذا.. فإن الإنسان إذا أصغى إلى حديث القرآن عنه، أدرك ذاته، وعرف أنه مخلوق من ضعف ثمَّ حوَّل الله ضعفه إلى قوة، ثم إنه سيعيد ظواهر قوته مرة ثانية إلى ضعف، فهو منفعل إذن بالطاقات والقدرات التي أفرغت فيه دون أن يفعلها

أو يفعل شيئاً منها.. وإذن فهو ليس مالكاً لها ولا لشيء منها، وإنما هو مظهر لتجلِّيها ووعاء يحتويها، بل هو مجرد جهاز استقبال، إن انقطع عنه الإرسال تحول إلى ما يشبه تلك الشاشة البيضاء التي تنعكس عليها صور الأشياء.

وإذا اكتشف الإنسان هذه الحقيقة، فلا بدَّ أن يبحث عمن ملأ كيانه بهذه الطاقات وجعله ينفعل بها دون أن يملك أي فعل لها، وسيهديه البحث إلى الله عزَّ وجل، الَّذي خلق فسوَّى والَّذي قدَّر فهدى، ذاك الَّذي خلق كلَّ شيء فقدَّره تقديراً، والَّذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثمَّ هدى.

وهنا يتنبه الإنسان إلى نوع العلاقة التي تربطه بخالقه؛ إنها علاقة عبودية متجهة من المخلوق إلى الخلاق، وألوهية متجهة من الخالق إلى المخلوق. وهي ليست عبودية امتلاك جامد مجرد، بل هي تعني الخلق من العدم ابتداء، واستمرارية الإيجاد دواماً، ثم الإمداد بكل معاني الرعاية والحماية إلى أجل مسمى مخبوء في علمه عزَّ وجل.

وإذا أدرك الإنسان حقيقة هذه العلاقة بينه وبين خالقه، تهيَّأ، بكل مداركه ومشاعره للتعرف على الوظيفة التي خلق لأدائها، فإنَّ خالقه لا يعبث، ولا بدَّ أنه خلقه لحكمة، ولا بدَّ أن مهمة قد وُكِلَتْ إليه.

وعند ذلك يجد نفسه ماثلاً أمام قول الله تبارك وتعالى، وهو يخاطب النوع الإنساني كله متمثلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ٢٠/١٢٣-١٢٤].

ثمَّ يجد نفسه أمام هذا الهدي الذي تنزل عليه فعلاً، وقد نبه إليه قوله عز وجل خطاباً للناس عموماً:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/ ١٥-١٦].

ويمضي الإنسان في تدبر كتاب الله المتضمن للهدي الذي نزَّله الله عليه وشرَّفه به، فيقف من خلاله على الوظيفة التي أناطها الله به، وحمَّله مسؤولية النهوض بها، وتتلخص هذه الوظيفة في أن يمارس الإنسان عبوديته لله عزَّ وجل بالسلوك الاختياري كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري.. يمارس هذه العبودية عن طريق عمارة الأرض بمعناها الحضاري العام، وذلك بمقتضى أمره القائل:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١١/٦١].

وعن طريق تحكيم شرعه ومنهاجه اللذين أكرم الله بهما هذه الأمة وألزمها بالرجوع إليهما في إقامة العلاقات الاجتماعية بين الإنسان وأخيه الإنسان، وذلك بمقتضى أمره الصادر إليه بقوله عزَّ وجل:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٥/٣]. وقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣].

* * *

الخاصة الثانية: أنها وصف لواقع ذاتي، لا تعبير عن فكر أو إبداع إنساني:

الثقافات الإنسانية المختلفة، تمتاز بكونها حصيلة أفكار إنسانية، أو ثمرات تجارب بشرية، أو رصداً وتأريخاً لأحداث متعلقة بحياة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية المختلفة، فهي على أي حال من صنع الإنسان، ومن ثم فمن الممكن أن توصف بأنها حصيلة فكرية لطائفة من الظواهر الإنسانية والاجتماعية بيد أن الثقافة الإسلامية تختلف عنها جميعاً كل الاختلاف.

إنها في حقيقتها حصيلة فكرية لواقع ذاتي مستقل عن الإنسان، ومنفك عن وضعه ودرايته وتجاربه.. إنها رصيد لواقع كوني قائم بنفسه، كما يرصد عالم الفلك واقعاً كونياً مستقلاً بذاته، وكما يكتشف عالم التشريح أنظمة بنية الجسد الإنساني، دون أن يكون لأفكاره وإبداعاته أي تدخل في ذلك الواقع.

فرجل الثقافة الإسلامية، إنما يجمّع ثقافته هذه، من خلال التعرف على واقع كوني مستقل عن أفكاره وصنعه. ويتلخص

هذا الواقع في العلم بظهور رجل اسمه محمد بن عبد الله ﷺ في فترة زمنية محددة، يعلن للناس أنه مرسل من خالق الكون إلى الناس جميعاً.. ثم في معرفة تلك الظاهرة التي تلبَّست بحياته ﷺ، ألا وهي ظاهرة الوحي. ثم في الإنصات المتدبر إلى الكلام الذي تضمنه هذا الوحي، وما انطوى عليه هذا الكلام من الإِخبار عن وجود خالق لهذا الكون ومدبِّر له موصوف بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن الإعلام بخلاصة الواجبات الملقاة على عنق كل من بلغ رتبة الرشد من البشر، تجاه خالقه الذي أبدعه، ثم تجاه أنداده من الناس جميعاً، ثم الإعلام بكل ما هم مقبلون عليه من بعد الموت.

ويدخل في عموم معنى الثقافة الإسلامية، كل ما يجده العاقل أمامه من أدلة منطقية وعلمية على وجود الله عزَّ وجل، وعلى صدق نبوَّة رسول الله ﷺ، وعلى صحَّة كون القرآن كلام الله عزَّ وجل، وصحة ما فيه من أخبار وأحكام.

فهذه الحصيلة من المعارف والإدراكات هي التي تسمى الثقافة الإسلامية. فهل تراها صورة لظاهرة اجتماعية أبدعها الإنسان من خلال تجاربه أو معاناته أو تأملاته الفكرية الخاصة به؟

لا يمكن أن تكون الثقافة الإسلامية شيئاً من ذلك، إلا إذا صح لنا أن نقرر بأن محمداً ﷺ، أبدع فكرة النبوة في ذاته إبداعاً، واخترع الظاهرة القرآنية اختراعاً، وأن الإنسان تنبه إلى وجود الإله الموصوف بالأحدية وسائر صفات الكمال التي

جاءت بها العقيدة الإسلامية، من خلال تأملاته الداخلية البحتة، فكان ما تنبه إليه من ذلك إسلاماً!..

إذا صح لنا أن نتصور حقائق الإسلام بهذا الشكل، صح لنا أن نقول: إن الثقافة الإسلامية حصيلة تأملات إنسانية اتخذت فيما بعد صورة ظاهرة اجتماعية.

ولكن ما من ريب في أن المعنى الصحيح لكلمة «الإسلام» لا يمكن أن ينطبق على أي حصيلة للتأملات الإنسانية ونتائجها التي يبدعها الإنسان من داخل فكره. بل إن حقائق الإسلام لم تسمّ إسلاماً، إلا لأنها ذات وجود خارجي مستقل عن فكر الإنسان، وما موقف الإنسان منها بعد التنبه إليها والتعرف عليها؛ إلا الخضوع والاستسلام. وعندما يبدأ أحد المفكرين يفرض أو يتصور أن هذه الحقائق التي تسمى إسلاماً ليست إلا ظواهر إنسانية أبدعها الفكر الإنساني، فإن عليه أن يعلم أنه منذ تلك اللحظة قد بدأ يفكر ويتأمل في شيء آخر غير الإسلام.. فليذهب في تخيلاته وافتراضاته أنى شاء، ولكن عليه أن يعلم أن ما يتخيَّله ويفترضه ليس في الواقع الذاتي من الإسلام في شيء، ومن ثم فإن معارفه وخبراته التي تتجمع من ذلك في ذهنه ليست من الإسلام في شيء.

وحتى لو لم يشأ ذلك الذي يتمتع بثقافة إسلامية صحيحة أن يذعن بأنها الحق الذي يجب الإيمان به والانقياد له، بصورة شخصية، فإن عليه أن يدرك جيداً أن ثقافته الإسلامية لا تكون صحيحة ومعبِّرة عن واقعها الذاتي، إلا إذا علم أن من

خصائصها أنها تعبير عن واقع كوني مستقل بذاته، وليست حصيلة فكر أو إبداع إنساني، وذلك في يقين كل من ينتمي حقيقة إلى الإسلام، على أقل تقدير.

ولا شكَّ أن هذه الخاصة، تشكّل أبرز السمات التي تمتاز بها الثقافة الإسلامية عن الثقافات الدينية الأخرى.

أما الأديان الوضعية، فمما لا ريب فيه أنها ثمرات لتصورات وتخيلات إنسانية، وحصيلة أوضاع اجتماعية، تقادم عليها الزمن وتوارثتها الأجيال، فاكتسبت القداسة والتبجيل.

وأما اليهودية والنصرانية، فلا شك أنهما يلتقيان في جذورهما ومعينهما الأول مع الإسلام.. بل إنهما ليتحدان معه في أساس اعتقادي واحد. غير أن من المعروف في تاريخ الأديان أن كلاً منهما قد خضع لتطورات جذرية جاءت نتيجة عوامل كثيرة متنوعة، من أبرزها وأهمها العوامل العصبية والسياسية والأوضاع الاجتماعية؛ فنصرانية الغرب اليوم، فيما يعرفه جميع الباحثين ومؤرخي الأديان وكما يقرر كُتَّاب الغرب اليوم، ليست نصرانية أولئك الحواريين الذين أخلصوا لعيسى عليه الصلاة والسلام واتَّبعوا عقيدته وساروا وراء منهجه، وإنما هي نصرانية بولس اليهودي الأصل، وقسطنطين الروماني، اللذين تتابعا على إقامة نسيج فكري واعتقادي مختلف لا عهد للمسيح ولا لأحد من حوارييه به.. وأناجيل اليوم لا علاقة لها بذلك الإنجيل الآخر الذي كان يتنزل وحياً على عيسى عليه الصلاة والسلام. وإنما هي كتابات ومذكرات

صاغها من يسمَّون بالرُّسل الَّذين جاؤوا من بعد، ودوَّنوا فيها ما يعلمونه من حياة المسيح وأخباره.

وما يصدق على النصرانية، يصدق على اليهودية أيضاً، ولسنا هنا بصدد شرح هذا الموضوع وتفصيل القول فيه.

ونظراً إلى واقع تلك الأديان الوضعية، وإلى تاريخ هذين الدينين السماويين في أصلهما، فإنَّ من حق علماء الاجتماع الأوربيين أن ينظروا إلى الدين على أنه **ظاهرة اجتماعية**، وأن يحللوه من هذا المنظار، وأن يقرروا أنه من إفرازات الأوضاع الاجتماعية المتأثرة بعواملها المتنوعة.

ذلك لأنا لا نشكُّ في أن المُختصّين بالدِّراسات الاجتماعية، من العلماء الغربيين، إنما يقوّمون الدين من خلال الأديان المعروفة فيما بينهم والتي تصطبغ بها حياتهم.. وإن كنا لا نقرهم على الذهول عن الفطرة الإيمانية الكامنة في أعماق كل نفس إنسانية، أياً كان المجتمع الذي نشأت فيه، وأياً كانت الحضارة التي تظلها، كما أننا لا نقرهم على ما قد ألزموا أنفسهم به من حصر عقولهم وأفكارهم في دائرة الدينين النصراني واليهودي وما وراءهما من نثار الأديان الوضعية المختلفة، دون أن يلتفتوا التفاتة موضوعية علمية جادة، إلى الدين الإسلامي المتمثِّل في جذوره الاعتقادية ومبادئه الشرعية.

أما أولئك الذين تعرفوا عليه وعكفوا على المزيد من دراسته، ولكن من خلال مذهبهم الذرائعي، فصوروه لعقولهم

كما أرادوا لها أن تتصوره، لا كما يشاء العقل المتبصِّر الحرّ أن يفهمه، فجريمتهم الإنسانية والثقافية أخطر وأشنع من أن توصف(١).

ومهما يكن، فإن الباحث الأوربي الذي أمضى عمره في مجتمعات يسودها دين تقليدي، يلوّنه المجتمع السائد باللون الذي يشاء، ويطوره في أصوله الفكرية وفروعه السلوكية على النحو الذي يهواه، لا يستبعد منه أن يكون صادقاً مع نفسه إن هو تصوَّر أن الأديان كلها ظاهرة اجتماعية نسجتها التيارات الاجتماعية المتطاولة الآماد، وقد يعذر عذراً نسبياً إن هو ركن إلى هذا التصور الخاطئ.

ولكن الأمر الذي يستهجنه العقل وتشمئزُّ منه النفس، أن ترى في المجتمعات الإسلامية مسلمين مثقفين يفترض أن تكون لهم مشاركة ما في الثقافة الإسلامية، يتحدَّثون أو يكتبون في علم الاجتماع، وإذا هم يقلدون أولئك الغربيين في تصوراتهم عن الدين، ويستعيرون عباراتهم ذاتها في وصفه والتعبير عنه، دون أي تفريق بين الدين الإسلامي وتلك الأديان!.. لأن الدين المطبق في حياة الأوربيين ظاهرة اجتماعية دخل فيها صنع الإنسان، إذن فالإسلام هنا أيضاً كذلك!...

ويمضي سلطان هذا التقليد الذليل الأعمى، فيغشّي على أبصار هؤلاء الناس، ويصدهم عن رؤية البدهيات المتمثلة في

---

(١)من أئمة هذا المذهب وليم جيمس، وله في ذلك كتاب «إرادة الاعتقاد» و«البراجماتزم» و«العقل والدين». وانظر الفصل السابق من هذا الكتاب.

الفوارق الجذرية الواضحة بين الإسلام الذي يفرض سلطانه الاعتقادي والسلوكي على الفرد والمجتمعات الإنسانية دون أن يكون لهما أي تحكم أو تدخل، وبين النصرانية الغربية التي تسيِّرها الأهواء وتتلاعب بها السياسات، وتوجهها المصالح المادية التي غدت المعبود الأوحد للغربيين من دون الله.

* * *

الخاصة الثالثة: تبصيرها الوجود الكوني وحدة مترابطة المرافق والأجزاء:

وهذه الخاصة من أهم وأعظم ما تمتاز به الثقافة الإسلامية عن سائر الأنواع الأخرى من المعارف والثقافات، بل عن سائر أنواع العلوم الإنسانية والتطبيقية كلها.

ليس ثمة أي ثقافة أو علم من العلوم القديمة أو الحديثة يملك أن يصوِّر لك الوجود الكوني وحدةً مترابطة المرافق متشابكة الأجزاء، ويضع منه أمام عقلك منظوراً إجمالياً كما هو في واقعه، إلا الإسلام!..

أجل، الإسلام متمثلاً في مصدريه الأساسيين: القرآن والسنَّة. بل هما في الحقيقة مصدر واحد؛ وإنما كانت السنة شرحاً وتبياناً.

وهذا يعني أن الوجود الكوني وحدةٌ متماسكةٌ متشابكةٌ، وليس نثاراً متفرقاً من الأشياء المستقلة بعضها عن بعض. وتلك

حقيقة ثابتة لا مرية فيها ولا مردَّ لها، ولكنَّ الَّذي يكشف السجاف عنها هو الإسلام.

وبناء على ذلك، فإن أي معرفة صحيحة حية، لأي جانب أو جزء من أجزاء هذا الوجود الكوني، لا يمكن أن تتحقق إلا ضمن معرفة كلية إجمالية لمجموع البنية الكونية من حيث هي.

فإن لم تتم هذه المعرفة الإجمالية أولاً بشكل يقيني صحيح، فإن تسليط الفكر على زواياه وجوانبه المتنوعة بالتأمل والدرس لا يأتي بأي ثمرة علمية ترضي العقل أو تطمئن النفس، مهما تعمق ذلك الفكر في أغوارها وساح في أرجائها.

ذلك لأن ما قد تراه من العلوم والمعارف التي تبدو مستقلة بعضها عن بعض، ليس في حقيقته إلا أجزاءً وأوصالاً مترابطة في بناء هذا الهيكل الكوني كله.. إن بينها من التمازج والتفاعل ما يجعلك لا تحيط بعلم حقيقي مفيد بأيٍّ منها إلّا في ضوء ما قد يبصِّرك به المجموع الكلي لذلك الهيكل الكوني المترابط.

أرأيت إلى الفصول المتتابعة المستقلة، من كتاب يعالج موضوعاً علمياً معيناً، إن مما هو واضح لنا جميعاً أن استقلال الفصول التي فيه ليس إلا من حيث الشكل التنسيقي فقط؛ أما من حيث الموضوع فهي مترابطة ترابطاً تاماً، إلى درجة أن استيعاب أي فصل منها وتذوقه متوقفان على استيعاب الفصول

التي سبقته، وعلى اتباعه بدراسة الفصول التي تليه. فمن عكف من قراءة مثل هذا الكتاب على دراسة فصل واحد منه، فإنه لن يعود من دراسته تلك إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف مبتورة مقطعة، وهي في الحقيقة لون من أسوأ ألوان الجهل المركب وإن بدا في الظاهر أنها معلومات جزئية صحيحة[١].

وليست هذه المكوِّنات المحيطة بنا - ونحن جزء منها - إلا كهذا الكتاب الذي نضرب المثل به. فمن الخطأ البيِّن إذن، أن يدرس أحدنا التاريخ الإنساني بمعزل عن معرفة التاريخ الطبيعي، ومن الخطأ بمكان أن يدرسهما فيصل منهما إلى حقائق ثابتة مستقلة دون دراسة ولو موجزة للنظام الفلكي في الكون ولقصة النشأة الإنسانية وتطورها، ومحال أن يصل من ذلك كله إلى حقيقة علمية راسخة تطمئن النفس وترضي العقل، إن هو درس ذلك كله بمعزل عن التأمل في النشأة الكونية في مجموعها والنظر في وجود الله عزَّ وجل وخالقيته للكون.. إلخ.

فمن تاه عن هذه الحقيقة، وضلَّ عن رؤية ذلك السلك الذي ينظم أجزاء الموجودات المتنوعة في وحدة مترابطة، وراح يدرس كل قطعة منها على حدة، فلا بدَّ أن توقعه تلك الطريقة الخاطئة في تصورات باطلة ومفاهيم مضطربة، ولا بدَّ أن تدفعه إلى سدود من الحيرة لا سبيل لاقتحامها والتخلُّص منها، مهما اتَّسعت قدراته العلمية ومداركه الذهنية.

---

(١) فصَّلنا القول في هذه المسألة في موضوع: مشكلة المعرفة وعلاجها من هذا الكتاب.

مصداق ما نقول، واقع كل العلماء والباحثين الذين تاهوا عن هذه الحقيقة، ولم يتح لهم أن ينطلقوا إلى علومهم التي اختصوا بها، من نظرة شاملة مستوعبة إلى خارطة هذا البنيان الكوني، لتيسر لهم تصور هيكله الكلي قبل كل شيء.. انظر إليهم وتأمَّل أقوالهم وكلماتهم، لا سيما في نهايات رحلاتهم العلمية تجدهم جميعاً يشكون الحيرة والقلق، بل يعترفون بالعجز والجهل!.. وفي أحد الفصول الماضية ذكرنا نماذج من اعترافات بعض العلماء بهذه الحيرة، بل بهذا الجهل.

فلماذا؟.. وكيف؟.. كيف يتأتى لعقل واحد من هؤلاء العلماء الأفذاذ أن يهضم أدق الأصول الرياضية أو يكتشف قانون النسبية ويعطيه دستوره الرياضي، ثم يشكو مع ذلك من أنه لم يصل إلى طمأنينة المعرفة، وأنه - بكل بساطة - يجهل كل شيء؟!..

والجواب: أن الشرط الأساسي لتحقيق المعرفة قد فقد عند هؤلاء جميعاً. إذ لم يتح لهم أن يبدؤوا سيرهم في طريقها، بالتعرف على الهيكل الكوني في مجموعه الإِجمالي، فكانوا كمن بدأ دراسة دقيقة للقلب أو الكبد، دون أن يتعرف قبل كل شيء على الهيكل الإِنساني، ويعرف موقع القلب أو الكبد منه، لا ريب أنه كلما ازداد في معرفته عمقاً ازداد جهالة وحيرة. لأن القانون العلمي يقرر أن دراسة ٢٠٪ من كتلة ذات أجزاء متراكبة، ليس من شأنها أن تؤدي حتماً إلى معرفة ٢٠٪ من حقائق تلك الكتلة، بل إن مثل هذه الدراسة قد لا تؤدي حتى

إلى معرفة ١٪ من تلك الحقائق. أو قد توصله إلى تصورات خاطئة ومشوشة عن مجمل تلك الكتلة.

ولسوء حظ أولئك العلماء وأمثالهم أن هذا الشرط لم ينبه إليه ولم ينوه به إلا القرآن.. ولقد كان القرآن، ولا يزال، بعيداً عن تأمل هؤلاء الناس!..

أجل.. إن السبيل إلى اكتساب المعرفة الكلية الشاملة التي من شأنها أن تبعث الثقة بالمعلومات الفرعية والجزئية التي تأتي على أعقابها، لا يتحقق إلا عن طريق كتاب الله تعالى. فهو الذي يقدم للإنسان خارطة إجمالية لبنيان هذا الوجود كله، وهو الذي يعرّفه على مرافق هذا البنيان وعلى صلة ما بينها وسبل الاستفادة منها[1].

وهكذا فإن الثقافة الإسلامية تغني صاحبها بنظرة شمولية إلى حقيقة الكون والإنسان والحياة وتبصره بالعلاقة السارية بين هذه العناصر الثلاثة. وهي علاقة لا سبيل لغير الثقافة الإسلامية للتبصير بها. إن العلوم الإنسانية والطبيعية كلها أعجز من أن تبصِّر الإنسان بقيمة حياته التي يحياها الآن، أو أن تكشف له عن مداها ونهايتها وما قد يليها، أو أن تحدثه عن علاقته بالمكونات التي من حوله وموقفه منها، أو أن تضعه أمام هويته الحقيقية وقصة نشأته ومهمته فوق هذه الأرض.

---

(١)عالجنا هذا البحث باستفاضة في كتاب «منهج الحضارة الإنسانية في القرآن» في فصل: ما هي المعرفة في القرآن.

ولكن المرجع الوحيد الموثوق الذي يُعنى بذلك كله إنما هو القرآن..

فالقرآن يضعك أمام المخطط الشمولي للهيكل الكوني كله بعناصره الثلاثة: الكون والإنسان والحياة، ويضعك منه أمام ما يشبه الخارطة التي تجمل لك صورة العالم المعمور كله. ولا يتسع هذا البحث الموجز لعرض الآيات التي تعرف بذلك كله، وتضعك أمام قصة هذا الكون من أولها إلى آخرها، وأمام القيمة الحقيقية للحياة التي يتمتع بها الإنسان، وعلاقة الاستخدام والتسخير القائمة بينه وبين معظم المكونات المنتشرة من حوله.

فمن أخذ بحظ من هذه الدراية من خلال إقباله على القرآن والتأمل في بياناته وأخباره. ثم اتَّخذ من السنَّة النَّبوية شرحاً لكل ما أشكل أو استغلق عليه، فقد تمتع بزاد كبير من الثقافة الإسلامية؛ فإن وثق بما يقول القرآن في ذلك، وتلقاه باليقين الفكري والقبول النفسي، فقد تجاوز مرحلة التمتع بالثقافة الإسلامية إلى الاصطباغ الفكري والقلبي بالإسلام هداية وعرفاناً وديناً. أما إن لم يثق بحديث القرآن في ذلك، واكتفى بمجرد الاطلاع على ما فيه والتعرف على موضوعاته ومضموناته، كما يفعل المستشرقون ومن نهج نهجهم، فذلك هو المثقف ثقافة إسلامية، تمكنه من الخوض في موضوعاتها والاشتراك في بحوثها.

وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الخاصة الثالثة والأخيرة،

يجدر بنا أن نلفت النظر إلى أنك إذا وقفت على مثل قول الله تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨].

أو وقفت على كلام العلماء بأن القرآن قد حوى كل المعارف والعلوم، وأعوزك أن تعلم معنى ذلك، فإن فيما قد تم بيانه ما يكشف لك عن حقيقة المعنى المراد. إذ إن القرآن قد حوى فعلاً أصول المعارف كلها، عندما وضع الإنسان أمام الرسم البياني الشامل للوجود الكوني بأسره، إلى درجة أن اكتشاف أي حقيقة علمية لا تكتسب قيمتها العلمية الصحيحة وحجمها الحقيقي إلا إذا تمت ضمن تصور سليم لذلك الرسم البياني.

وهذا هو المقصود بالعلم الذي ينوّه القرآن بأهمِّيته وشرفه في كثير من الآيات من مثل قوله تعالى:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٨][1].

وإذا تبيَّن هذا، فقد اضمحل الإشكال الذي يقوم في ذهن كثير من الناس، عندما يسمعون قول الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٨] ثم ينظرون فيجدون أن الدنيا مليئة بالعلماء الأفذاذ، ومع ذلك فإن الكثير منهم لا يؤمنون بالله أو لا يخافونه.

(١) انظر: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص١٥٢.

ذلك لأن هؤلاء ليسوا فيما قد تبيَّن لنا الآن علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما هم نموذج من أولئك الذين يضعون المكبرات على رقعة صغيرة من قلب خارطة كبيرة، ثم يحملقون في تلك الرقعة وهم عن الخارطة ذاتها غافلون!.. وهم نموذج من أولئك الذين يحصرون أنظارهم من الجسم الإنساني كله في الكبد وحده، وهم عن مجموع جهازه العضوي معرضون!.. ولا أدل على ذلك من اعترافهم هم بأنهم يعانون من الحيرة والجهل، كما قد رأينا، وكما قد فصَّلنا فيه في فصل مضى.

لذلك وصف الله هؤلاء الناس بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٣٠/٧] ولا تتوهمَّن أن الفهم السطحي للشيء محصور في المدارك الظاهرية لمجموعه، إن الحقيقة أن الفهم السطحي للشيء يتمثل أوَّل ما يتمثَّل، في الإعراض عن معرفة حجمه وحقيقته الكلية، ثم الغوص بدلاً من ذلك في إحدى زواياه التائهة الضئيلة وسط حجمه الفسيح الذي لم يتم أخذ أي علم عنه.

* * *

الآن، وقد انتهينا من عرض وجيز جداً لأهم خصائص الثقافة الإسلامية، يجب أن نختم بحثنا هذا ببيان الحصيلة التالية:

إن كل من أتيح له أن يتمتع بزاد وافٍ من الثقافة الإسلامية، لا يعدو أن يكون أحد رجلين:

رجل أقبل بعقل متجرد صاف ينهل من هذه الثقافة، ويتعرف على الإسلام في جوانبه الأساسية الهامة، رغبة في معرفة الحقيقة، ودون أن يكون خاضعاً لأسبقيات ذهنية أو مستعبداً لأغراض يسعى إليها.. مثل هذا الرجل لا بدَّ أن تثمر ثقافته الإسلامية إيماناً بالإسلام ويقيناً بمبادئه، ثم التزاماً بمنهجه وصراطه.. والثقافة الإسلامية في هذه الحال هي المدخل الطبيعي إلى اعتناق هذا الدين عن طواعية وصدق.

ورجل أقبل يعكف على دراسة الثقافة الإسلامية بشتى جوانبها، وأقسامها، وخصائصها. ولكنه مندفع إلى ذلك ابتغاء غرض نفسي يسعى إليه، أو خاضع لأسبقيات فكرية ومذهبية فهو متعصب لها وجاحد بكل ما سواها، أينما وقف به البرهان والدليل. مثل هذا الرجل لا تزيده معارفه الثقافية إلا كما يزيد الماء المرارة في أصول الحنظل. وما أيسر عليه أن يستخدم سائر معارفه وخبراته لدعم الأغراض التي يتأبطها والأفكار التي يتعصب لها.

ولا عاصم عن الانحدار في هذا المهوى السحيق سوى التمتع بحرية الفكر والنظر.. ولن ينال شرف الحرية من صفد عقله وكيانه بأغلال المطامع والأهواء، وعصَّب عينيه بعصائبه الفكرية والعصبيات المذهبية.

حمانا الله من معاندة العقل، ومخادعة الفكر والعلم، وبصَّرنا بحقائق الأشياء كما هي في واقعها، لا كما نشتهي لها أن تكون.

مشكلة العلوم الإنسانيّة
في كثيرٍ من جَامِعَاتِنَا الإِسلاميَّة

مقدمة

إن العلوم الإنسانية عموماً تتَّسم بالطابع الثقافي أكثر مما تنضبط بالموازين العلمية الثابتة. ذلك لأنها تتأثَّر إجمالاً، بواقع البيئة ونوع العقيدة ومجرى التربية. كما تتأثَّر بالنَّوازع والتَّيارات السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. فهي وإن كانت علوماً من جانب، غير أنها تتفاعل مع هذه العوامل كلها. أي إنها تتبادل معها دور التأثر والتأثير على نطاق واسع.

من أجل هذا، كان من الثابت يقيناً أن العلوم الإنسانية تتلون بلون المجتمع الذي تنشأ فيه، وتصطبغ بالأسس الفكرية التي ينهض عليها ويتمسَّك بها.

ولذا فقد كان من الثابت أنها إن تجاوزت المناخ الذي نمت وترعرعت فيه، إلى أي مجتمع آخر، حملت إليه عدوى موطنها الأصلي، ونشرت فيه ما تجرُّه معها من ذيول وآثار.

من أجل هذا كانت هذه العلوم الإنسانية، بأنواعها

المختلفة، هي الأسلحة الفتاكة الأولى التي يعتمد عليها المستعمرون في غزوهم الثقافي.

وقد كان الغزو الثقافي - فيما مضى - يأتي في المرحلة الثانية، بعد الغزو العسكري وعمليات الاحتلال؛ إذ كان هذا هو مقتضى التخطيط في عرف الاستعمار القديم. أما اليوم، وحسب نظام الاستعمار الحديث، فإن الغزو الثقافي يحتلّ المكانة الأولى في الأهمية والترتيب الزمني. بل كثيراً ما لا يحتاج العدو المستعمر إلى إضافة أي جهد ثانٍ إليه؛ ذلك لأن كل ما يطمح إليه من أطماع متنوعة، قد يتحقق من وراء هذا الغزو الثقافي الذي يستعمر الأدمغة التي في الرؤوس والعواطف التي في النفوس، وإذا الأرض والثروات وسائر الطرقات والممتلكات لاحقة بها خاضعة لها، وإذا الناس الذين وقعوا في براثن هذا الغزو قطيع كالأغنام، يتحركون في خدمة العدو الغازي ويخضعون لقيادته بل إشارته، دون شعور منهم ربما، ودونما حاجة إلى سَوْقٍ أو زمام!..

هذه حقيقة ثابتة لم تعد تخفى على أي مثقف منا؛ والوثائق الناطقة بها والمحفوظة في مكتباتنا، يعيها شبابنا المثقف أتمَّ الوعي قبل أن يتجاوزوا مرحلة الدراسة الثانوية.

ولقد كان من مقتضى هذه الحقيقة وعلمنا بها، أن نبدأ السعي إلى دراسة هذه العلوم، بتهييئ التربة الفكرية التي سيتم غرسها فيها، وأن نرعاها وننميها بعد ذلك بعقيدتنا وتصوراتنا الذاتية عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة. حتى إذا

تنامت وتكاملت في هذا المناخ، كانت حصناً لوجودنا الفكري ودعماً لشخصيتنا وخصائص حياتنا الحضارية.

أجل.. كان من مقتضى هذه الحقيقة أن نسير إلى دراسة هذه العلوم في هذا الطريق البيِّن المرسوم، لا أن ننتظر من الغرب أو الشرق أن يقيم لنا أساس هذه العلوم كما يريد، وأن يلونها بالعقائد والأفكار الأساسية التي يشتهيها لنا ويحب، حتى إذا نهض لنا بذلك، أسرعنا إلى هذه العلوم ونحن نحمل من عقولنا ما يشبه أوعية فارغة في أيدينا، كما يحمل الفقير المعدم مخلاته ينتظر بها فضول الأطعمة والصدقات. ثم ملأنا أوعيتنا العقلية بها، خاضعين أذلاء، ثم عدنا نتأمل فيها بعقولهم ونفهم من خلالها الدنيا بأفكارهم ونتحرك ضمن مخططاهم.

ولكن حياتنا الثقافية قائمة - ويا للأسف - على هذه الحال الثانية المخزية، لا على المقتضى الطبيعي الأول. وتلك هي المشكلة التي ينبغي أن نبدأ حديثنا بتحليلها وبيان حجمها من الخطورة والأهمية.

المشكلة:

مما لا ريب فيه أن العلوم والمعارف كلها فروع شتى من شجرة واحدة، وأن أغصان هذه المعارف والعلوم مهما كثرت وتنوعت، فهي لا بدَّ أن تنتهي إلى جذع واحد من المعرفة الكلية الشاملة لا ثاني له. هذا الجذع الشامل الكلي يتمثل في الوصول إلى يقينٍ علميٍّ راسخٍ عن قصة الكون والإنسان والحياة، كما أوضحنا من قبل.

وما من شك في أن سائر العلوم الإنسانية والتطبيقية المختلفة، إنما تتلوَّن بلون العقيدة، أو اليقين الفكري بهذا الجذع الأساسي الذي نتحدث عنه.

ولا بدَّ أن نلفت النظر هنا، إلى أن الإسلام في جملته وتفصيله، ليس إلا تبصيراً بحقيقة هذا الجذع الراسخ الكبير الذي تتنامى منه سائر فروع المعارف والعلوم.

ولا ريب أن من أبرز الأسباب التي أحوجت الإنسان إلى الإسلام، وحملته شرف التكليف بفهمه واعتناقه، أن رحلته العلمية في خضمّ هذه الحياة، لا يمكن أن تنطلق صحيحة ماضية على نهج سديد، إلا إذا انطلقت من قاعدته. كما لا يمكن للإنسان أن يهتدي إلى السلسلة المترابطة والمتساوقة للمعارف والعلوم، إلا إذا جعل البداءة من أول حلقة فيها، ولن يبصِّره بأول حلقة أساسية فيها سوى الإسلام.

وما قرنت الآيات القرآنية المعروفة لنا جميعاً، شرف الدين الحق بسموّ العلم الصحيح، إلا تعبيراً عن هذه الرابطة، وتنبيهاً لبصائر الناس أجمع إلى أن صلة الإسلام بمختلف المعارف والعلوم، ليست إلا كصلة الجذع الراسخ بأغصانه المتكاثرة.

إذن.. فالإسلام هو القاعدة العريضة الكبرى، التي تشكل المنطلق المنهجي والعلمي الذي لا بدَّ منه ولا بديل عنه، إلى دراسة العلوم الإنسانية، بل سائر العلوم الأخرى أيضاً.

غير أن هذه الحقيقة التي كانت إلى أمد قريب، أمراً بدهياً

في حياتنا الفكرية، قد تقلصت أو اختفت من أذهان كثير من الناس اليوم. فلم يعد الإسلام في تصورهم هو الأبجدية الأساسية والقاعدة الثقافية والفكرية التي لا بدَّ منها لسائر المعارف والعلوم، بحيث يكون موقع الإسلام منها جميعاً موقع التربة من الغراس، أو القاعدة من البناء، بل غدا التزود بأخذ فكرة عن الإسلام، فضلاً عن التشبع بحقيقته وثقافته، فرعاً من فروع الثقافات والمعارف الإنسانية الكثيرة والهوايات المتنوعة، يقف معها جنباً إلى جنب، وما على الشاب العربي المسلم أو الفتاة العربية المسلمة إلا أن يتخير من بين هذه المعارف والهوايات الفنية العلمية ما يشتهي ويريد.

والواقع المشاهد - بناء على ذلك - أن طائفة قليلة من كل قوم وجماعة وأهل بلدة، تنزع إلى دراسة الإسلام والتوسع في فهمه، فإذا انسجمت نفسية أحدهم مع هذه الهواية وسايره الظرف، فقد يواصل الدراسة والبحث ليجعل من الإسلام مجال اختصاصه العلمي المفضل. ويبقى سواد الناس وعامتهم - عل كل حال - تتوازعهم الدراسات والاختصاصات الثقافية والعلمية الأخرى. وتنظر إليهم، فلا تجد الواحد منهم يقف بعقله أو بفكره عند الإسلام أكثر من وقفة انتساب، ثم لا يلمس شيئاً من مضامينه وحقائقه إلا لمسة تبرك واحترام. ثم إنهم جميعاً ينصرفون عنه ويتجاوزونه، كلٌّ إلى عمله وعلومه وشأنه!.. على أن فيهم كثيراً ممن يضنّ عليه حتى بوقفة التبرك وصدق الاحترام. وما أكثر الذين تناقش أحدهم في أمر يتعلق

بمبدأ أساسي في الإسلام، فيعتذر إليك أنه لا يعلم من هذا الأمر شيئاً لأنه غير مختص بالإسلام!..

وهكذا.. فإن الإسلام لم يعد كما كان بالأمس: القاعدة الفكرية العريضة الكبرى التي تنهض عليها في حياة المسلمين سائر العلوم والثقافات. بل تحول في عصرنا هذا إلى واحد من الفروع الثقافية والعلمية التي يتجه الإنسان إلى ما شاء منها.

ولا ريب أن لهذا الواقع المخزي الخطير أسبابه الكثيرة المعروفة. ولا شكَّ أن مناهج التعليم في أكثر بلادنا العربية تتحمل قسطاً كبيراً من جريرة هذا الواقع وآثاره. ولكنَّا لسنا هنا بصدد الوقوف عند هذه الأسباب والحديث عنها.

ثم إن سواد الناس في بلادنا لا بدَّ أن يتَّجه إلى التزوُّد من الثقافات والعلوم الإنسانية المتنوعة، فعلى أيِّ أساس فكري يقيمون تلك الثقافات والعلوم الإنسانية، في أفئدتهم وعقولهم، وبأي عقلية يدرسونها، وما التصوُّر الأساسي الذي ينبغي أن يحملوه عن جذورها وأصولها الكونية الكبرى؟

لا شيء.. فإن عامة هؤلاء الناس، لا يحملون في رؤوسهم أي فكرة، ولا ينطلقون إلى دراستهم العلمية تلك من أيِّ تصور ذاتي راسخ في عقولهم عن قصة هذا العالم ونشأته ومصيره.

وهذا الأمر المؤسف للغاية، هو الذي يعبرون عنه بالفراغ الذي يعانيه عالمنا العربي خاصة والإسلامي بصورة عامة. بدءاً بذاك الذي سماه أيزنهاور بالفراغ السياسي، إلى الذي سمي

فيما بعد بالفراغ الاقتصادي، فالذي سمي أخيراً في التقارير الخفية التي لم تعد اليوم خفية، بالفراغ الأيديولوجي. فإنها في الحقيقة أسماء متعددة لمسمى واحد. أو هي ألوان من النتائج التي كان لا بدَّ لها أن تكون ثمرة للفراغ الحقيقي الأول، ألا وهو ذاك الذي سموه بالفراغ الأيديولوجي. فإنه هو الذي جرّ مصيبة الفراغ الاقتصادي والسياسي، وهو الذي لا بدَّ أن يفرز الفراغ الأخلاقي والعلمي والثقافي وألواناً كثيرة أخرى..

قلنا: إن سواد الناس هؤلاء لا بدَّ أن يتجهوا مع ذلك إلى دراسة العلوم الإنسانية من فلسفة وتاريخ واجتماع وأخلاق وغير ذلك، ثم إنه لا بدَّ أن يتحوَّل كثير منهم بعد ذلك إلى تدريسها في مختلف المعاهد والجامعات.

وهنا يبرز جوهر المشكلة بكل أبعادها:

هذه العلوم الإنسانية لا يمكن أن تعلق بمشجب العقول والأذهان هكذا في فراغ، أي دون الاعتماد على أي تصور فكري راسخ عام لقصة الكون والإنسان والحياة، ولذا فقد كان مما لا بدَّ منه أن يعتمد عامة الناس عندنا في دراستهم لهذه العلوم على القاعدة الفكرية التي ارتضاها لهم أقوام آخرون، وأن يدرسوها مصوغة بالصياغة ذاتها التي تنسجم مع عقيدة أولئك الأقوام.

ومن هم الأقوام الذين يتم الاعتماد على قواعدهم الفكرية وصياغتهم العلمية، غير قادة الحضارة الغربية في أيٍّ من مظهريها الشرقي أو الغربي؟ فهؤلاء هم الذين يمسكون بزمام

القيادة، وهم الذين يستسلم سواد كبير من الناس عندنا لقيادتهم، ويسيرون بانكسار ومهانة وراء إشاراتهم!..

ومن ثم فإن دراستنا للعلوم الإنسانية المختلفة، لا تعني أكثر من أننا نفكر بعقول غيرنا، ونخزِّن في رؤوسنا النتائج والمفرزات التي لا جذور لها في حياتنا ولا في تاريخنا ولا في شيء من أصول مدركاتنا. وليت أن هذا (الغير) كان نداً لنا، أو كان ممن يشدنا إليهم سبب من أسباب الود أو حسن العلاقة والجوار؛ ولكن الذي يزيد الأمر أسى، أن هذا (الغير) هو عدوُّ الأمس واليوم، وهو ذاك الذي يتربَّص بوجودنا الحضاري منذ أن أحسَّ أن وجودنا الحضاري هذا خطر كبير عليه.

فهذا (الغير) هو الذي نلجأ إليه ليسد ثغرة الفراغ الفكري في حياتنا، ومن ثم فهو الذي نفكر بعقله ونحاول أن نتعرف على علوم الفلسفة والتاريخ والاجتماع والأخلاق من خلال فهمه ومنظاره.

فهذه هي المشكلة الكبرى، لا فيما يتعلق بأصول دراسة العلوم الإنسانية في مجتمعاتنا، بل إنها المشكلة الكبرى التي تتعلق بوجودنا الحضاري كله، بل بقيمتنا الإنسانية المطلقة.

وقد يتساءل بعضنا: والغرب، أليس يعيش هو الآخر في مثل هذا الفراغ الفكري؟

والحق أن الغرب، في مجموعه، لا يعيش اليوم في أي فراغ أيديولوجي كما يقولون، فلقد اتخذ قراره، وتبنَّى تصوُّراته عن قصة الكون والإنسان والحياة، بقطع النظر عن كونها صحيحة

أو باطلة؛ فهذا شيء آخر لم نلتفت إليه بعد. وإنما المهم في نطاق بحثنا هذا أن ثقافة الرجل الغربي، لا تأتي في واقعها إلا فرعاً عن معتقداته الأساسية وتصوراته الفكرية العامة لواقع الكون والإنسان والحياة.

ومن أهم الأسباب التي وفرت للرجل الغربي هذا التصور الأساسي الذي أرسى له القاعدة الفكرية الكبرى، أن دراسة الديانات الغربية وتاريخها ونشأتها والأطوار التي مرت بها، لا تعدّ عندهم - كما هي عندنا اليوم - واحدة من الثقافات الفرعية المتنوعة، بل هي عندهم جزء لا يتجزَّأ من أصول الثقافة الغربية التي لا بدَّ أن يتزوَّد بها كل مثقف غربي أياً كان اتجاهه الفكري ومهما كانت ميوله العلمية أو الفنية!..

وأذكر أن الرَّئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر» زار إحدى العواصم العربية منذ بضع سنوات، وذات يوم، قال لأحد مرافقيه العرب المسلمين، بمناسبة: إننا في بلادنا ندرس المسيحية وتاريخها وكل ما يتعلق بها، أكثر مما تدرسون في بلادكم الإسلام.

غير أن القناعة التي تكونت لدى الرجل الغربي، من وراء دراساته الدينية، تتلخص في اليقين بأن نصرانية اليوم ليست هي بعينها تلك التعليمات والأنباء التي تلقاها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام من ربِّه وحياً، فكان يبلغها الحواريين وسائر الناس من حوله، وإنما هي اليوم ميراث متطوِّر تعاقب على نسجه وتطويره كل من بولس اليهودي، وقسطنطين الروماني، ثمَّ

توارث رجال الكنيسة والكهنوت عمليات التطوير والتبديل خلال القرون والأجيال حسب المصالح والظروف كما سبق بيانه.

فكان أن حملهم هذا اليقين العلمي على أن ينظروا إلى دينهم هذا، على أنه في مجموعه ميراث مقدس توارثته الأجيال، يعبر عن جانب كبير من شخصيتهم التاريخية وكينونتهم الحضارية، كما حملهم في الوقت ذاته على أن يتجاوزوا أكثر قيوده وأحكامه عائدين إلى حضارتهم المادية الوثنية الأولى، وألا يقيدوا أنفسهم منه بأي قيد يصدّهم عن متابعة السعي إلى تجديد نسيج حضارتهم المادية الوثنية تلك، التي تحمل في طياتها تصوراً فكرياً كاملاً عن قصة الكون والإنسان والحياة، وإن كانت قصة خرافية نسجها الوهم الوثني ثم أخرجتها المادية الحديثة إخراجاً جديداً وأبرزتها في إطار مزوق خدَّاع.

إذن.. فالغرب - في مجموعه - لا يعاني من أي فراغ فكري، إنه تبنى وثنية الأمس مقنعة بنصرانية اليوم، وهو يصرّف دينه هذا طبقاً لما تقتضيه رعوناته الماديَّة وأهواؤه الطليقة. وعذره في هذا التصريف منطقي ظاهر، وهو أن دينه هذا ليس في مجموعه إلا ظاهرة اجتماعية نسجتها عوامل اجتماعية ثم ما زالت تطورها تلك العوامل إلى اليوم. هذا بقطع النظر عن يقينهم بأن له جذوراً ربانية صحيحة ولكنها لم تبلغهم، إذ حيل بينهم وبينها بفعل المبدلين والمطورين من أصحاب المصالح والأغراض.

فإذا أقبل الرجل الغربي على العلوم الإنسانية من تاريخ وفلسفة وتربية واجتماع وعلم نفس، فمن الطبيعي بل من حقه أن يتأملها ويدرسها من خلال التصور الأساسي الذي استقر في ذهنه، لقصة هذا العالم. وهي كما قلنا، قصة وثنية مادية ترتدي الكسوة النصرانية الصليبية.

وعلى هذا، فليس شاذاً ولا غريباً، في نطاق هذه الرؤية الغربية، للكون والحياة، أن يدرس الرجل الغربي التاريخ والتاريخ الطبيعي على أنهما مظهران للصراع المادي المتطور، وأن يدرس الفلسفة من خلال منظورها المادّي الوثني، وأن يدرس التربية وعلم النفس من خلال تصوّر أنَّ الإنسان إن هو إلا كتلة من الغرائز الحيوانية. ثم أن ينظر إلى علم الاجتماع على أنه أداة لبناء حياة اجتماعية قائمة على مقتضيات هذه الرؤية، وعلى أن الدين في واقعه ليس إلا واحدة من أدواته ونظاماً من الأنظمة المنشأة لحسابه.

ومن ثم، فمن الطبيعي، بل من حق الرجل الغربي ألَّا يرى للدين أي سلطان على شيء من المرافق الاقتصادية أو السياسية، أو الأنظمة الاجتماعية أو البرامج والمناهج العلمية. إذ هو، فيما انتهى إليه علمهم بحقيقته وواقعه أداة اجتماعية مسخرة في يد علم الاجتماع[(١)].

كل هذا من حق الغرب وشأنه، ما دام أنه أقام دراسته لهذه

---

(١)انظر: أصول الشرائع لبنتام، ص٣٠٧، ترجمة أحمد فتحي زغلول.

العلوم الإنسانية، على نسيج فكري متكامل - صحيحاً كان أم باطلاً - لقصة الكون والإنسان والحياة؛ نعم إنه قد بنى باطلاً على باطل، ولكن حسبه أنه لم يبنه على فراغ، وحسبه أنه عندما يقبل إلى تلك العلوم الإنسانية يدرسها، لا يعدم قاعدة فكرية تشاد عليها وتصطبغ بها، وأنه لا يحتاج إلى أن يستعير لها - كما هو شأننا نحن - قاعدة فكرية من الآخرين.

أعود بعد هذا لأؤكِّد من جديد بأن عالمنا العربي هذا، الذي يتبوَّأ مركز الصدارة بحمد الله، في قائمة العالم الثالث، يعاني من فراغ فكري تجاه ما ينبغي أن يعلمه من قصة هذا العالم الذي يعيش فيه، على الرغم من أنه أغنى الناس جميعاً بالحقائق الكلية الشاملة الكفيلة بسدِّ هذا الفراغ على خير وجه، لو أنه التفت إليها وأولاها القدر اللازم من النظر والبحث!...

وما من شك في أن هذا الفراغ أفقده المناعة ضدّ سائر الأوبئة الحضارية والثقافية المختلفة وقذف به بعيداً عن حماه الذي كان محصناً وآمناً فيه، وأقامه من الأمم المحدقة به والطامعة فيه، في صحراء مفتحة الجهات والأطراف.

وفي هذا الجو العاصف، يتحرك الرجل العربي المسلم، لينهل - فيما يزعم - من العلوم عامة والعلوم الإنسانية خاصة!..

على أي قاعدة فكرية عامة عن الكون يقيم الإنسان العربي علومه ومعارفه هذه؟.. إنه لا يملك في الواقع أيّ قاعدة

ذاتية!.. ولا ريب أن حكمنا هنا على المجموع العام لا على الجميع الذي يتناول سائر الأفراد.

إذن.. لا بدَّ من أن يقبل الإنسان العربي على هذه العلوم وهي مغروسة في مشاتلها الخاصة بالأمم والجماعات الأخرى، ولا بدَّ أن يتلقَّاها بالصياغة الفكرية ذاتها التي صاغتها بها تلك الجماعات.. ولا بدَّ لهذه العلوم إذن أن تنقل إلى ذهنه ما تحمله من جراثيم التصورات والأفكار الجانحة عن الصواب، ولا بدَّ لهذا المسكين أن يحفل بها ويكرم مقدمها، ويفتح في كل من قلبه وعقله مجالاً رحباً لها، دون أيِّ مناقشة أو تدبُّر فكري؛ ذلك لأنه لم يقبل إليها يتأمَّلها باختياره، وإنما سيقت إليه كرهاً في تضاعيف العلوم التي كان لا بدَّ له من معرفتها ودراستها، وصادفت منه فؤاداً خالياً فتمكَّنت منه واستقرَّت فيه.

وهذا هو الواقع والنتائج:

تلك هي المشكلة التي كان لا بدَّ من تصورها وفهمها قبل كل شيء.

أما الواقع الذي جرَّته علينا هذه المشكلة، فيتلخَّص فيما يلي:

* نظرنا إلى دروس التاريخ العربي والإسلامي، التي يتلقاها شبابنا في كثير من جامعاتنا العربية والإسلامية من أساتذة ينتمون إلى الإسلام، ويتكلَّمون بلغة القرآن، وإذا هي تعبير دقيق عن وجهة نظر الغربيين في نشأة الوجود الحضاري

والديني والإِنساني؛ وإذا الأكاذيب المختلقة ذاتها التي تصاغ عن تاريخنا في معاهد الغرب وجامعاته، هي التي تعاد وتردَّد هنا بكل إذعان وإجلال، وإذا الخلفية الفكرية التي يتبناها الغربيون عن أصل الإِنسان ونشأته وتطوره، هي ذاتها التي تتجمع وترسب في قاع الفكر العربي المسلم من خلال ما يتلقَّاه من ذلك كله مغموساً بالتصورات والصياغة والصبغة الغربية!..

لقد اطلعت على محاضرات لأستاذ جامعي عربي مسلم ألقاها في التاريخ العباسي في إحدى الجامعات العربية يحلِّل فيها أحداث الفتح الإِسلامي من خلال ما يراه فان فلوتن في كتابه «السيادة العربية»، ويترجم فيها لعمر بن عبد العزيز من خلال ما يقرره كريمر في دراساته للتاريخ الأموي. فالفتح الإسلامي انتجاع للرزق وبحث عن الانفتاح الاقتصادي وسعي إلى استلاب السيادة من الفرس!.. وعمر بن عبد العزيز اتبع سياسة دينية غاشمة أغضبت عليه البيت الحاكم، عدا أنها أوقعت الدولة في عجز ماليّ لم تبرأ منه بعد ذلك!.. والمسلمون في صدر الإِسلام كانوا ينظرون إلى الأعاجم على أنهم موالٍ خلقوا لكسح الأقذار وخرز النعال!..

ونظرت، فإذا المراجع التي يدعم بها المؤلف كلامه هذا، هي، فان فلوتن، كريمر، غولد زيهر، توينبي!...

التاريخ تاريخ الأمة العربية الإِسلامية، والأرض التي احتضنت وقائعه وأحداثه هي هذه الأرض العربية الإسلامية، والأقلام التي سجلت هذه الأحداث عن رؤية وعيان، أو عن

سند علمي موصول، هي أقلام أجدادنا المؤرخين العرب المسلمين.. ومع ذلك فإن هذا المحاضر العربي المسلم يدير ظهره لذلك كله، ثم يتطلع ماداً عنقه وأذنيه شطر الغرب الذي ما انفكَّت عروق الحقد الصليبي تنبض في كيانه إلى اليوم، يستوحي ويستطلع منه أنباء التاريخ العربي الإِسلامي وتحليل أحداثه وتراجم أبطاله!..

* ونظرنا إلى دروس الفلسفة الإِسلامية التي يلقيها على مسامع الطلاب بعض الأساتذة، فإذا الخزي الأليم ذاته!... إنهم يبذلون جهداً متكلفاً شاقاً لدفن الفلسفة الإِسلامية التي قفزت بالفكر الفلسفي إلى صعيد متقدِّم متطور متحرر من الفكر التقليدي اليوناني، من خلال إخضاعها للمنهج العلمي الذي اكتسبه قادة الفكر الإِسلامي من كتاب الله عزَّ وجل، ثم يعمدون إلى أصول الفلسفة اليونانية القديمة وإلى نظرياتها التي أبطلتها بدهيات القواعد العلمية الحديثة، فينبشون عنها التراب ويرفعون لها الرايات، ويخلقون من حولها الطنين والرنين. أملاً في أن يخبو شعاع ذلك الفكر المتطوِّر الحرّ، وأن تعود فتلتمع في عقول المسلمين تلك الترهات الوثنية العتيقة المصوغة بألفاظ الفلسفة ومصطلحاتها، فتتيه عقولهم في دوَّامتها، ويعودوا القهقرى من حيث يشعرون أو لا يشعرون، إلى ماض قصيٍّ من البلاهة الفكرية والأوهام الخرافية التي تجاوزها العقل والعلم.

فمن أجل هذا.. تجد معظم المشتغلين والمختصين بها في

جامعاتنا الإسلامية، يحاربون فلسفة الغزالي والرازي والباقلاني، على الرغم من أنها تمثل الفكر التقدمي المتطور، ويدعمون ابن رشد والفارابي وإخوان الصفا، على الرغم من أنهم يمثّلون الفكر التقليدي الرجعي المحافظ على أوهام الفلسفة اليونانية القديمة. والعجيب أن هؤلاء الناس يظلون ينعتون أنفسهم بالتقدمية ويتبرمون بما يسمونه الرَّجعية!..

ولكن لا عجب في الحقيقة، فإن الرجعية تصبح هي الملاذ الذي لا بديل عنه، عندما تكون هي الكفيلة ببتر هذه الأمة عن ينبوع وجودها وعن تاريخها المشرق الوضاء، وعندما تكون هي الغبار الذي لا بديل عنه لدسّ موجبات العكر في مجال الرؤية العلمية الصافية لحقائق الإسلام.

ومرة أخرى لا عجب.. لأنا قد علمنا أن هؤلاء المعلمين والمدرسين لا يتمتعون بأي أصالة فكرية عن حقيقة الكون والإنسان والحياة، وقد علمنا أن هذه الثقافات والمعارف الإنسانية لا يمكن أن تنمو في فراغ، فأقبلوا عليها وهي قائمة في مغارسها الفكرية التي اختارها الغرب لنفسه، ففهموها تماماً كما فهمها الغربيون وحللوها وعللوها طبقاً لما ارتضته نفوسهم وتصورته عقولهم.

* ونظرنا إلى علم الاجتماع والتربية والأخلاق، كما يدرَّس في معاهدنا وجامعاتنا، وإذا هي الأخرى مبنية على المفاهيم الأساسية الكبرى التي ارتضاها الغربيون أصولاً لثقافاتهم، إن المدرس العربي المسلم إنما يلقن تلاميذه من خلال عناوين

هذه العلوم، تلك المفاهيم الأساسية للثقافة الغربية. وإذا استوعب التلميذ تلك المفاهيم واصطبغ بها فقد أحرز الغاية المنشودة من سائر تلك الدراسات.

المهم أن يتعرف التلميذ على علم الاجتماع من خلال أوجست كونت وأمثاله، لا من خلال ابن خلدون. وأن يتبين أصول التربية وطرائقها من إميل دوركهايم لا من خلال الغزالي. والمهم فيما يدرسه من علم الأخلاق ومعاني الفضيلة والرذيلة أن يصغي إلى ما يقوله في ذلك أمثال هوبز، وكانت، وستوارت ميل، دون أن يلتفت إلى تلك القيم والموازين التي أرسل بها سيدنا محمَّد ﷺ القائل فيما صحَّ عنه: «إنما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق».

وقد كان من أبرز ما جرّته هذه المعارف الثقافية، إلى أذهان كل من المعلمين والمتعلمين، الذين يتطوحون في الفراغ الفكري الذي وصفناه، سيرهم وراء ما ينادي به الغرب من أن الدين ظاهرة اجتماعية تطورت مع نشأة الفكر الإنساني وسارت وراء ظروفه وصراعاته، فهو من إفراز الفكر الإنساني وثمار تصوره وتخيلاته، وقد كنا أوضحنا السبب الذاتي الذي دعا الغربيين إلى أن يتخذوا هذا القرار، وأن يتعاملوا مع الدين في حياتهم على هذا الأساس.

ولو أنك قلت لواحد من العرب المسلمين الذين يتبنون هذا الكلام: أما الغرب فقد برهن على أن دينه الموروث هذا، ظاهرة اجتماعية في مجموعه، تضافرت عليه اختراعات

الأجيال، فحق له أن يتخذ قراره هذا أساساً لثقافته وحياته الاجتماعية. فما البرهان الذي تحمله أنت على أنَّ الإِسلام الذي تدين به مجتمعاتنا العربية، هو الآخر ظاهرة اجتماعية صيغ من تصورات الأجيال واختراعاتها؟ أقول: لو أنك سألت واحداً من أصحاب الأذهان الفارغة هذا السؤال لأجابك قائلاً - إن ملك الجرأة الكافية -:

أما الإِسلام فلا علم لي بحقيقته ولست من المتخصصين فيه، وأما الغرب فقد اتخذت من مفاهيمه الأساسية للعلوم والمعارف والثقافية، قاعدة أنطلق منها إلى كل المعارف والفنون!..

فتأمل في هذا الموقف ثم قل لي: هل تتجسَّد التبعية الذليلة العمياء، في شرٍّ من هذه الصورة الشنعاء؟!..

ولا أنسى المهانة التي كنت أشعر بها يوم كنت أتلقى محاضرات في أصول التربية وعلم النفس التربوي في قسم التخصص من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، فقد رأيت في الطريقة التي كنا ندرس بها هذه العلوم ما يزري بشرف الأزهر وتاريخه!... وتساءلت: أليس في وسع مدرِّسي جامعة الأزهر هؤلاء أن يعلِّموا تلاميذَهم من مناهج التَّربية وأصولِها إلا طرائق هربرت، ودلتن، وجون ديوي؟!. وهل ضاق كتاب الله العظيم، وتاريخ الثقافة الإِسلامية كله عن أن يتَّسع لاستخراج طرق ومناهج لتربية الناشئة المسلمة أكثر صلاحية من هذه التجارب الأجنبيَّة التي نبتت في أرضٍ غير أرضنا وطبقت على عقلية غير

عقليتنا وأُلبست نفوساً لا تتفق مع ما جبلت عليه نفوسنا؟!..[١]

لقد كانت المشكلة وما تزال، هذا الفراغ الفكري الذي نتحدَّث عنه، فالمحاضرون لا شأن لهم بالإِسلام وثقافته أكثر من انتساب تقليدي وصلوات قد يؤدونها، على أحسن الأحوال. أما القاعدة الفكرية التي تعبر عن ذاتيتهم العربية الإِسلامية فمعدومة نهائياً. وقد شاءت الأقدار أن يختصوا بالتربية وعلم النفس ونحو ذلك، فكان لا بدَّ أن ينقلوا هذه المعارف محمولة على قواعدها قائمة على منابتها وأصولها الغربية، إذ لم يكن لها بديل في رؤوسهم أو نفوسهم.

كانت تلك مهانة قديمة أذكرها ولا أنساها!..

غير أن المهانة التي هي شر منها، والتي يجب ألَّا ينساها العربي المسلم الكريم على نفسه أبداً، ما قرأته حديثاً لمتخصص في الفلسفة في إحدى جامعات الخليج، من الدعوة الصريحة الملحَّة إلى حلِّ مشكلة الدين الإِسلامي عندنا بالطريقة ذاتها التي حلَّ الغربيون بها مشكلة الدين النصراني عندهم!..

يحمل الرجل في ذهنه قاعدة فكرية مستعارة، بدون أي كلفة، من واقع الحياة الغربية والحصيلة الفكرية المدروسة المستقرة في أذهان الغربيين، وينظر، فيجد أن من قرارات هذه القاعدة المستعارة منهم أن الدين ظاهرة اجتماعية،

---

(١) اقرأ كتاب «منهج تربوي فريد في القرآن» لكاتب هذا البحث. لقد كان هذا الواقع من أهم البواعث على تأليفه.

كما أوضحنا، فيدعو صارخاً إلى الحكم على الإسلام هنا بمقتضى قاعدته الفكرية المستعارة، وقراره الديني المستعار.

أرسلت إليه أقول: الغربيون درسوا دينهم دراسة واعية مستوعبة، ثم انتهوا من ذلك إلى قرار أن دينهم في مجموعه ظاهرة اجتماعية. فما الذي درسته أنت من الإسلام - ولتكن مدفوعاً إلى هذه الدراسة برغبة صافية من التقليد الأصيل للغربيين - حتى انتهيت إلى هذا القرار في حقه؟

ولبثت أنتظر أي إجابة منه، ولما أسمع أي شيء!..

وماذا عساه يقول من قد ربط معارفه الثقافية، بما ارتضاه الغربيون لأنفسهم من الأصول والقواعد الفكرية؟!.

وأخيراً فهذا هو العلاج:

إن هذا الواقع الذي استعرضت صورة موجزة جداً منه، ليس إلا واحداً من إفرازات تلك المشكلة التي تحدثت عنها بإيجاز أيضاً، وإن لتلك المشكلة نتائج كثيرة أخرى في غاية الأهمية والخطورة، لا مجال لشرحها أو الحديث عنها في هذا المقام، وإن من أوضحها في الذهن وأخطرها على المجتمع، تلك السحب التي لا بدَّ أن تمتدَّ غاشيتها على ساحة التربية وعلى مجالات التعليم والتثقيف للناشئة.

وإن من المكابرة العجيبة أن ينكر أي مثقف وجود هذه المشكلة وهذا الواقع الناتج عنها، بحيث يتصور أن كل ذلك أمر طبيعي سليم.

ولكن، ما الحلُّ أو العلاج؟

إن الحل واضح وبسيط يتجلى جوهره من خلال تصور المشكلة ذاتها.

إذا كانت المشكلة هي أن العالم العربي خاصة والإسلامي عامة يعاني من فراغ فكري يجعله لا يملك أي تصور ذاتي راسخ لحقيقة الكون والإنسان والحياة، فإن الحلَّ هو أن يتَّجه إلى ملء هذا الفراغ وأن يبحث عن قاعدة فكرية راسخة شاملة، يتصورها، ثم يتبنَّاها، ثم يغرس في تربتها شتى فروع المعرفة والثقافات والعلوم الإنسانية.

غير أن اختيار هذه القاعدة الفكرية الشاملة، عن طريق التشهي أو الرغبة أمر غير معقول.

فمن المستحيل أن يتخير الإنسان معتقداته بملء إرادته، كما يتخيَّر أحدنا ثوبه الذي يرتديه أو داره التي يسكنها، من المستحيل ذلك، وإن حاول أمثال وليم جيمس من أصحاب النزعة الذرائعية، أن يروضوا عقول الناس على أن يتعوَّدوا على اختيار ما يحبون أن يعتقدوه، وأن يتعوَّدوا بالمقابل على رفض ما لا يحبون اعتقاده.

ذلك لأن التظاهر بالقناعة والاعتقادِ شيء، والقناعة أو الاعتقاد الحقيقيُّ شيء آخر، وقد يملك الإنسان أن يتظاهر بالإيمان بما لا يؤمن ولا يستيقن أمام الآخرين، ولكنَّه لا يملك أن يحيل هذا التظاهر الشكلي إلى اعتقاد حقيقي مهما سعى وحاول.

إذن فما هو السبيل إلى أن يملك الإِنسان عقيدة ذاتية راسخة عن قصة هذا العالم وشأنه، بحيث تتكون له منها قاعدة كلية شاملة تشاد فوقها وضمن نطاقها سائر المعارف والعلوم الإِنسانية، على ألَّا يتقممها أو يحصِّل عليها قفزاً فوق الدراية والمحاكمة العقلية، وتبعاً لما يستورده من معارف وثقافات؟

سبيل ذلك أن نقبل على دراسة إسلامنا دراسة مستوعبة جادة، كما يقبل الغربيون على دراسة نصرانيتهم دراسة مستوعبة جادة، وأن نجعل من دراسة حقيقته وتاريخه منطلقاً شاملاً لكل فئات المسلمين وقطاعاتهم إلى سائر العلوم والمعارف الثقافية، تماماً، كما يجعل الغربيون من دراسة دينهم ذلك؛ ثم أن نترك عقولنا وأفكارنا تتبنَّى النتائج التي تتفاعل معها وتصطبغ بها على أعقاب ذلك، تماماً كما يترك الغربيون عقولهم تتفاعل مع النتائج التي تأتي من وراء دراساتهم المستوعبة لأديانهم(١).

وما أيسر هذا السبيل على هواة التقليد والتبعية، لو لم يشذوا عن هوايتهم في هذه النقطة بالذات.

لقد سلك الغربيون هذا السبيل في دراسة دينهم على أوسع نطاق، فانتهوا إلى أن الدين الذي عرفوه ليس في جملته إلا ظاهرة اجتماعية، فأقاموا فكرتهم عن الكون بناءً على ذلك.

---

(١)تحقيقاً لهذه الغاية أو جزء منها قرر اتحاد الجامعات العربية ضرورة تدريس مقرر «الثقافة الإسلامية» في سائر الجامعات العربية، وفي جميع كلياتها على اختلاف اختصاصاتهم، ولكن ما هو قصد هذا القرار، وما هي الحدود التي نفذ هذا القرار فيها؟ هذا ما يحتاج إلى كشف وبيان.

وإذا سلكنا نحن هذا السبيل في دراسة ديننا على النطاق الشامل ذاته، فلسوف ننتهي إلى أن ديننا هذا ليس في جملته وتفصيله إلا حقائق منزلة من لدن خالق هذا الكون إلى عباده، يطلعهم من خلالها على نبأ هذا العالم ومصدره ونهايته، وعلى مركز الإِنسان منه ووظيفته فيه، وعلاقته ببارئه الذي خلقه في أحسن تقويم وميزه بأسمى المزايا والصفات، ونفخ فيه من روحه ففضله بذلك على سائر المخلوقات.

ولسوف نستيقن من خلال دراستنا الجادة لتاريخ الإسلام وكيفية وصوله إلينا أنه قد وصل إلينا سارياً من معينه الأول الذي هو الوحي، لم يفتئت على الله منه شيئاً أمين ذلك الوحي، ولم يتقطَّع إلينا منه شيء في تعاريج الطريق، ولم يعبث بشيء منه عابث يهودي كبولس، ولا حاكم روماني كقسطنطين. كل ما فيه من أحكام وأنباء مبرمة فبقرار مباشر من ربِّ العالمين، وكل ما فيه من فروع اجتهادية فبأمر وتوجيه منه عزَّ وجل.

هذا اليقين العلمي، لا بدَّ أن يمتعنا بقاعدة فكرية كلية وشاملة عن حقيقة الإِنسان وصلته بالكون والحياة. فإذا أقبلنا على فروع العلوم والمعارف الإنسانية، ارتكزت عليها برسوخ، واصطبغت بها أيما اصطباغ، وانسجمت وتفاعلت معها كما تنسجم وتتفاعل الجذور مع الأغصان.

هذه المعارف الثقافية والإِنسانية، تغدو عندئذٍ حصناً لذاتيتنا

الإسلامية، وقالباً يضبط ويحدد ما يسمونه اليوم بوجودنا العربي، إذ يصبح عندئذٍ ذا مشخَّصاتٍ محددة متميِّزة.

وعندئذٍ تسدّ وتغلق بإحكام تلك الثغرات والمنافذ الكثيرة التي يتسلل إلينا منها الغزو الفكري وعوامل التبعية المهينة للآخرين. بل سنملك عندئذٍ من الشخصية الفكرية والروح الثقافية، ما هو جدير بإقبال الآخرين إليه وتأثرهم به، وتفضيلهم له على كل ما عندهم من التصورات والأفكار.

وفوق هذه التربة ستبسق وتشمخ أغصان الحضارة الإسلامية التي نتحدث اليوم عن أمجادها وذكرياتها ولا نرى من حولنا شيئاً من مظاهرها أو معانيها.

* * *

هذا هو الحل، بكل بساطة ووضوح. وإنه للحل الوحيد الذي يتبينه بجلاء، كل ذي رشد وعقل.

ترى هل من عقبة تصد مجتمعنا العربي والإسلامي عن بلوغه والأخذ به؟

نعم، هناك عقبة واحدة فقط، هي التي قد تصد وتحول دون الأخذ بالحل.

إنها لذّة التبعية التي يظلُّ يشعر بها عشاقها. فهي العقبة الوحيدة التي لا نرى من حولها أي عقبة أخرى. وبوسعنا أن نتبين حجم هذه العقبة ومدى خطورتها وأهميتها، من خلال

إصغائنا إلى الحوار القائم اليوم بين عشاق التبعية الذين يقنعون أنفسهم بالشعارات الفارغة، والطامحين إلى التحرر وتحقيق الذات، في معركة المصير الحضاري التي تقودها زعامة موحدة متآلفة من معسكري الشرق والغرب معاً.

ولكن.. أليس من علاج للتغلُّب على لذة التبعية هذه، ولتحرير أصحابها من غوائلها الخطيرة؟

بلى.. هنالك علاج واحد لا ثاني له؛ هو صدق الإيمان بعبودية الإنسان وربوبية الله الواحد القهار.

إذا تحقق هذا الإيمان، أورث صاحبه حباً عارماً لله عزَّ وجل، وخوفاً عظيماً من بطشه وسلطانه، ويقيناً ببالغ رحمته وحكمته، فانقطع عن الولاء لكل المخلوقين، وجعل ولاءه الحقيقي لله وحده.

وذلك هو مصدر العزة التي لا بدَّ أن يتمتَّع بها المؤمن إيماناً حقيقياً.

ولعل تفصيل كل هذا الذي ذكرناه، ينطوي في تضاعيف قول الله عز وجل:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ٨].

على هامش مشكلة التوفيقات الذهبيّة
هذا ما قلته
في مَهْرَجانِ الإمَام عَليّ كرّمَ الله وَجهَه[1]

كنت قد أعددت لمؤتمر «مهرجان الإمام علي» الذي كنت واحداً من الَّذين اشتركوا فيه، والذي عقد في لندن في غضون الشهر الثامن من عام ١٩٩١، بحثاً علمياً لا علاقة له بموضوع المؤتمر، تجنباً للإحراج، وابتعاداً عما افترضته من موجبات الخصام واللجاج.. ولكن الكلمات التي ألقيت في اليوم الأول من بدء المؤتمر، شدت الأذهان كلها إلى موضوع الشيعة وحديث الغدير، لا سيما أنه قد كان من بينها كلمتان اتسمتا بقدر كبير من الأهمية والموضوعية، بحيث أصبح من المتعذّر صرف أفكار الحاضرين إلى التفاعل مع أي موضوع خارج هذا الذي اصطُبِغَت به وشدَّت إليه.

وقد حملني ذلك على العدول عن موقفي الهامشي الذي اتخذته.. فطويت محاضرتي التي أعددتها وكتبتها، وأحلت الحاضرين إلى قراءتها مكتوبة عندما توزع عليهم فيما بعد.. ثم ارتجلت بدلاً عنها الكلمة التي أرجو أن أكون قد نجحت في توظيفها للتفاعل الإيجابي السني مع الموضوعية الشيعية التي لم أجدها تمثلت، في كل ما قرأت وسمعت، في خير من كلمتين ازدان بهما أول أيام المؤتمر. ولعل حديثي هذا الذي ارتجلته جاء بمنزلة التوقيع عليهما.

---

(١)هذا نص الكلمة التي ارتجلتها في مهرجان الإمام علي كاملة، بعد أن تم تفريغها من الشريط الذي سجلت عليه.

أيها السادة: أجدني اليوم، بعد أن أصغينا معاً إلى المحاضرات التي ألقيت بالأمس، مضطراً إلى أن أفاجئكم بطيّ موضوعي الذي أعددته وكتبته، بعيداً عن مسألة الغدير والشيعة، ذلك لأني لن أجد متسعاً له في أذهانكم اليوم، لا سيّما أنّا قد استمعنا البارحة، فيما استمعنا، إلى محاضرتين بلغتا الأوج في الأهمية والموضوعية؛ أولاهما لسماحة الشيخ محمد بحر العلوم، والثانية لسماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

وإن بوسعكم أن تعلموا أن كلمتي التي سأرتجلها الآن، لن تكون في مجملها أكثر من توقيع على الأفكار الرائعة التي وُضعَتْ فيها النقاط على الحروف من هذين الباحثين الجليلين.

غير أن توقيعي هذا لن يكون مجرد كلمة تخط على ورق، وإنما هو بيان وتعليق وتعميق للمعاني التي أصغينا إليها.

لقد كانت كلمة سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد مهدي شمس الدين، من الموضوعية والدقة، بحيث تناسى الرجل انتماءه المذهبي وصعد إلى أعلى درجات الصفاء الإسلامي، واستطاع من هذا المنطلق ومن ذلك التحليق أن يضعنا أمام فكر موضوعي رائع.

أفليس من الحق ومن مقتضيات العدل أن يقوم باحث مثلي، ربما كان ينتمي إلى مذهب مقابل، فيقف الموقف ذاته، ويذهب مذهب الأستاذ الجليل في هذه الموضوعية، بحيث

يتخلى هو الآخر عن مذهبيته وانتمائه، ليلتقي معه في قمة الصفاء الإسلامي، وعلى أساس من الحقيقة الإسلامية ذات الجذور الواحدة والموحدة؟..

هذا ما قد شعرت بضرورته. وهذا ما ندبت نفسي إليه، وأسال الله تعالى التوفيق.

لا شك أيها الأخوة، أن وحدة الأمة أساس مقدس، بل لعله أقدس أساس. بل إني لا أعتقد أن الإسلام جاء لتحقيق هدف من الأهداف، أجلّ وأخطر من تحقيق وحدة الأسرة الإنسانية.. إن الإسلام جاء ليوحّد الأمم والقبائل والشعوب الإنسانية المتفرقة.

وإنني لأتصور أنه كلما كان سلوك المسلمين وتوجهاتهم الإسلامية محققين لهذه الغاية فإن سلوكهم سليم وصحيح. وكلما كانت أنشطتهم الإسلامية تسير في نقيض هذا الطريق، وتبعثهم على التفرق والشتات فإن سلوكهم منحرف وغير صحيح.

وإنني لا أزال أتساءل: أيعقل أن يكون الإسلام الذي وحّد، بالأمس، القبائل المتخاصمة والمتعادية، هو بذاته الإسلام الذي يفرق ويشتت، اليوم، الأمة المتضامنة الواحدة؟!.. إنني لا أستطيع أن أتصور أن هذا الإسلام الذي نمارسه اليوم هو ذاته الذي مارسه سلفنا وأجدادنا بالأمس!..

وحدة الأمة، هي القطب الذي تدور عليه رحى الإسلام أجمع.. إذن ينبغي أن ننطلق من هذا الأساس:

أما ما يتعلق بأصول الإسلام ومبادئه الكلية التي لا خلاف فيها اليوم، ولم يقع فيها أي خلاف بالأمس، فلا نتوقف عند شيء منها، بل لا يوجد أي إشكال فيها.

ولكن الحديث هنا ينبغي أن يتناول الغدير - حديث الغدير - وما تفرع عنه، والمشكلات التي صورها لنا كل من الأستاذين الجليلين بالأمس.. هذه المشكلات كيف يمكن حلّها، وقد علمنا أن أقدس ما جاء الإسلام لتحقيقه إنما هو وحدة الأمة؟

ولحسن الحظ، كلنا متفقون ولله الحمد على هذا الهدف الأقدس. فأنا ما سمعت فيما سمعت بالأمس، وقبل الأمس، شيئاً من الكلمات والتدخلات، إلّا ولاحظت أن المتحدِّث ينشد الوحدة الإسلامية، ويهتف بها، ويطلق الزفرات المتتالية لابتعادنا عنها.

إلا أننا عندما نسير في خطواتنا العملية، ابتغاء تحقيق الإسلام، نجد أن هذا الهدف قد تبخّر، ونجد أنفسنا عاجزين عن القبض عليه بأي شكل من الأشكال. ولعل لذلك سبباً.. بل لا بدّ أن له سبباً!..

هذا السبب لفت القرآن الكريم نظرنا إليه، وهو حقيقة علمية منطقية هندسية معروفة.. أنا لكي أرسم دائرة هندسية متكاملة، لا بدّ أن أضع يدي قبل ذلك على المحور الثابت.. إن المحور هو الذي يوجد الدائرة التي تتكامل من حوله. فإذا لم أستطع

أن أثبت يدي على المحور الداخلي، فهيهات أن أستطيع إدارة خط متكامل يعبر عن الوحدة!..

فما هو المحور الذي يلمّ الشعث؟ ما المحور الذي يوجد الدائرة؟

لقد أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال عندما قال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣]. لم يقل: لا تفرقوا، بادئ ذي بدء. ولو بدأ فقال: لا تفرقوا، أو اتحدوا، لما استطاع الناس إلى ذلك سبيلاً، ولما استطاع المنطق أن ينجدهم في تحقيق هذا الأمر.

ولكن البيان الإلهي قال قبل كل شيء: واعتصموا بحبل الله.. أي أمرهم بوضع المحور، حتى إذا استجابوا لهذا الأمر واعتصموا بحبل الله، أتيح لهم بعد ذلك أن يحققوا الوحدة التي ندبهم إليها.

ونحن اليوم بحاجة إلى أن نلمس المحور الذي يعيد وحدتنا إلى بنائها الحقيقي القائم.. فما هو هذا المحور في موضوعنا اليوم.. موضوع الغدير وما يتفرّع عنه؟..

أعتقد أن المحور هنا يتكون من حقيقتين اثنتين: أولاهما حب آل بيت رسول الله ﷺ، ثانيهما الاقتداء بآل بيت رسول الله الذين يجب أن نحبهم.

أما الحب، فأنا أتلمس مكانه في نفسي ونفس كل إنسان صادق في إسلامه، فلا أجد في هذا أي فرق بين مسلم

ومسلم.. منذا الذي لا يفيض قلبه حباً لعلي رضي الله عنه وكرم الله وجهه وعليه السلام؟!.. منذا الذي صدق في إسلامه ثم لم يفض قلبه حباً لآل بيت رسول الله ﷺ؟!.

وإنني لأعتقد أن الإمام الشافعي إنما كان يعبِّر عن مشاعر كل المسلمين عندما قال:

إن كان رفضاً حب آل محمدٍ فليشهد الثقلان أني رافضي

بل إنني لأعتقد أن كل ذي شعور صادق في محبة الله ورسوله ﷺ لا بدّ أن يردد مع البوصيري أبياته هذه:

آل بيت النبي طبتم فطاب المدح لي فيكم وطاب الرثاء
أنا حسان مدحكم فإذا نحـ ـت عليكم فإنني الخنساء
سدتم الناس بالتقى وسواكم سوّدَته البيضاء والصفراء
فابكهم ما استطعت إن قليلاً في عظيم المصاب البكاء
غير أني فوضت أمري إلى اللّـ ـه وتفويضي الأمور براء

وعندما شرفني الله لأول مرة بالحج إلى بيته الحرام، ثم بزيارة مثوى رسول الله ﷺ، دخلت البقيع، ووجدتني مندمجاً مع إخوة جاؤوا من إيران يزورون قبور آل البيت.. وقفت معهم، واندمجت في جموعهم، وأصغيت إلى أبيات فارسية من الرثاء لهم - وأنا أفهم شيئاً من الفارسية - تأثرت كما تأثروا، وبكيت كما بكوا، واندمجت معهم في شعور هو معين من معين الإسلام، وغصن من جذع دين الله عز وجل.

هذه الحقيقة القائمة الكبرى، أتلمس مكاناً فيها لمذهب دون مذهب، أو لخلاف بين فئة وفئة من المسلمين، فلا أجد.

الحقيقة الثانية في هذا المحور، هي الاقتداء بآل بيت رسول الله ﷺ.

ونحن نعلم أن من أبرز وأهم وأبسط ثمرات الحب الاقتداء بالمحبوب؛ إن المحب لمن يحب مطيع.. إنني أنظر إلى هذه الحقيقة الثابتة؛ وأحاسب نفسي، وأحاسب كل مسلم، بقطع النظر عن مذهبه ونوع انتمائه، فلا أجد مسلماً صادقاً مع الله إلا وهو مقتد في سلوكه ومشاعره بآل بيت رسول الله ﷺ.

ووالله الذي لا إله إلا هو، لو أن علياً كرم الله وجهه اتخذ يوم السقيفة موقفاً مستقلاً، أو اتخذ يوم استخلاف أبي بكر لعمر موقفاً مستقلاً، أو يوم الشورى التي بويع على أعقابها لعثمان موقفاً مستقلاً، إذن لتركنا كل نهج واتبعنا نهج علي!..

ولكنا نظرنا فوجدنا هذا الإمام الجليل اندمج في فكره وسلوكه مع الكلمة الجامعة.. مع النهج الإسلامي العام.. فكان لا بد أن يقودنا الحب إلى الاقتداء به وإلى سلوك النهج الذي سلكه.

وأنا لا أذهب في تحليلي لهذا الموقف إلى أكثر من هذا الكلام. حسبي أن أجد علياً رضي الله عنه سار في هذا المنحى لأتبعه.. أنا مسلم، ولا داعي إلى أن أحلل وأن أتساءل.. ليست لي مصلحة في أن أضعف حديث الغدير، وليست لي أي مصلحة في أن أؤول، أو أن أبتعد في الكلام عن ظاهره.. يغنيني عن ذلك كله أن أجعل من سيدنا علي رائدي في تفسير الحديث، بل في تفسير هذا الأمر كله.

وآية هذا الذي أقول.. آية هذا الاقتداء الذي أشعر بضرورته.. وأشعر أن إيماني ينقص وربما يتزلزل ويضطرب، إن لم يتحقق هذا الاقتداء بآل بيت رسول الله، آية ذلك: أن علياً رضي الله عندما اتخذ موقفاً صريحاً من معاوية أيام الفتنة، بعد مقتل عثمان، وكتب إليه الرسائل.. وأعلن أنه - أي معاوية - منحرف عن الخط، خارج عن النهج، اتجه جمهور المسلمين إلى ما اتجه إليه علي.. ولعلكم جميعاً تعلمون أن جمهور الفقهاء يقررون أن علياً هو صاحب الولاية والخلافة بعد عثمان، وأن صف معاوية يشكل البغي.. قرأنا هذا في كتب الشريعة الإسلامية؛ هذا هو رأي الإمام الشافعي، وهو رأي الإمام أبي حنيفة.. وهذا هو رأي الجمهور(١).

وهكذا فإن سواد المسلمين كانوا يسيرون وراء آل البيت أنى ساروا، ويتجهون في حلّ هذه المشكلة إلى الوجهة التي سلكها وارتضاها رائدهم في ذلك، سيدنا علي كرم الله وجهه، ومن بعده بقية آل بيت رسول الله ﷺ.

* * *

أين يكمن الخلاف إذن أيها الإخوة؟

يكمن الخلاف فيما شجر بين المسلمين من بعد.. هذا ما أتصوره.

---

(١)البغي هو الخروج على إمام المسلمين أو التمرد على شرعية حكمه، بموجب تأويل اجتهادي من الباغي، وعلى الرغم من أن إمام المسلمين يملك صدّه ومقاتلته اعتماداً منه على اجتهاده المقابل، فإن الباغي لا يكفَّر ولا يفسَّق لمجرد بغيه.

يكمن الخلاف في سلسلة الخلافة التي رأى الإخوة الشيعة أنها ينبغي أن تكون محصورة في سلالة علي رضي الله عنه، إلى عهد الإمام الثاني عشر الذي اختفى كما يقرر الإخوة الشيعة.

تلك هي منطقة الخلاف وحدودها في هذه المسألة.

وأنا أقول: إنها مسألة اجتهادية.. مسألة اجتهادية مجردة. جمهور المسلمين يرون أن حديث الغدير وما يتفرع عنه وما قد يوحي به، إنما يتعلق ذلك كله بشخص علي رضي الله عنه دون غيره[1]... وإنما على المسلمين أن يجتهدوا ويتفقوا بعد ذلك على اختيار من يشاؤون.

أما إخواننا الشيعة فيرون أن حديث الغدير يشير إلى إمامة عليّ أولاً، ثم تمتد الإشارة منه إلى آل بيته حتى غياب الإمام الثاني عشر ثانياً..

هذه المرحلة، أياً كانت أهمية الخلاف فيها، تجاوزناها.. طويت.. غدت تاريخاً مضى.. واليوم نحن نسير في الفترة التي يغيب فيها الإمام المنتظر في اعتقاد الإخوة الشيعة، أقول لكم بحق.. أقول عن نفسي وعن كل مسلم: عندما يحين ظهور هذا الإمام الغائب، وعندما يظهر فعلاً، لن يكون هناك أي لبس

(١) على أن علياً رضي الله عنه لم يفسر حديث الغدير كما فسره الإخوة الشيعة، أي لم يفسر كلمة «.. فإن علياً مولاه» بالخلافة السياسية من بعده، إذ لو كان هذا هو تفسيرها في اجتهاده، لأعلن ذلك يوم السقيفة ودعا إلى هذا الحق لنفسه محتجاً بهذا الحديث، ولاتخذ الموقف ذاته الذي اتخذه من معاوية بعد مقتل عثمان.

على ظهوره، ولن يكون هناك أي ضباب أو اضطراب يغشّي على شخصيته، وعندما يحين ذلك الميعاد فلسوف تجدون أن المسلمين جميعاً قد غدوا مذهباً واحداً وأنهم جميعاً يقدِّمون الولاء لهذا الإمام ويتقدمون بالبيعة له!..

هذا بالنسبة إلى المستقبل المنظور.. وذلك بالنسبة إلى الماضي منذ وفاة رسول الله إلى أواخر الخلافة الراشدة، لا يوجد هنا أو هناك أي خلاف قط.

رقعة الخلاف تتمثل فيما بين ذلك.. أما ما عداها فلا أجد موضوعاً لأي خلاف.

لا أجد مادّة أستطيع أن أضع يدي عليها لأعثر فيها على ينبوع خلاف أو سبب فرقة قط. وأعتقد أن هذا المعنى ماثل أمام الأبصار والبصائر جميعاً، ومن ثم فهو يكفينا مؤونة الخوض في تفاسير قد تتفرع عنها اجتهادات خلافية شتى، هذا الحل يكفينا مؤونة تأويل لسنا بصدده ولسنا بحاجة إليه قط. ثم إن هذا واقع.. واقع نلمسه ونعيشه.

إذن.. أين بقي الإشكال الخفي؟

اسمحوا لي، أيها الإخوة، أن أقول بصراحة، وأن أستظل بصراحة الكلمات التي أصغينا إليها بالأمس: إن الذين كان ولا يزال يفرق بين المسلمين إنما هو العصبيات والأهواء!.. عندما ينسى الإنسان أن المذهب خادم للمبدأ، يضحي بالمبدأ في سبيل المذهب. وتلك هي ثمرة العصبية الخطيرة في حياة

المسلمين، بل في حياة الجماعات الإسلامية كافة. ولو أن الناس، أو لو أن المسلمين بالأحرى، تنبَّهوا إلى أن المذهب لا يبرر وجوده إلا أن يكون خادماً للمبدأ المتفق عليه، لحركوا المذهب كما يقتضي المبدأ، ولسيروا الفروع كما تقتضي الجذور.. ولتحررنا عندئذ من عصبياتنا، ولتحررنا من أهوائنا.

وأنا أقول هذا الكلام انطلاقاً من النظر إلى نفسي.. انطلاقاً مما أثبتناه في بعض الأحيان من آراء واجتهادات. إنني عندما أنسى في كثير من الأحيان أنني مشدود إلى مبدأ وأنني مكلف برعاية هذا المبدأ - والإنسان بشر - أجد حافزاً خفياً بين جوانحي وقوياً يدفعني إلى أن أنتصر للفكرة التي ناديت بها، وأشعر أنها قد غدت جزءاً من شخصيتي وكياني، بل أشعر أنني من منطلق الدفاع عن شخصيتي أدافع عن هذه الفكرة. ولكني أعود فأذكر المبدأ الذي شدّني الله إليه.

وأنا لا أزال أذكر - أيها الإخوة - كلمة أثَّرت في نفسي تأثيراً عميقاً، سمعتها من سماحة الأستاذ الشيخ محمد مهدي شمس الدين في أحد المؤتمرات التي عقدت في الجزائر، عندما قال: مهما كانت اجتهاداتنا وآراؤنا، فيجب ألَّا ننسى أن علينا أن نتمسك بحجة سنمضي بها إلى الدَّيَّان يوم القيامة وسيسألنا الله عنها، وقد كررها البارحة.. ألا فلنعلم أنها العمود الفقري في حلّ كل مشكلة ومعضلة.. نحن سائرون إلى نهاية. ونهايتنا وقفة بين يدي الله سبحانه وتعالى. وأمام ذلك المصير ستذوب عصبياتنا، وتنمحي انتماءاتنا.. ولسوف ننسى ما كنا

ندافع عنه، ربما، من أهواء ورغبات وشهوات، ونجدنا أمام الحقيقة العارية التي نُدبْنا في هذه الحياة إلى الدفاع عنها والتمسك بها. فماذا نحن قائلون؟ وبأي منطق ندافع آنذاك عن مواقفنا اليوم؟

إنني أحب لنفسي، كلما تبنّيت رأياً، أن أضع نفسي من هذا الرأي أمام مقياس.. ومقياسي هو ذلك المصير.. ترى هل أستطيع أن أدافع عن رأيي هذا أمام الله؟.. هل أستطيع أن أمسك بحجة يقبلها الله مني، سواء كانت هذه الحجة تعتمد على أجرين من اجتهاد مصيب أو على أجر واحد من اجتهاد مخطئ؟..

أنا ما قرأت مرة شيئاً من ترجمة الإمام علي إلا وثار بين جوانحي شجو لا نهاية له.. وأنا أعجب عندما أسمع من بعض الإخوة كلمات توحي بشكل مقصود أو غير مقصود أن هذا الحب لا يعرفه ولم يذقه إلا بعض من المسلمين؛ أسعدهم الله دون غيرهم بهذه النشوة!..

والله إننا جميعاً نتحلق حول هذا المعين.. ووالله إننا جميعاً لننهل من هذه الكأس. ولكن هذا الحب يدعونا إلى الاقتداء!..

أنا عندما أنظر إلى علي رضي الله عنه، وقد اتخذه كل من الخلفاء الثلاثة من قبله، مستشاراً بل أميراً له ربما، أميراً غير متوج، عندما أجد أن أبا بكر وقد خرج إلى ذي القصة لقتال المرتدين، وجاءه علي رضي الله عنه فأمسك بزمام فرسه قائلاً

(وارجعوا للوقوف على هذا النص إلى أي مرجع تاريخي تريدون): «أقول لك يا خليفة رسول الله ما قال رسول الله يوم أحد: لمَّ سيفك وأمتعنا بنفسك. فوالله لئن نكب المسلمون بك لن تقوم لهم قائمة من بعدك»!.. فعاد أبو بكر وكلّف باللواء غيره.

وعندما أنظر إليه، إلى أبي بكر أيضاً، وقد استشاره في غزو بلاد الروم؛ فقال له: أرى أنك مبارك الأمر مفوّق منصور إن شاء الله، فسرّ لذلك أبو بكر واتبع رأيه. وجهز الجيوش وعقد الألوية ووجه الأمراء لغزو بلاد الروم.

ثم أنظر إلى عمر إبان خلافته، وقد استشار هو الآخر عليّاً رضي الله عنه، في أن يخرج بنفسه إلى بلاد الفرس، فيقول له علي رضي الله عنه: كن القطب الثابت وأدر رحى العرب من دونك، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك. وإنَّ أول مرجع لنا في هذه المشورة الأخوية الرائعة كتاب نهج البلاغة.

وعندما أجد نصائحه لعثمان وقد أحدق به أولئك الأشرار، ويستحيل أن تصدر إلا عن قلب مخلص محب، وعندما أجده وقد أرسل ريحانتيه: الحسن والحسين ليحرسا عثمان ضد أي خطر قد يتسرب إليه.. عندما أجد هذه المواقف كلها لعلي، كيف أستطيع أن أعبر عن حبي له؟ إنني لا أستطيع أن أعبر عن حبي هذا إلا باتباع خطواته.. إلا بالسير على النهج الذي سار

عليه.. ووالله - أقولها ثانية - لو أن الإمام علياً كرم الله وجهه، اتخذ موقفاً مستقلاً في عهد من العهود، لتركنا كل خط دون خطه.

وبعد، فإذا كانت وحدة الأمة هي الأساس الأقدس، بل هي الهدف الأسمى الذي تدور عليه أحكام الإسلام العلمية والعملية جميعاً، فإن قداسة هذا المبدأ تتجلى في هذا العصر أكثر من أي عصر آخر مضى.

وإن أهمية الوصول إلى هذا الهدف الأقدس تدعونا إلى أن نجند كل الطاقات، وأن نضحي بكل آرائنا الاجتهادية، في سبيل الحفاظ على هذه الوحدة أو استعادتها.

من أين، وكيف أشعر بهذا المعنى؟

أشعر بهذا المعنى عندما أجد أن أعداءنا لا يرهبون فينا قوة مادية، ولا كنوزاً من مدخرات الأرض وخيراتها، ولا يرهبون فينا فكراً اجتهادياً ولا ماضياً حضارياً أفل نجمه. ولكنهم يخافون من شيء واحد!. يخافون أن تلتقي هذه الأمة على نهج واحد كما التقت بالأمس!..

يزداد شعوري بقداسة هذه الغاية وضرورة الجهاد في سبيلها، وأهمية التضحية بكل شيء من أجلها، عندما أصغي إلى الهمس.. بل إلى الكلمات الصارخة التي لم تعد همساً.. الكلمات الصارخة التي تصك آذاننا من أعداء الإسلام صباح مساء؛ إن العدو الأوحد للغرب والشرق غدا الإسلام.

ولعلكم جميعاً سمعتم الكلمة التي بثتها إذاعة لندن باللغة العربية يوم الثالث من شباط من هذا العام في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة بتوقيت دمشق، على لسان الصحافة البريطانية نقلاً عن تاتشر، وهي قولها:

«لقد كان أمام الغرب عدوان اثنان: أحدهما الشيوعية والثاني الإسلام. وقد انهار صرح الشيوعية دون أن يقدم الغرب خسائر تذكر. واليوم يجتمع الشرق الكاثوليكي والأرثوذكسي مع الغرب في خندق واحد لمجابهة العدو الباقي وهو الإسلام».

هكذا يقولون.. فماذا نحن فاعلون؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم، وأشكركم. والسلام عليكم ورحمة الله.

العقيدة التي كانت أساس توحيد بالأمس

كيفَ تُصبحُ أدَاةَ تَفريقِ اليَوم؟

لا يشك باحث في أن العقيدة الإسلامية التي بعث بها أخيراً محمد ﷺ، هي التي جمعت أشتات القبائل العربية المتناحرة، وألّفت منهم أمة واحدة تسير على صراط واحد. وأنها هي التي ضمت إليهم من بعدُ أمماً وجماعات أخرى ذات أفكار واتجاهات شتى، فتلاحموا جميعاً على مبدأ واحد، ثم ساروا على خطة رشد واحدة.

والحديث عن أدلة ذلك مكرر ومعاد، ولا أحسب أن في المثقفين من يحتاج اليوم إلى تبصير جديد بهذه الحقيقة أو إلى توثيق لها.

هزتان.. في عصرين متباعدين:

غير أن هذا البنيان المتماسك الذي شاده الإسلام للبشرية بفضل عقيدته، سرت فيه - على صعيد العلاقات الاجتماعية - هزة، أو قل: نوع من التصدع، مرتين اثنتين:

المرة الأولى منهما كانت إبان العصور الثلاثة المباركة

الأولى من عهد الإسلام؛ وهي التي تسمى بعصر السلف.. وقد كان سبب ذلك تسلّل الفلسفة الإغريقية خفية من النوافذ والشقوق بدلاً من أن تدخل جهرة من الأبواب الرسمية، تحت سلطان الرقابة والنقد.

لقد فوجئ كثير من المسلمين آنذاك بهذه الفلسفة، إثر اتساع الفتوحات الإسلامية. فعشيت لمرآها أعينهم، وأخذت ببهرجها وضخامة اصطلاحاتها عقولهم وألبابهم!.. فأقبلوا إليها بإعجاب وحملوا أنفسهم على تقبلها بروح من الثقة والاستسلام!.. وربما كان من وراء ذلك عامل أساسي لا ينكر، هو بقايا من شعور بالنقص عند كثير من الناس.. إذ كانوا يرون أنهم حديثو عهد بالدخول في ميادين المعرفة والإقبال على العلوم والفنون، على حين أن الحضارة اليونانية ذات سبق إليها وقدم راسخة فيها.. فاستكانوا لمنهجها ووثقوا بأصولها ومقاييسها، فأورثهم ذلك تغليباً لسلطان العقل على ضوابط النقل.. وتلك هي نقطة الضعف التي ظلت تعاني منها الفلسفة أحقاباً طويلة. واقتضتهم نقطة الضعف هذه التهوين من أمر النصوص أو كثير منها، فلم يبالوا بتأويلها وصرفها عن معانيها الحقيقية ولو بقدر كبير من التمحل والخروج الصريح على قواعد اللغة العربية وأصولها، وذلك كي تسلم لهم تصوراتهم العقلية التي تسللت إليهم من خلال معاناتهم المبهورة، بل المستكينة مع الفلسفة الإغريقية وأصولها.

وقد علمنا أن المعتزلة هم أول من ذهب ضحية هذا الانبهار، من الفئات والفرق الإسلامية، على أن المعتزلة

أنفسهم انقسموا على أنفسهم تحت تأثير من الاضطراب الذي كان لا بدَّ أن يواجه أفكارهم، من جراء وقع التناقض الذي فوجئوا به والمغامرات الفكرية التي حملوا عقولهم عليها.. فلقد تشعبوا إلى أكثر من عشرين فرقة، كل واحدة منها تكفر الأخرى[1].. على أن رشاش هذه المغامرة قد أصاب فئات كثيرة أخرى، زجت بهم في متاهات اعتقادية، وأثارت في أوساطهم لوناً حاداً من الجدل والاختلاف.

وهذا العصر هو الذي شهد ما يسمى بنشأة الفرق، التي ظهرت على سطح العقيدة الإسلامية الراسخة الواحدة، كما تظهر الثآليل المنتشرة على جسم الإنسان السوي.

فتلك هي المرة الأولى.. ولكن ما النتيجة التي آل إليها ذلك التصدع أو تلك الهزة؟ النتيجة أن الله تعالى سلّم ووقى. وقد كان مردّ ذلك إلى سببين اثنين:

السبب الأول: ظهور إمامين جليلين في غمرة الصراع الفكري المحتدم بين الفرق، هما أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠-٣٢٠)، والإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (٠٠-٢٦٨) فقد جمعهما - على اختلاف ديارهما - مقاومة الفكر الفلسفي الذي تسلل إلى المجتمع الإسلامي عن طريق المعتزلة وذيولها وفروعها الكثيرة.

فقد قيض الله من كل منهما مدافعاً عن الحق الذي اجتمع

(١)انظر: الفَرق بين الفِرق، البغدادي، ص١١٤.

عليه سواد الأمة، فكشف عن زيف الانحرافات التي انجرف إليها المعتزلة، وأوضح مدى ضلالهم في الابتعاد عن ضوابط النصوص الثابتة واعتماد الأغلوطات الفلسفية بديلاً عنها. وقد أعان الإمام الأشعري على ذلك علاقته السابقة بالمعتزلة وصلته بالفلسفة اليونانية واطلاعه الواسع عليها.

ومن هنا نعلم أن أياً من هذين الإمامين لم يبتدع لنفسه مذهباً أو رأياً جديداً، وإنما لفت نظر كل منهما أن الحق الذي عليه سواد المسلمين من رجال التفسير والحديث والفقهاء وسائر العلماء المشتغلين بأصول الدين، قد حُجِبَ عن أنظار وأسماع عامة الناس، بضجيج المناقشات والمجادلات التي ثارت وشاعت في صفوف المبتدعة ورواد الفلسفة الإغريقية، حتى عادت العقيدة الإسلامية التي يلتقي عليها جمهور علماء المسلمين، في غمرة تلك الصراعات، أشبه ما تكون بالجادة العريضة التي تكاثرت فوقها الأتربة والحجارة والرمال، حتى كاد أن يضيع على الناس معالمها. فكان عمل كل من هذين الإمامين محصوراً في إزاحة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة، وتجليتها أمام الأبصار، وتنبيه الناس إلى اتباع ما عليه جمهور المسلمين وجماعتهم منذ عصر النبوة مدعوماً بنصوص القرآن والسنة، وذلك تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ باتباع الجماعة والتحذير من الشرود عن الجادة العريضة التي يسير عليها سواد المسلمين إلى السبل التائهة المتعرجة.

وتلك هي الحقيقة التي نبه إليها سائر الذين ترجموا لكل من

هذين الإمامين، من سلف هذه الأمة وعلمائها الموثوقين الأثبات، أذكر منهم في هذه العجالة الشيخ أبا القاسم القشيري والحافظ ابن عساكر، وابن السبكي، وابن خلكان، وابن العماد، وابن حجر العسقلاني.

فلما جاء عهد الاستشراق وظهرت ثلة من الأجانب والمستشرقين أبدوا الاهتمام بدراسة الفرق الإسلامية وتاريخها ونشأتها، سمعنا من يعدّ هذه الفرق واحدة واحدة، ويقحم فيها ما يسميه: الأشعرية والماتريدية. موهماً، بل مدعياً، أن كلاً منهما فرقة في قائمة الفرق التي ظهرت تتصارع وتتخاصم في ضحى التاريخ الإسلامي، كي يخيلوا إلى الأذهان أن العقيدة الإسلامية لا يمثلها إلا جملة فرق متخاصمة متناحرة!..

وصنعة الختل والافتراء في هذا التقوّل واضحة لا تخفى على أحد. والهدف المرسوم لذلك واضح وجلي أيضاً، ما أظن أنه يخفى على أحد(١).

إذن فهذا هو العامل الأول في انحسار أوهام تلك الفرق

(١)ليس عجيباً أن يتخذ المستشرقون، وفي مقدمتهم ماسنيون هذا الموقف من الختل والافتراء.. ولكن العجيب والمخزي أن ينحط في هذا الطريق الاستشراقي الماكر، ناس من أبناء جلدتنا، يتقنّعون بالانتماء إلى السلف أو السلفية، وهم ليسوا إلا معاول مشرعة لتحطيم صلة ما بين هذه الأمة وسلفها. إنهم لا يكتفون بالادعاء الاستشراقي الكاذب، بأن الإمام الأشعري رئيس فرقة إسلامية جديدة، بل يندفعون إلى ما وراء ذلك بسائق رعونة حاقدة تضطرم بها نفوسهم، هو تكفير الإمام الأشعري وسائر الأشاعرة، والإمعان في السعي إلى تفريق كلمة المسلمين ما أمكن.

وزوال ركامها من على صعيد العقيدة الإسلامية التي كانت تمثل الجادة العريضة التي يتلاقى عليها سواد المسلمين وغالبيتهم العظمى.

السبب الثاني: دخول الفلسفة الإغريقية بشكل نظامي إلى ساحة المكتبة الإسلامية عن طريق الترجمة والدراسة النقدية الحرة. وقد تم ذلك كما هو معروف في صدر الخلافة العباسية.

وقد يبدو غريباً أن يقال: إن أولئك الخلفاء قد أحسنوا صنعاً إذ فتحوا الأبواب أمام الفلسفة اليونانية وأذنوا لها بالدخول جهراً إلى رحاب الفكر الإسلامي، وأنهم حصنوا بذلك بنيان العقيدة الإسلامية، وأنهوا عهد الوساوس والشبه الفكرية التي تكونت من رواسبها فقاقيع الفرق والمذاهب الاعتقادية التي كانت قد تناثرت من قبل، على جنبات الصراط العريض الذي اختطته للناس حقائق القرآن والسنة بنصوصها الواضحة النيرة.

أجل، قد يبدو هذا القول غريباً، ولكنه الحقيقة الثابتة.

فإن عصر الانبهار كان قد تبدد، وأخذت الرؤية الفكرية تتناسق وتعود إلى شأنها الطبيعي. وهو الأمر الذي أتاح للعلماء أن يضعوا التراث اليوناني بجملته تحت مجهر الدراسة والنقد بثقة وهدوء، وبعيداً عن عوامل الانبهار ومؤثرات الشعور بالنقص.

ولقد كانت النتيجة أن تمرس هؤلاء العلماء بأصول الفلسفة اليونانية ومنطقها وكشفوا بهذه الأصول ذاتها زغل كثير من

فروعها ونظرياتها، وميزوا بالبراهين العلمية سرابها الوهمي عن شرابها الحقيقي. ثم عادوا فصهروا حقائقها هذه في بوتقة المنهج العلمي الذي كان العلماء المسلمون قد اكتشفوه للتوّ في طريق البحث عن الحقيقة. ولا نزال نذكر في مقدمة هؤلاء العظام كلاً من أبي بكر الباقلاني، والإمام الغزالي، وفخر الدين الرازي.

هذا مع العلم بأن الخطّ الآخر، ونعني به ما يمكن أن نسميه بالواقع الانبهاري المتأثر بالفلسفة اليونانية جملة وتفصيلاً كان لا يزال مستمراً، غير أنه بدأ يتخذ مظهر مدرسة فلسفية شاملة، بعد أن كان يبدو في مظهر الفرق والمذاهب الاعتقادية المتأثرة بالفلسفة اليونانية. كما أنه لم يستطع أن يشق طريقه إلا على هامش التيار الفكري العام الذي كان يمثل جذوة المنهج الإسلامي إلى المعرفة. ومن المعلوم أن كلاً من الفارابي وابن سينا وابن رشد يعدّون من أبرز رواد هذه المدرسة الإشراقية المحافظة، التي حاولت جهد الاستطاعة تحصين كثير من الأوهام والنظريات اليونانية داخل أغلفة من الأفكار الإسلامية.. وقد آل ميراث هذه المدرسة اليوم إلى أولئك الذين لا يزالون يجتازون في عالمنا الإسلامي مرحلة الانبهار بأضواء الحضارة الغربية. وقد علمنا جميعاً أن الحضارة الغربية (في مضمونها الفكري والفلسفي اليوم) ليست إلا الطبعة المنقحة الأمينة لتراث الفلسفة اليونانية.

وهكذا يتبين لنا جميعاً أن بضاعة الفكر والمعرفة - شأنها

كبضاعة المال تماماً - تفسد سبيل العلم وتشوش على موازين العقل، كلما دخلت تهريباً عن طريق النوافذ أو الأبواب الخلفية، ولا يقضي على هذا الفساد إلا أن تفتح الأبواب الطبيعية أمام تلك البضاعة لتدخل تحت أعين الناظرين والرقباء ثم لتستقر فوق منصة الدرس وتحت مجهر الفحص والنقد.. ولنا في عهدي دخول الفلسفة الإغريقية إلى رحاب العالم الإسلامي - وقد أشرنا إليهما في هذا الموجز - أكبر شاهد ودليل.

وهذه قصة الهزة الثانية:

تلك هي خلاصة لأحداث الهزة الأولى، وقد مرت بسلام.

أما هذه الثانية، فشيء مؤسف، يشهده عصرنا الذي نعيش فيه.

وسأوضح أولاً حجم هذه الهزة، وموضعها الذي تتحرَّك به، والأثر الذي تحدثه في بنيان الوحدة الإسلامية.

ثم أنبه إلى مصدر هذه الهزة والعوامل الكامنة وراءها.. ثم أبين العلاج الوحيد المتكفل بتسكينها وبإزالة الشقوق أو التصدعات التي لحقت بناء الوحدة الإسلامية من جرائها.

* أما حجم هذه الهزة فخطير!.. إنه يتمثل في أنواع من الشقاق يبعث أَبْطالَهُ في كثير من الأحيان على التكفير والتشريك!.. ويوشك إن طال الأمد على ذلك أن يتمزَّق صرح

العقيدة الإسلامية الذي ما يزال يجسِّد وحدة هذه الأمة وتضامنها، وأن يتحول إلى ما يشبه المتاريس المتقابلة، إذ يتقاسمها خصوم متهارجون!..

والمؤلم حقاً أن مباضع هذا الشقاق لا يقتصر استعمالها على السعي إلى تفتيت وحدة العقيدة الإسلامية في ظل أهلها اليوم، بل إنها لتوجِّه من خلال ألسنة طويلة، إلى ما وراء قرون وأجيال بعيدة، لتنشر تهم الشرك والضلال والابتداع في أئمة لم يعرف الثقات عنهم خلال القرون إلا الاستقامة على الرشد، ثم أنهم آلوا إلى ربهم، وحقَّ فينا وفيهم قول الله عزَّ وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٤].

وما هو أنكى من ذلك كله أن هذه الصورة المؤلمة، توضع عند تلك القنطرة الكبرى التي تفصل بين خطي الإيمان والكفر، حيث يدخل من تحت هذه القنطرة الآلاف في دين الله، متجهين إليه من ربوع أوربة وأمريكة وآسية، أملاً في أن يسبق كل فريق خصمه في الفوز بهم والانحياز بهم إلى معسكره وخندقه. وهكذا فإن أول ما يعرض على هؤلاء الوافدين إلى دين الله عزَّ وجلَّ - بكل اعتزاز وفخر - هو هذا المظهر الهائج من التخاصم والتهارج، ضمن نطاق العقيدة الإسلامية الواحدة. ولا شك أنه مظهر من الشقاق المصطنع يبرأ الإسلام في حقيقته وجوهره منه إلى الله عز وجل.

* وأما الموضوع الذي يتحرك به أبطال هذا الشقاق،

ويكونون منه رصيداً لخصوماتهم، فهو مراقبة ألسنة المسلمين وملاحقة تصوراتهم وأفكارهم في امتحان دقيق: أيفسرون الألفاظ المتشابهة في القرآن والحديث مما يتعلق بالصفات الإلهية على ظاهرها، فلا يبتغون لها تأويلاً ولا يصرفونها إلى مجاز؟ إذن فهم سلفيون صادقون في إسلامهم وعقيدتهم ناجحون في الامتحان الصعب في قضايا الدين وكل ما يتعلق به، أم إنهم يتأولون ليفسِّروا الوجه مثلاً بالذات، والنزول بالإقبال والفوقية بالسيطرة والقهر؟ إذن فهم مبتدعون ضالون عن سنن الهداية والرشد، متنكبون عن محجة السلف!.. وأبو الحسن الأشعري، ما موقفهم منه وما ظنهم به؟.. إن كانوا ممن يجزم بأنه مبتدع لا خير فيه، فهم مسلمون مقبولون؛ وأما إن كانوا ممن يحسنون الظن به، ويرون له فضلاً في لم شعث الأفكار المضطربة وإعادتها - إبان هياج الفرق المبتدعة - إلى حظيرة الحق ومؤيدات الكتاب والسنة، فهو ضال تائه عن الحق يجب أن يستتاب عن غيه وضلاله!.. والتصوف ورجاله، على كل من يشعر أن قلبه ينتعش باتباع سيرة هؤلاء الرجال، في ذكر الله وتربية النفس وتزكيتها، وإيقاد شعلة العواطف الربانية في فؤاده، أن يعلم أنه منغمس في أوحال الابتداع متطوح في أودية الزيغ والضلال!..

والمذاهب الفقهية وأئمتها.. على الناس جميعاً أن يعتقدوا أنها من البدع المقحمة في الدين، وأن يتحللوا من ربقة الاتباع لها ولأئمتها، وأن يستغنوا عن ذلك باستخراج الأحكام من

نصوصها وأخذ الشريعة من ينابيعها، مهما قلت بضاعتهم في المعارف والقدرات!.. فمن تراجع عن هذا الطموح إلى التبعية والتقليد وسؤال أهل الذكر، فقد ابتدع وحاد، وكان ممن اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله!..

أجل.. هذا هو الموضوع الذي يتحرك به أبطال هذا الشقاق.. فلا تكاد تجد لهم شغلاً بغيره، أو شعوراً بأي من الهموم المشتركة التي يعاني من ويلاتها المسلمون، أو أي التفات إلى الأوهام والوساوس الإلحادية التي يتسلل بها محترفو الغزو الفكري، إلى عقول الناشئة باسم العلم أو الفلسفة أو الفكر التقدمي!..

ولا يخفى على واحد ممن يرى واقع المسلمين وأحوالهم اليوم في مختلف البقاع والبلاد ما يفرزه انصراف هؤلاء الناس إلى استثارة الشقاق والخصومات حول هذه المسائل من عصبية في النفوس وأحقاد في القلوب، كما لا يخفى على أحد أن اتخاذ هذه المسائل أساساً جوهرياً في أمر العقيدة، مع الإصرار على ضرورة النظر إليها من وجهة نظر فئة بعينها، يحيل بنيان العقيدة الإسلامية إلى أداة تفريق وتمزيق، بعد أن كانت مثابة تأليف وتوحيد!..

* أما الحديث عن مصدر هذه الهزة أو الاضطراب، فلعله أهم نقاط هذا البحث وعناصره. ولذا فقد يكون من الخير تفصيل القول في أسباب هذه الهزة التي تسري اليوم في أوصال المجتمع الإسلامي، وتتجه به إلى كارثة التصدع والشقاق!..

إن مصدر هذه الهزة يتلخص في أن هناك سوء فهم في معرفة الطريق وسلوكه إلى هدف لا نشك في أنه الحق الذي لا بديل عنه. ولنتبع هذا الملخص بشيء من التحليل.

شعار سليم وسوء فهم في الطريق:

إن اتباع السلف رضوان الله عليهم، في فهم حقائق الإسلام وتطبيق مبادئه والاقتداء بهم في أمور العقيدة والسلوك، مطلب أساسي حق، لا مجال لتجاهله أو الاختلاف فيه؛ كيف وقد جعل رسول الله ﷺ من واقع سلف هذه الأمة النموذج الأسمى للاهتداء الفكري والسلوكي، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

ولكن كيف يكون الاتباع والاقتداء؟.. هنا تنكب كثير من الناس عن سلوك السبيل العلمي الصحيح إلى ذلك، فوقعوا فيما ظنوه اتِّباعاً، وهو في حقيقته شرود وابتداع. ثم ذهبوا يوجهون الناس إلى ظنونهم ويحملونهم عليها، وكان لا بدّ أن يقع من جراء ذلك جدل لا موجب له، وخصام كانت الأمة في غنى عنه.

فقد فهم هؤلاء الناس من معنى الاتباع المطلوب التزام حرفية الأقوال والأفعال والعادات التي عرف بها السلف دون أي زيادة عليها أو نقصان منها.

ومكان الخطأ في هذا الفهم الذي يبدو صواباً لأول وهلة، أن السلف أنفسهم لم يكونوا ينظرون إلى ما يصدر عنهم من أقوال وأعمال وتصرفات، هذه النظرة القدسية الجامدة التي تقتضيهم أن يسمروها معهم بمسامير البقاء والخلود.. بل إنهم تطوروا من عرف إلى عرف ومن اجتهاد إلى اجتهاد آخر في مسألة واحدة، في عصرهم القصير أكثر مما تطوره الخلف في عصورهم الطويلة!.. ونظرة إلى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ في المدينة من عادات اجتماعية وثقافية وعمرانية، وطريقة في مجابهة ما تشابه وتعقد من مسائل الاعتقاد وفهم النصوص، ونظرة إلى المعارف والعادات التي كانت سائدة في عصرهم؛ ثم إلى ما انتهى إليه السلف في القرن الثالث من ذلك كله، تؤكد لنا هذه الحقيقة وتبرزها بأتم وجه.

ولا ريب أن السلف في سعيهم الحثيث إلى هذا التطور، قد اختلفوا فيما بينهم حيناً من الدهر، إذ تشابهت أمامهم الأدلة والمقتضيات، حتى نشأت من جراء ذلك الفرق المتخالفة والمتخاصمة، وبرزت مدرستا الرأي والحديث؛ والكل يمثل عصر السلف، بل لباب عصر السلف، والكل تشملهم - في الظاهر - الخيرية التي وصفهم رسول الله ﷺ بها.

فكيف يمكن والحالة هذه، تحقيق الاتباع الحرفي لهؤلاء الرجال والجمود على ذلك ثم الاتفاق عليه، مع أن هؤلاء الرجال لم يجمدوا هذا الجمود ولا اتفقوا هذا الاتفاق؟..

وليس لأحد منا أن يزعم بأن الإشكال يمكن حلّه بقوله: نتبع فريقاً نختاره منهم، ونأخذ من الأطوار المتبدلة أقربها إلى عصر النبوة.. إذ إن الفرق المتخالفة كلها تستظل بعصر السلف، وكل يدعي أنه المتمسك بأهداف الكتاب والسنة، ويسوق بين يدي ذلك أدلة على ما يرى.. كما أن الأطوار المتناسخة إنما جدّ كل منها في عصر السلف الذي أمرنا رسول الله ﷺ باتباعه دون تفريق بين عهد وآخر أو فئة وأخرى.

لا جرم أن هذا الفهم الحرفي الخاطئ لاتباع السلف، أوقع أصحابه في اضطراب لا مفرّ منه ولا حلّ له؛ فما من قرار يتخذه أصحاب هذا الفهم اتباعاً للسلف على - حدّ فهمهم هذا - إلا وهو مخالف في الوقت ذاته لما عليه السلف!.. لقد قرروا - مثلاً - حرمة الاشتغال بعلم الكلام وإثارة ما أعرض عنه الصحابة من فضول بحوث العقيدة أو التعمق فيها، ولكنهم لم يلاحظوا أنهم بقرارهم هذا خالفوا كثيراً من السلف أنفسهم في هذه المسألة ذاتها، من أبرزهم علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس والمحاسبي وأبو ثور.. ولقد قرروا حرمة تأويل المتشابه من آيات الصفات، وأوجبوا تفسيرها على ظاهرها دون تكييفٍ ولا تشبيه.. ولكنهم لم يلاحظوا أنهم بقرارهم هذا نسبوا كثيراً من السلف إلى ارتكاب المحرم، فإن الذين أوّلوا كثيراً من هذه الألفاظ، من السلف، كثيرون.. فقد أول الإمام أحمد (جاء) في قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ٢٢]. بمعنى: وجاء أمر

ربك[١]، وقد أوَّل البخاري الضحك بالرحمة في قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «لقد ضحك الله الليلة من فعالكما»[٢]، وقد أوَّل حماد بن زيد كلمة «النزول» في أحاديث النزول الكثيرة، بإقباله جل جلاله على عباده[٣]، وقد أوَّل الإمام الشافعي (وجه الله) في قوله عزَّ وجل: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٥]، بقوله: أي فثمَّ الوجه الذي وجهكم الله إليه[٤]، وقد أوَّل جعفر الصادق رضي الله عنه الوجه في قوله عزَّ وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٨]، بالدين[٥]. ونظير هذا كثير، مع العلم بأن الكل اتَّفقوا على تنزيه الله عن الكيف والتشبيه.

إن من الوضوح بمكان أن الفهم الحرفي لاتباع السلف والجمود على حالة واحدة، بزعم أنها طريقة السلف، لا بدّ أن يزج أصحاب هذا الفهم في مخالفة كثير من السلف أنفسهم كما يتجلى في الأمثلة التي ذكرناها، وهي قليل من كثير.

هذا فضلاً عن أنه يحمل أصحاب هذا الفهم على نسبة كل من خالفهم إلى المروق والابتداع والخروج عن دائرة الجماعة الإسلامية الناجية.

---

(١) الأسماء والصفات: البيهقي، ص٢٩٢.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٨٢. والأسماء والصفات: البيهقي، ص٤٧٠.

(٣) الأسماء والصفات: ص٤٥٦.

(٤) الأسماء والصفات: ص٣٠٩.

(٥) مجموعة فتاوى ابن تيمية: ٢/ ٤٢٨.

تلك هي الطريقة الجانحة إذن، إلى هدف نبيل لا يشك مسلم في ضرورة السعي إليه.

الطريقة العلمية السليمة في اتباع السلف:

والآن.. ما هي الطريقة السليمة التي كان يجب اتباعها، والتي توصل إلى الهدف المطلوب دون افتئات على السلف من خلال محاولة اتباع السلف، ودون تمزيق لوحدة المسلمين أو حمل غالبيتهم على الخروج عن دائرة الحق والوقوع في الباطل؟

إن الطريقة السليمة هي اتباع السلف أنفسهم فيما أقدموا عليه، عندما شعروا بمشكلة التطور الذي فرض نفسه عليهم من جراء عوامل كثيرة تتلخص في اتساع الفتوحات الإسلامية التي أعقبت توسعاً في دائرة المعارف والعلوم والحضارة الإِسلامية.. فقد فوجئوا بالظروف التي دعتهم إلى التوسع والتطور في نظام العمران والملبس والمطعم والأثاث والصناعة والتجارة والمعارف والعلوم.. ولكن إلى أيِّ حدٍّ يقبلون إليها وعند أيِّ نهاية ينكمشون عنها؟.. وما هو الميزان الديني الذي ينبغي اللجوء إليه في معرفة ذلك، ضمن ما قد التزموه من مقتضيات القواعد والنصوص؟

لا ريب أن السلف رضوان الله عليهم مروا من معالجة هذه المشكلة بمنعطف قصير من الخلافات والاضطراب، وما قصة التشنيع على مدرسة القياس والرأي، والتشنيع بالمقابل على

مدرسة الالتزام بحرفية النص، إلا نموذجاً لما قد جرى في هذا المنعطف.

ولكنهم سرعان ما تجاوزوا هذه المرحلة بنجاح منقطع النظير. وذلك عندما استخرجوا المنهج العلمي الذي اتبعه رسول الله ﷺ وأصحابه من خلال سليقتهم العربية السليمة التي أغنتهم آنذاك عن التدوين ورسم الضوابط والحدود.. وهذا المنهج - بعد الاستيثاق من صحة الخبر أو النص وروداً - يتلخص فيما يلي:

١- قواعد الدلالات العربية التي تفرق بين اللفظ الذي يجب أن يفسر بمعناه الحقيقي والذي يمكن أن يؤول بالمعنى المجازي، والتي تفرق بين اللفظ المشترك وغيره، والتي ترسم أصول دلالة الكلمة عن طريق منطوقها وعن طريق مفهومها وعن طريق دلالة الالتزام والاقتضاء.. الخ.

٢- قواعد البيان التي تتضمن التعريف بكل من العام والخاص والمطلق والمقيد والمجمل والظاهر والمؤول، وضوابط القياس الداخل في معنى النص، ودوره في البيان ورفع الإجمال والغموض.. إلخ.

ولما اجتمعت كلمة علماء السلف على هذا المنهج الذي تم استخراجه وتدوينه لأول مرة اتجهوا جميعاً إلى تحكيمه في مشكلاتهم وخلافاتهم الطارئة، فبرز من خلال هذا التحكيم الاتفاق على أحكام جلّ المسائل والمعضلات التي كانوا قد

اختلفوا بشأنها، ولم يشذ عنهم فيها إلا شوارد الفرق التي شذت بشهادة رسول الله ﷺ عن جماعة المسلمين وسوادهم الأعظم.

ولكن بقيت أيضاً بين أيديهم طائفة من المسائل لم يتبين لهم جميعاً وجه واحد من الحق فيها.

وسبب ذلك أن المرجع المحكم بشأنها من قواعد المنهج المذكور، لم يكن بحدّ ذاته محل اتفاق بينهم، أو كان محل اتفاق، ولكن الخلاف كان يثور بينهم في مجال التطبيق؛ أي في حدود ما يسمونه بتحقيق المناط.

ونظراً لذلك، فقد كانوا جميعاً ينظرون إلى اختلافاتهم في هذه المسائل على أنها جهود اجتهادية مبرورة أياً كانت نتائجها وثمراتها، ومهما اختلفوا بشأنها، لأن ذلك كله إنما يتم تحت مظلة المنهج المتفق على تحكيمه وضمن حدود مقتضياته.

وهكذا فإن السلف - رضوان الله عليهم - على الرغم من اتفاقهم على أن كل بدعة ضلالة قد اختلفوا في تحديد المعنى المراد بها. حتى في نطاق ما اتفقوا عليه من ذلك، فإنهم ربما اختلفوا في مرحلة التطبيق على الجزئيات.. وذلك كالبحث في تفاصيل القضاء والقدر والجبر والاختيار، واستخدام المصطلحات الفلسفية وقواعد المنطق في البحث ومناقشة المبتدعة في بدعهم، فقد اختلف السلف في كل ذلك: أيعدّ الخوض فيه أو في شيء منه من البدعة أم لا؟.. وكالتفريق في

مسألة خلق القرآن بين ما يراد منه من الكلام النفسي والألفاظ المنطوق بها.. وكاستحداث عادات لم تكن على عهد رسول الله ﷺ في المطعم أو المشرب أو الملبس أو المسكن.. فقد وقع خلاف بين السلف رضوان الله عليهم في ذلك كله.. ولكنّ أياً منهم لم يكن ليتخذ من آرائه الشخصية مظهراً وحيداً للحق الذي يجب اتباعه، ومن ثم لم يجعل من اجتهاداته التي جنح إليها إطاراً لجماعة إسلامية يدعو إليها، ويتّهم الآخرين بالمروق والضلال؛ بل كانوا جميعاً يرون أنها اجتهادات معقولة وخلافات مبرورة، ما دامت داخلة في دائرة المنهج المتَّبع في معرفة الحق.

إذن، فإن من يريد أن يتبع السلف حقاً، لا بدّ أن يتبعهم في الإِقبال على هذا المنهج العلمي الدقيق، دراية وفهماً، ثم رعاية وتنفيذاً. ولسوف يحملهم هذا الاتباع على أن يسلكوا مسالك السلف في النتيجة التي أثمرها اتباع هذا المنهج في حياتهم، فيتفقون مع عامة المسلمين في المبادئ والكليات والأصول العامة التي لم يترك المنهج المعتمد سبيلاً ولا عذراً للاختلاف فيها؛ ويوسعون صدورهم وعقولهم للاجتهادات ذات الوجوه المحتملة، ويتبعون السلف رضوان الله عليهم فيما سلكوه من مسالك الاجتهاد ثم الاختلاف في هذه المسائل، دون أن يجعل المتخالفون من آرائهم الشخصية حجاب تفريق أو أسلحة تمزيق أو إطارات مميزة لجماعات إسلامية متناحرة.

أجل.. ولا أظن أن من يريد الاقتداء بالسلف الصالح حقاً يتيه عن هذا الطريق أو يناقش في مدى ظهوره أو أحقيته.

مصيبة العصبية للذات:

فإن رأيت مع هذا من يظل متشبثاً بآراء طائفة من السلف دون غيرهم مصراً على أنها دون غيرها هي الحق الذي يجب اتباعه، وأن المخالفين لهم في هذا التشبث والقرار، مارقون مبتدعون ضالون، فكن على يقين بأن هؤلاء الناس يضللون السلف قبل الخلف، وبأنهم خرجوا أول ما خرجوا على خطة السلف أنفسهم من حيث زعموا أنهم منتسبون إليهم سائرون على منهجهم!..

فإن عجبت لمن يقع في هذا الالتواء الواضح المكشوف دون أن يتبين التواءه، فاعلم أن ذلك هو شأن الهوى عندما يتحكم بالإِنسان وتكون إليه قيادته في الفكر والسلوك، وهو ما نعبر عنه بالعصبية للذات، إذ تأتي مغلفة بغلاف البحث عن الحق والغيرة عليه!..

والخلاصة:

والخلاصة أن خلافاً مستشرياً كالذي يجري اليوم بين بعض المسلمين، قد ذرّ قرنه في حقبة من عصر السلف.. غير أنهم تداركوا أنفسهم فاستخروا المنهج الذي ألمحنا إليه، واجتمعت عليه كلمتهم، أعني كلمة أهل السنة والجماعة، فذابت وانمحت خلافاتهم في المسائل والقضايا الواضحة التي

لا تخضع لاجتهاد، وبقيت اختلافاتهم في جزئيات المسائل الاجتهادية، أغصاناً متفرعة عن جذع راسخ واحد، لا تعكر عليهم صفو اتحاد، ولا تفرقهم في متاهات سبل أو جماعات.

والدواء الذي يصلح حال المسلمين، تجاه هذه المشكلة التي نعاني منها، هو الدواء ذاته الذي استعمله السلف لقريب من المشكلة ذاتها.

فمن كان محباً للسلف حقاً، حريصاً على الاقتداء بهم، فليهرع إلى هذا الدواء الذي استحضره لنا أولئك السلف رضوان الله عليهم، وليستعملوه كما استعملوه، وإذا الشقاق زائل والشمل مجتمع والكلمة واحدة، وقد عرفنا أن الدواء هو المنهج المتمثل في قواعد تفسير النصوص.

والله المستعان أن يقينا فتنة العصبية الرعناء، وأن يحررنا من حظوظ أنفسنا. إنه نعم المولى ونعم الوكيل.

الوسطيّة في الاعتقاد والسلوك
هيَ الحَلُّ الوَحيدُ لِمُشْكِلَةِ التّطرُّف

إن الحديث عن الوسطية حديث عن أبرز سمة وأخصّ مزية وصف الله عز وجل بها هذه الأمة بعبارة واضحة صريحة في آية من محكم كتابه، وهي قوله عزَّ وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

فما المراد بهذه الوسطية التي امتن الله بها علينا، ونحن جيل من أجيال هذه الأمة التي أكرمها الله بشرف الانتساب إلى خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام؟ وما هي مظاهرها التي تبرز، بل تنضبط وتتحدد فيها؟ ومن أين برزت قيمتها حتى أضفت على الأمة الإسلامية جمعاء هذه القيمة الكبرى التي نوه بها القرآن، وميزها بها عن سائر الأمم والجماعات الأخرى؟

أصل الوسطية في اللغة والمراد بها

يقول علماء اللغة العربية، وسط الشيء ما بين طرفيه، فهو اسم لما بين طرفي الشيء. كقولهم قبضت وسط الحبل،

وكسرت وسط الرمح، وجلست وسط الدار. ولما كان أفضل أجزاء الشيء قلبه ولبه البعيدين عن طرفيه وأطرافه، فقد كان وسط الشيء أفضل ما فيه.

وينسحب هذا على الأشياء المادية، كما ينطبق على الأمور المعنوية.

أما الأشياء المادية فمن المعلوم أن قيمتها الصافية إنما تكمن في لبابها، وكلما ابتعدت عن اللباب مقترباً إلى الأطراف ابتعدت عن صفاء جوهره وواجهك منه المزيج الخارجي المتسلل إليه.

وأما الأمور المعنوية فلبابها ما يقضي به العقل ويقرره العلم، وأي ابتعاد عن هذا اللباب يوقع الإنسان في فلك الأوهام الفكرية أو الرعونات النفسية، والشأن فيها أن تزج بصاحبها إلى أحد طرفي الإفراط أو التفريط. وهذا اللباب الذي تحده دائماً دائرة العقل والعلم، هو المعنيّ بكلمة «العدل» في كل الأحوال وبالنسبة إلى سائر القضايا والأحكام.

وهذا هو المعنيّ بكلمة «الوسط» في قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣] أي أمة عادلة في منهجها الفكري وقانونها السلوكي. روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في تفسير «وسطاً» أي عدلاً. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا الوصف إنما هو في أصله للإسلام الذي شرف الله به

عباده جميعاً، وحصن به عقولهم من غلواء الإِفراط والتفريط في فهم الأشياء والتعامل مع الحياة، ولكن كثيراً من الأمم السابقة شتت بفكرها وسلوكها عن هذا الحصن، فكان أن وقعت في براثن الإِفراط أو التفريط.

فاليهود، مثلاً، وقعوا في عسف التقصير والإِساءة في حق أنبيائهم؛ من تكذيب أو تقتيل، كما قد أخبر عنهم الله عز وجل. والنصارى وقعوا في نقيض ذلك من الإِفراط والغلو في تمجيدهم إذ ألّهوا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. ورفعوه بأوهامهم إلى سدة الربوبية مع الله عز وجل.

أما هذه الأمة، فقد حماها الله عز وجل، في مجموعها، من ذلك التعسف وهذا الغلوّ.. ولطف بها، إذ وفقها للتشبث بالعدل الذي هو لباب العقل وثمرة العلم، فلم تنحرف نحو شذوذ من الإِفراط والتفريط.

ولا يزال البيان الإِلهي يذكرنا بهذا الفضل العظيم، ويأمرنا أن ندعوه في كل ركعة من صلاة بأن يثبتنا على هذا المنهج العدل الذي عرّفنا به وحببه إلينا، وألّا يدعنا نحيد عنه حيدة تلك الأمم التائهة الأخرى. فهذا هو معنى خطابنا لله عز وجل في كل صلاة:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ١/٦-٧].

* * *

وإذ قد ثبت أن هذا الدِّين هو المنهج العدل واللباب الذي يتفاعل معه يقين العقل وقرار العلم دون جنوح إلى أي إفراط أو تفريط، فلا بدَّ أن تتجلّى حقيقة هذا العدل الذي يتّسم به في كل من أصوله الاعتقادية وأحكامه السلوكية.

ولنبدأ بإيضاح هذه الحقيقة في المبادئ والأصول الاعتقادية، إذ هي المنطلق والأساس. ومنها تتفرع سائر الأحكام والآداب السلوكية على اختلافها وتنوعها.

من المعلوم لنا جميعاً أن بنيان العقيدة الإِسلامية يتمثل في الإِيمان الجازم بالله ووحدانيته وصفاته، ثم الإِيمان برسله وأنبيائه وكتبه المنزلة عليهم وملائكته واليوم الآخر، وبكل ما أخبرنا عنه وأمرنا به في كتابه المنزل على سيدنا محمد ﷺ خاتم رسله وأنبيائه.

وإنما يتجلّى معنى الوسطية في الإيمان بالله عز وجل، من خلال السبيل الذي يسَّره الله عز وجل لنا إليه، وهو يتمثل في ميزان دقيق يتكون من كفَّتين متعادلتين هما: العقل، والنقل.

فلقد متَّع الله الإنسانَ بالعقل ليكون له منه مصباح يبصِّره بحقيقة هذا الكون ويهديه إلى خالقه ومكوّنه. ثم أنبأه بقصة نشأته والحكمة من خلقه والمهام الملقاة على عاتقه، والمراحل والتقلبات التي هو مقبل عليها، دون ريب، بعد حياته الدنيوية هذه، وهي حقائق لا يستطيع العقل وحده أن يستقل بمعرفتها والوصول إليها؛ وإنما السبيل إلى هذه المعرفة أن يقدّم إليه من

هذه الأنباء ما يكون موضوعاً لتأملاته ومحوراً لحركته ونشاطه.

ولو ترك الإِنسان مع العقل وحده، في رحلة البحث عن الحقيقة، لوقع في متاهات لا حدود لها، ولتخبَّط في ضلالات وأوهام لا نجاة منها، ولكان مصيره في أحسن الأحوال، كمصير أولئك الفلاسفة الذين أسلموا مقادتهم في طريق معرفة الله إلى العقل وحده، ثم دفعوه دفعاً في طريق مستوعرة لا قبل له بمعرفة شيء من معالمها، ولا سند له فيها، إلا بوارق الفطرة الكامنة في أغوار النفس الإِنسانية. فلما عجز العقل أن يأتيهم من جهده بشيء، تخيلوه مرة في الأفلاك العظيمة المحيطة بالكون، ومرة في العقول الكبرى التي قالوا: إنها هي التي تدبِّر نظام الموجودات وتسيِّر دفة الأكوان.. أما في أسوأ الأحوال فمصيرهم كمصير أولئك الذين ألّهوا الحجارة أو الأشجار أو دانوا بالعبودية للنيران أو الأبقار!..

أما لو ترك الإِنسان مع أدلة النقل والأخبار وحدها، فإنه لن يجد بينه وبينها أي جسر يبعث في فكره تفاعلاً أو تجاوباً معها، ولسوف يمرّ من جنب تلك الأخبار والنقول كما يمر السكارى أو المجانين، دون أي التفات إليها أو تأثر بها، ومن ثم فإنه لن يبتغي بالإِلحاد والجحود بديلاً.. فإن رأيته قد تحلى مع ذلك بشعار الإِيمان ومظاهر الإِسلام، فذلك منبعث لديه من عامل العصبية أو التقليد ليس غير، كما هو شأن كثير من الناس اليوم، ومثل هذا الإِيمان أو الإِسلام لا يصلح لصاحبه حالاً ولا يقرّبه إلى الله شروى نقير.

فكان من فضل الله على عباده أن وضعهم على منهج يدعمه كلٌّ من دليلي العقل والنقل معاً.. ومن ثم فقد كان لا بدّ لهذا المنهج أن يهديهم إلى القصد الذي يتقبله العقل ولا يخالفه، ويسير بعيداً عن كل إفراط وتفريط.

وما شرد أولئك الذين تاهوا عن جادة القصد هذه، نحو أيّ غلو ذات اليمين أو ذات الشمال، إلا بمقدار ما أجحفوا وجاروا في الاحتكام إلى كفتي العقل والنقل من الميزان المنهجي الذي أكرم الله عز وجل به عباده، وإنما تتجلى نسبة غلوّهم بمقدار نسبة إهمالهم لإِحدى هاتين الكفتين، وانصرافهم إلى الأخرى.

فالمعتزلة مثلاً لما بالغوا في توظيف العقل والاعتماد عليه، معرضين بمقابل ذلك عن النقل وضوابطه، ابتعدوا بقدر ذلك عن جادة العدل وأوسط الأمر، وانقذفوا أشواطاً نحو غلوّ الفلاسفة وتطرفهم الذي أشرنا إليه، وفي غمار شرودهم هذا استجابوا لما تخيلته عقولهم الكليلة، من أن الإِنسان هو الخالق لأفعاله الصادرة منه، وأن من المستحيل أن يرى ربه يوم القيامة، وأن إرادة الله تعالى لا تتعلق بالمعاصي والشرور.

والجبرية والمجسدة، لما بالغوا في إهمال العقل، وصفدوا أذهانهم في أغلال من ظواهر الألفاظ والنصوص، نسبوا إلى الله الجبر، وجردوا الإِنسان من أي إرادة واختيار، وساووا بين الله ومخلوقاته في كثير من المعاني والصفات.

ومن الواضح أن كلا هذين التصورين يمثل شروداً خطيراً عن الوسطية التي يرسمها كتاب الله عز وجل، ويوصي الناس باتخاذها ميزاناً في فهم حقائق الكون والتعامل مع أصول المعايش والحياة؛ ألا ترونه يقول:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣]؟

وأساس هذا المنهج العدل أن حقائق الحياة مؤلفة من مزيج من المحسوسات المادية الحاضرة، وغيوب ماضية أو آتية في المستقبل القريب أو البعيد.. أما سبيل معرفة المحسوسات المادية الحاضرة، فالنظر العقلي القائم على التجربة والمشاهدة.. وأما سبيل معرفة الغيوب الآتية أو الماضية فإنما هو الخبر اليقيني إذ يأتي من المصدر الذي ثبت باليقين أنَّ إليه مردَّ تلك الغيوب وأنَّه المدبِّر لها والقاضي بشأنها.

ولا تتكامل المعرفة الصحيحة، إلا عندما تكون نسيجاً مؤلفاً من سدى ولحمة كلٍّ من هذين المصدرين. بهذا جاء كتاب الله عزَّ وجل، وعلى هذا النسيج تنهض حقائق الإِسلام. ومن تعادل هذين المصدرين يتحقق معنى الوسطية في التفكير والبحث العلمي، ومن جراء اصطباغ هذه الأمة بهذه الصبغة العادلة، كانت كما سماها الله تعالى أمة وسطاً.

ثم إن الإنسان إذا هدي إلى الحق واستقر الإِيمان بالله عز وجل في يقينه العقلي، لا بد أن تقع عواطفه تحت تأثيرات

متنوعة من هذا الإيمان، قد تسلمه إلى ألوان من التطرف والغلوّ الوجداني من شأنها أن تشقي وتهلك في كثير من الأحيان.

غير أن التربية القرآنية تجعل الإِنسان المؤمن في حصن حصين يقيه شر تلك الغوائل، إذ يحتمي منها بوسطية عاطفية تنسجها في أعماق وجدانه تلك التربية القرآنية المثلى. وتتكفَّل بالمحافظة على جذوة الإِيمان بالله يقيناً صافياً في العقل، وتأثيراً موجهاً في العاطفة والنفس، كما تضمن له في الوقت ذاته التعامل مع أسباب الحياة والتعاون مع إخوانه في النهوض بعمارة الأرض وإقامة الحضارة الإنسانية المثلى فيها على أساس علمي سليم.

وبيان هذا، أن الإنسان نزاع بفطرته إلى المعرفة وحب الاطلاع وسبر أغوار الأمور واكتشاف كنهها.. فإذا آمن العقل بوجود الله ووحدانيته وسائر ما يتصف به من صفات الكمال، لم يقنع من معرفته بالوقوف عند هذا الحد، بل الشأن فيه أن يقدح زناد الفكر في ذاته سبحانه وتعالى، وأن يحاول الوصول إلى معرفة كنهه، كما يحاول في العادة الوصول إلى معرفة كنه أي شيء آخر يلفت نظره ويشغل فكره.

ولكن المنهج القرآني يصرف الإِنسان عن التأمل في ذات الله عز وجل والبحث في كنهه - إن صحَّ التعبير - إلى بيان صفاته العلية التي تفرد بها، وإلى تنزهه عن أي من النقائص التي يمكن أن يتخيلها الذهن، فإن تجاوزت الآيات القرآنية هذا

البيان، لم تزد على تأكيد أنه عز وجل ليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد؛ وذلك حجزاً للفكر أو الخيال الإنساني عن أن يشتط في التأمل أو التخيل، فيقع في المتاهات الباطلة، ويخلع على الخالق ما هو منزه عنه من أحوال المخلوقين وصفاتهم.

روى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسب لنا ربك!.. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

ولما أبى بعض الناس إلا أن يتجاوزوا هذه الحدود العادلة المتفقة مع حدود الطاقة العقلية لدى الإنسان، وأن يحملوا عقولهم حملاً على ما لا قبل لها به، من التفكير في ذاته وحقيقة وجوده، خانتهم قدراتهم العقلية، ووقعوا في أوهام وأخيلة باطلة، كوَهم وحدة الوجود الذي انجرف فيه بعض الأقدمين والمتصوفين، ثم انساق فيه كثير من المتفلسفين الغربيين، وكوَهم أنَّ لله عزَّ وجل جهةً يتحيَّز فيها، وأنَّ له يداً كأيدينا وعيناً كأعيننا، كما يتوهَّم الوهابيون، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ولم يكن ذلك إلا نتيجة الشرود عن وسطية الإسلام، فيما قد رسمه من منهج النظر والفكر، وأثر الغلوّ الذي تمثل في تحميل العقل ما لا قبل له بحمله، وسوقه في طريق لا علم له به وليس لديه أي خبر عن شيء من طبيعته ومعالمه.

ثم إن المنهج الإسلامي يأخذ الإنسان بعوامل تربوية معتدلة، إذ يصبغ شعوره بمزيج متكافئ من العواطف الدافعة والرادعة والممجدة تجاه مولاه وخالقه عز وجل. وبذلك يستقرّ وسط دائرة تحيط به من أطرافها عوامل عاطفية متكافئة، من الحب والخوف والتعظيم والتقديس لله عز وجل. أي فلا يهيمن عليه من الخوف ما قد يزج به في اليأس، ولا يجتاحه من الأمل والحب ما قد يسلمه إلى الأماني والأحلام ويجعله يتمنى على الله ما ليس له.

إن بوسع كل من يتدبر كتاب الله تعالى أن يتبيَّن الميزان التربوي العجيب للعواطف الإيمانية المتنوعة والمتكافئة التي يبثُّها القرآن، في منهج تربوي عجيب، في مشاعر الإنسان وقلبه.

فنحن لا نكاد نجد في القرآن آية تسلم الإنسان إلى رهبة مجردة من بوارق الرحمة والأمل، أو تمنيه ببشارة صافية عن شوائب الخوف؛ بل إن من القواعد الكلية في كتاب الله عز وجل أنه لا يذكر الإنسان بشيء من صفات السطوة والانتقام لله عز وجل، إلّا ويذكره إلى جانبها بصفات الرحمة والغفران، ولا يحدثه بشيء من صفات الجنة ونعيمها إلا ويحدثه إلى جانبها عن جهنم وعذابها.

وإنكم لتجدون أن القرآن كلما وصف أهل الجنة وصفهم بأرقى أعمالهم وأجلّ صفاتهم، وكلما وصف أهل النار وصفهم بأسوأ أعمالهم وأشدّها تسبباً لسخط الله وغضبه.. والحكمة من

ذلك أن المسلم إذا عرض نفسه على صفات أولئك الذين استأهلوا كرم الله وجنته، وجد نفسه دون مستوى تلك الصفات، فإذا عرض نفسه على حال الذين باؤوا بسخط الله واستحقوا عقابه، وتأمل في صفاتهم، رأى نفسه خيراً منهم، فيتجاذبه من مجموع هذين الموقفين كل من الأمل برحمة الله عز وجل والخوف من عقابه..

وتلك هي التربية القرآنية المثلى التي تضع الإنسان المسلم على صراط معتدل تتمازج فيه العواطف والمشاعر الإنسانية المتعددة، دون أن يطغى بعض منها على بعض، بحيث يزجه في غلوّ من الإفراط والتفريط..

وسطية الإسلام في الفروع والأحكام السلوكية:

يتعرض الإنسان في سلوكه لأنواع كثيرة من الجنوح نحو الإفراط أو التفريط. وجلّ ذلك يتفرع من عاملين اثنين لا ثالث لهما:

العامل الأول: عدم معرفة الإنسان ذاته معرفة ماهوية صحيحة. وهو الأمر الذي لا بدّ أن يزج به - على الأغلب - في إفراط من الكبر والطغيان، أو أن يوقعه في تفريط من المهانة والضعف. ومن هذا الإفراط أو التفريط يتكون أحد شطري الفساد في المجتمعات الإنسانية، منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا.

العامل الثاني: عدم تعرف الإنسان إلى حقيقة المكونات التي

من حوله ومدى أهميتها في حياته. فإن هذا الجهل لا بدّ هو الآخر أن يزجّ به في إفراط من التعلق بها والركون إليها، أو في تفريط من الإدبار عنها ونفض اليدين منها.

ومن هذا الغلوّ الثاني يتكون الشطر الآخر من فساد المجتمعات الإنسانية، قديماً وحديثاً. ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا، إن سائر مظاهر الجنوح السلوكي في حياة المجتمعات والأفراد، متفرعة عن هذين العاملين الخطيرين.

ولكن تعالوا فلننظر، كيف وضعت التربية الربانية من خلال التعاليم الإسلامية، الميزان الدقيق أمام بصيرة الإنسان ليستعمله فيتقي به مزالق الجنوح إلى أي إفراط أو تفريط، بصدد أيّ من العاملين المذكورين، وليتخذ لنفسه - في ضوء هذا الميزان - سبيلاً عدلاً وسطاً إلى التعامل مع ذاته وبني جنسه، والتعامل مع الدنيا وكل ما فيها من المكونات.

ولنبدأ ببيان معالجة الإسلام للعامل الأول؛ وحسبنا في هذه الدراسة أن نعتمد على كتاب الله عز وجل، الذي هو الدعامة الأساسية والأصل الأول لدين الله عز وجل.

ينبِّه القرآن الإنسان إلى ذاته الإنسانية من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين، داخلتين في قوامه، وتكوينه الإنساني. وإن كان بينهما، في الظاهر، ما يشبه التناقض أو التضاد.

الحقيقة الأولى أنه مخلوق تافه أصله من تراب، وسلالته من ماء مهين. والشأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل

العمر، فلا يعلم - بعد علم - شيئاً، وينسى معظم ما كان يذكره، وأن تخور منه القوة والعزيمة فينتهي إلى مثل ضعف الطفولة الأولى.

ولنصغ إلى بعض من الآيات التي تبصر الإنسان بهذه الحقيقة:

-﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ١٧-٢٢].

-﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ٥-٧].

-﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٧].

-﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤].

أما الحقيقة الثانية التي تشكل الشطر الآخر من الهوية الإنسانية فيما يبصرنا به القرآن، فهي أن الإنسان هو ذاك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات، وأنه ذاك الذي استأهل أن يكلف الله الملائكة بالسجود له، متمثلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام، وأنه الذي شرفه الله بالخلافة فوق هذه الأرض، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والفكر والقدرة على إدارة الأمور وتسخير كثير من المكونات له.

ولنصغ أيضاً إلى بعض من الآيات القرآنية التي تبصر الإنسان بهذه الحقيقة الثانية من ذاته.

-﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

-﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٨-٢٩].

-﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٠].

فما وجه تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معاً؟ وما وجه الاستمرار في تذكيره الإنسان بضآلة وتفاهة أصله، مع تذكيره في الوقت ذاته بالمكانة التي يتبوؤها، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات النادرة التي ركّبت فيه؟

وجه ذلك أن الإنسان لا يتأتى له أن يعمر هذه الأرض عمارة حضارية سليمة، ولا أن يقيم دعائم السلم الإنساني متوجة بالكرامة الإنسانية الصافية، إلا إذا عاش في ظل هذه التربية القرآنية التي تغذيه بكل من هاتين الحقيقتين معاً، وذلك بأن يظل متذكراً تفاهة أصله وضآلة شأنه وذل نهايته ليمارس بذلك عبوديته لله عز وجل، وأن يكون على علم في الوقت ذاته بما قد متعه الله به من صفات وملكات نادرة، وبما قد ميزه به من سمو في الرتبة والمكانة على كثير من المخلوقات، ليتأتى له أن ينهض بوظائفه في الحياة.

ذلك لأن من عاش لا يتبصر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها، جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحية لطغيان الجبابرة والمتكبرين، ويبعده عن القدرة على إنجاز أي عمل أو خدمة إنسانية مما قد حمله الله تعالى مسؤولية النهوض به.

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرم الذي يملك من المزايا والطاقات ما يخوله أن يبسط لنفسه حكماً وسلطاناً على كل من حوله ودونه، جدير به أن يسكر بنشوة تلك الصفات، وأن يجعل من نفسه حاكماً من دون الله عز وجل يبسط قهر ربوبيته الزائفة على سائر من حوله من المستضعفين.

وبالجملة، فإن الشأن فيمن لم يتنبه - في يقظة عقلية واعية - إلى مجموع هويته الإنسانية المؤلفة من كلا هذين الشطرين، أن يتطرف إما إلى سبيل من التكبر والطغيان، إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة، أو إلى سبيل من المهانة والخنوع إن خانته الظروف وخيَّبته الآمال، ومن كلا هذين السبيلين المتطرفين يتحقق ما يسميه القرآن: الفساد في الأرض.

فما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة، ولا بسوء ألمّ بها من هياج الحيوانات والوحوش، وإنما استشرى فيها الفساد وألَمَّ بها البلاء، يوم تاه بنو الإنسان عن هوياتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية. فتألّه الأقوياء، وذل الضعفاء، وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته؛ ذلك نحو التجبر والتعالي في الأرض، وهذا نحو

الخنوع والهوان، فتمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون واهتاجت عوامل البغضاء، ثم انتشر فيما بينهم وباء التهارج والقتل. فتمت بذلك قصة الفساد في الأرض، وهي قصة قديمة حديثة، تتكرر بتكرر عواملها وأسبابها، والمهم أن نعلم أن الأسباب هي الأسباب ذاتها، وأحداث القصة هي الأحداث ذاتها مهما تطورت الدنيا واختلفت المدنيات والثقافات.

وأما الإنسان الذي ربيت مداركه العقلية ومشاعره النفسية، على كلا هذين الغذاءين بمزيجهما القرآني المعتدل، فالشأن فيه أن تتنامى بين جوانحه هويته الإنسانية الكاملة، ولا بدّ أن تقيه هذه التربية القرآنية من الشرود إلى أي تطرف أو جنوح عن خط الوسطية والاعتدال؛ فلا هو يركن إلى الخنوع والذل للآخرين، مهما تجمعت عليه أسباب الضعف أو مظاهر الفقر والحرمان، ولا هو يطمح إلى شيء من التسلط والبغي، مهما أتيح له أسبابها وتفتحت أمامه سبلها.

غير أن ينبوع هذه التربية القرآنية التي تضع الإنسان من حياته السلوكية على صراط الاعتدال، إنما هو اليقين بربوبية الله الواحد الأحد، وما يترتب عليه من تصور العلاقة القائمة بين الإنسان وخالقه عز وجل، وهي علاقة العبودية المطلقة من المخلوق لخالقه، والخضوع الحتمي المطلق من المملوك لمالكه. فبهذا اليقين وحده يتهيأ الإنسان لأن يصحو إلى معرفة ذاته، ثم إن هذه المعرفة هي التي تهديه إلى قصد السبيل بين طرفي الإفراط والتفريط.

فإن لم يتحقق هذا اليقين على وجهه الصحيح، كان المآل - بدون ريب - أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، ولا بدّ أن يكون مآل ذلك الفساد في الأرض، وأن يتحول الإنسان إلى مادة شقاء لنفسه ولبني جنسه.

وما أشد وضوح هذا الواقع في قول الله عز وجل:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

* * *

والآن، فلنتأمل في معالجة الإسلام للعامل الثاني. وقد قلنا: إن جل عوامل الإفراط والتفريط في حياة الإنسان السلوكية متفرعة من عاملين اثنين: أولهما عدم معرفة الإنسان ذاته معرفة صحيحة كاملة، ثانيهما عدم تعرف الإنسان إلى حقيقة المكونات التي من حوله ومدى أهميتها في حياته.

ونقول باختصار في بيان كيفية معالجة الإسلام لهذا العامل الثاني:

الحقيقة أن القرآن يعرِّف الإنسان على المكونات التي من حوله ومدى أهميتها، بالطريقة ذاتها التي عرّفه بها على ذاته وهويته.

فإن القرآن يبدأ فينبِّه الإنسان إلى أنها أعراض تافهة زائلة،

ويحذره من أن ينخدع بها أو يركن إليها.. وإننا لننظر فنجده يؤكد بأن معظم هذا الذي يبرق في الأعين مرآه وتستهوي النفوسَ لذَّته، إنْ هو إلا سراب باطل وظل زائل، وأنه أشبه بالرؤى التي يمرّ بها النائم، يظن وهو في نومه أنه أمام حقائق يمارسها ويتقلب فيها، وما هو إلا أن يستيقظ حتى يعلم أنه كان في حلم لا حقيقة له.

وإن القرآن ليفيض بالآيات التي تتفنن في إبراز هذه الحقيقة، ولنستعرض طائفة منها:

-﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤].

-﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٦-١٩٧].

-﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١].

ولو أنا تأملنا هذه الآيات وحدها، ووقفنا عندها في السعي إلى معرفة الموقف الذي يجب اتخاذه من الدنيا وأسبابها، إذن لوجدنا أنفسنا أمام ضرورة نبذها واطّراحها ونفض اليدين منها، ولما كان يحق لنا أن نأخذ منها إلا قدر الضرورة وبلغة الحياة.

ذلك هو الخطأ الذي انجرّ إليه بعضٌ ممن وقفوا عند حدود هذه الآيات وظاهرها، ولم يصلوها بما يتمم بيان المقصود

منها، من آيات كثيرة أخرى.. ففسروا الزهد على غير وجهه المطلوب، ثم تعلقوا منه بصورة لم يأت بها كتاب ولا أيَّدتها سنَّة؛ إذ هجروا العمران وانساحوا في القفر من الأرض، واتخذوا من الكهوف مثابة لهم، ولم يحمّلوا أنفسهم مؤونة أسرة ينشئونها أو رزق يكدحون من أجله، ولم يكتفوا بهذا الذي فعلوه بأنفسهم حتى أخذوا يدعون الناس جميعاً إلى اتباعهم في ذلك، زاعمين أن سلوكهم هذا هو المعنيّ بالزهد الذي أمرت به تلك الآيات وأمثالها.

ولكن البيان الإلهي لم يقف في شرح حقيقة الدنيا وبيان قيمتها عند حدود تلك الآيات التي عبرت فعلاً عن تفاهتها وحذرت من الركون إليها، بل عاد الخطاب الإلهي فندبنا - على الرغم مما وصفها به - إلى التعامل معها، وأمرنا بمدّ يد الاستفادة إليها، بل حذرنا من التأثم في الإقدام عليها.

ولنصغ إلى طائفة من هذه الآيات، ولنتأمل كيف تبدو وكأنها استدراك على ما قد يفهمه الإنسان من تلك الآيات السابقة.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ٨٧].

ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢/

٢٩]، وهذه الآية عمدة علماء الشريعة الإسلامية في أن الأصل في الأشياء كلها الإباحة.

ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥].

وتتلاقى تفاصيل هذه الآيات وغيرها مجتمعة في قوله عز وجل: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١١/ ٦١]. أي كلفكم بعمارتها، بأوسع ما تدل عليه كلمة «العمارة» من معنى.

ومن هنا يتبدى لنا أن تلك الآيات التي أوضح الله فيها هوان الدُّنيا وتفاهتها، ما ينبغي أن تفهم بمعزل عن هذه الآيات الأخرى التي بيّن الله فيها واجب الإنسان تجاهها.

ولكن، ما الحكمة من هذا المد والجزر؟ وكيف السبيل إلى التوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات؟ أي كيف يتأتى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعة التامة بأن الدنيا بكل ما فيها ظل زائل وسراب باطل ووهم لا يجوز الانخداع به، ثم أن يقبل عليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ذخرها، يبني لنفسه من ظلها وسرابها قصوراً شامخة وينشئ منها جناناً وارفة؟

والجواب أن الحديث عن هذه الحكمة حديث طويل الذيل، وهي بجملتها تنطوي على الحلّ الوحيد لتلك العقدة الكبرى التي كانت وما تزال تقف في طريق السعي إلى إنشاء مجتمعات أو حضارات إنسانية مثلى تحمل في داخلها أسباب بقائها. وقلَّ من تنبه إلى هذه العقدة من الناس والأمم بعد، فضلاً عن أن

ينتبهوا إلى سبيل لحلّها، اللهم إلا مَن وعى هذه الحكمة من تلاقي هاتين الطائفتين المتقابلتين من الآيات القرآنية التي تحلل قيمة هذه الحياة الدنيا ووظيفة الإنسان تجاهها.

إن القرآن، بهذين البيانين المتوازيين في تكافؤ دقيق، عن المكونات الدنيوية التي تطوف بالإنسان، إنما يحلُّ هذه العقدة الحضارية التي طالما استعصى حلّها على الأمم والباحثين، بل المتخصصين بهذا الشأن.

ذلك لأن مجموع هذين البيانين المتقابلين عن قيمة الدنيا والموقف الذي يجب أن يقفه الإنسان منها، يعبِّر عن شرط أساسي هام يجب أن يأخذ الإنسان نفسه به عند الإقبال إلى الدنيا والتعامل معها؛ ألا وهو أن يمارس الناس دنياهم وأسباب معايشهم، بدافع وظيفي وبروح استشعار للمسؤولية الملقاة على عاتقهم؛ لا بدافع التعلق بها والتعشق النفسي لها!..

ولن يتحقق ذلك، بطبيعة الحال، إلا إذا اجتُثت محبة الدنيا ومغرياتها من قلوبهم وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها، وهيهات أن يتم ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق عز وجل، ثم الإصغاء بثقة ويقين إلى بيانه هذا عن حقيقة الدنيا وقيمتها.

فإذا استيقن الناس ذلك فإن أفئدتهم لن تقع في أسر الدنيا ومغرياتها، وستتحرر نفوسهم - ولا ريب - من بلاء التعلق بها والتعشق لها.. فإذا كلفهم الله بعد ذلك باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم فوقها، فسيقبلون إلى

ذلك كله إقبال من قد كلف بأمر فهو ينشط، من أجل ذلك، في سبيل تحقيقه وإنجازه.

صحيح أن من شأن النفس البشرية، إذا ذاقت ملذات الدنيا ومارست نعيمها، أن تركن إليها وتتعلق بها، ولكن هذا يمكن أن يتم بالنسبة إلى من لم يفهموا بعدُ حقيقة الدنيا، أو فهموها ولكن بميزان فكري مجرد، أي بعيداً عن سلطان العواطف والوجدان.

غير أن الأسلوب القرآني لم يقف في توجيه النفوس إلى هذا السبيل العدل الدقيق، عند إقناع العقول فقط، بل أضاف إلى ذلك لفت النظر بسائق من الرغبة والرهبة إلى ما هو خير وأبقى من هذه الدنيا وكل ما تفور به من أهواء ومغريات. ويظل البيان الإلهي يكرر ذلك ويؤكده، ويستثير عواطف الإنسان وأشواقه إلى ذلك البديل من النعيم الأبدي المقيم.

فإذا رُبي الإنسان على هذه التبصرة القرآنية، فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ورغدها، فإن أشواقه تظل مشدودة تواقة إلى ذلك النعيم الأكبر الذي لا ريب عنده في قدومه، وإن نفسه تظل مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٣]. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤].

وتلك هي الضمانة لأن يمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها المستخدم لها، طبق نظام معين وضمن حدود مرسومة، ومن

أجل الوصول إلى هدف عال مقدس؛ على حين لن تستطيع الدنيا أن تسكره فتستخدمه وتستعبده ثم تطوح به.

وعند هذه الضمانة الهامة، يختبئ مفتاح الحضارة.. وعندها يكمن السرّ الذي يمدّها بأسباب الاستقرار والبقاء، فلا تقع تحت طائلة القانون الوهمي الذي تخيله «شبنجلر» وأشياعه عن الحضارات وأعمارها، وهو بعينه المفتاح الذي عثر عليه الرعيل الأول من هذه الأمة، بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني.

لقد أيقنوا بتفاهة هذه الدنيا وهوانها، وبأنها وهم باطل، فاستخرجوا محبتها من قلوبهم، ثم أقبلوا إليها إقبال المستخدم لها، نهوضاً بالرسالة التي كلفهم الله بها وسعياً لإقامة المجتمع الإنساني الصحيح الذي كلفهم الله عز وجل بإقامته. وتلك هي الوسطية المثلى التي حررتهم من الوقوع في براثنها والتطوح سكراً بنعيمها، كما حررتهم من شبح ذلك الخوف الوهمي من الاستفادة منها والتعامل بها؛ وما الزهد الحقيقي إلا ممارسة هذه الوسطية التي رباهم الإسلام عليها فاستخرجوا حبها من قلوبهم ثم استخدموا كل أسبابها لحياتهم.

وإن في تاريخ ذلك الرعيل الأول لَتَجارِبُ كثيرة تجسِّد هذه الحقيقة، وتغذي العقول الحرة بما شاءت من معاني العبرة.. وفي استعراض سريع نمرّ بطائفة من هذه التجارب، عسى أن تنير الفجاج المظلمة التي يتطوح فيها كثير من الحيارى أو التائهون اليوم.

أولى هذه التجارب تبدو في حياة المصطفى ﷺ، فقد سيقت إليه الدنيا ذات يوم وهو يمرّ بأحلك ظروف الدعوة وأشدها عسراً والتواء عليه، ممثلة في الملك والمال والزعامة والنساء، على أن يتخلى عن الإسلام الذي بعث به... فماذا، لو أنه عليه الصلاة والسلام أقبل إلى هذا الذي عرض عليه بسائق الرغبة الغريزية والتعلق النفسي؟.. إذن لخسر الدعوة ونتائجها ولما تمتع بالملك والمال إلا إلى أمد قصير، أقصاه نهاية حياته عليه الصلاة والسلام، ثم ينتهي كل شيء ويزول المال والملك ولا تنهض حضارة ولا تتحقق رسالة ولا ينتشر دين.. ولكنه ﷺ نظر إلى الدنيا التي عرضت عليه من خلال قرار عقله وتفكيره، ومن مستوى المسؤولية التي كان يتحملها، فترفع عليها وأشاح بوجهه عنها، وهو يعلّم الناس والأجيال أن خير سبيل إلى الاستفادة من الدنيا والهيمنة عليها أن يحرر الإنسان نفسه من سلطانها.

أما التجربة الثانية فهي تجربة الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد شاء الله تعالى أن يقوم تعارض حادّ بين ما يمتلكه أصحاب رسول الله ﷺ من وطن وعقار ومال، وما وقر في نفوسهم من حقائق الإسلام وضرورة النهوض بأحكامه ومسؤولياته... فماذا يصنعون؟

لقد اتخذوا قرارهم بقيادة رسول الله ﷺ، وهجروا الوطن والعقار والمال، بل تقطع كثير منهم حتى عن الأهل والأولاد،

واتجهوا شطر يثرب التي كانت تعاني آنذاك من سوء المناخ وتفوح بأنواع الوباء!.. فماذا كانت نتيجة التجربة؟

لقد أعاد الله إليهم الوطن الذي تركوه، وامتدت لهم منه أوطان كثيرة أخرى، وفتح الله عليهم بدلاً من الأموال القليلة التي تخلوا عنها، أبواباً عريضة من الثروة والغنى، ودان لهم أولئك الذين أخرجوهم من الديار وساموهم ألوان العذاب!..

وبوسعنا أن نجد تجارب سلوكية كثيرة في حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه والتابعين من بعدهم، جاءت تطبيقاً، للتعليمات القرآنية لكيفية التعامل مع الدنيا، بل مع الكون والحياة عموماً.. وهي تتلخص - كما علمنا - في أن يتحرر الإنسان من حبها وذل التعلق بها من خلال التأمل الدائم في الصفات التي وصفها الله عز وجل بها، ثم يقبل عليها فيستخدمها أداة مسخرة في بناء المجتمع الإنساني الرشيد الذي أمر الله تعالى ببنائه.

وإن في نشأة الحضارة الإسلامية التي آذنت بزوال عهود الحضارات الأخرى ما يجسِّد هذه الحقيقة أروع تجسيد.. ولعل سياسة عمر بن الخطاب أبرزت الوجه الدقيق لتطبيق هذا القانون الرباني الذي يرسم كيفية التعامل مع الحياة ومكوِّناتها.. حتى لكأنه في ذلك يعلم أئمة المسلمين وحكامهم بعد رسول الله ﷺ كيفية تطبيق هذا القانون وكيفية استخدام الدنيا من خلالها إلى أبعد مدى ممكن.

فلقد مصّر الأمصار، وبنى الكوفة والبصرة، وأشرف بنفسه على هندسة البناء واتساع الشوارع ومدى ارتفاع البنيان.. وشرع في إنشاء أسطول من السفن، ونظم لأول مرة نظاماً لصادرات الدولة ووارداتها، وسهر على رفع مستوى الدخل وسدّ حاجات الجند.. ووجّه المسلمين إلى أخذ زمام التجارة من الأنباط. روى ابن الحاج في المدخل أن عمر بن الخطاب دخل السوق في خلافته، فلم ير فيه في الغالب إلا النبط، فاغتم لذلك. فلما اجتمع الناس عاتبهم على ترك السوق والأعمال التجارية. فقالوا: إن الله أغنانا عن السوق بما فتح علينا. فقال رضي الله عنه: والله لئن فعلتم، ليحتاجنّ رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم[١].

ولكن عمر ظل على الرغم من انهماكه في ذلك كله لا يؤثر على مرقعته البالية أي ثوب، وبقي يسير في حياته الشخصية على صراط من الزهد والاخشيشان.

وهو لو شاء أن يتجمل في لباسه، ويرفه عن نفسه ويعطيها حقها من الدنيا، لما وجد ما يمنعه من ذلك. غير أنه - وقد تمثلت في ذهنه الحقيقة التي أوضحناها - خشي إن هو أرخى لنفسه الزمام إلى شيء من الدنيا وشهواتها، أن تركن إليها فلا تصبر عنها فتجمح به وتركب إلى بلوغ أهوائها الصعب والذلول، فيغدو عندئذ أسيراً في يد الدنيا بعد أن أعزه الإسلام فجعلها أسيرة في يديه. ولو لم تكن الدنيا قد فتحت

---

(١) المدخل: ابن أمير الحاج، ٤٨/ ١٠٥.

عليه من أطرافها لما كان - ربما - لذلك التخوف من موجب، ولكن اندلاق الدنيا عليه فرض عليه الأخذ بكوابح الحيطة والحذر.

ثم لعله كان يحرص كل الحرص على أن تتبين الأمم الأخرى في حياة المسلمين تلك الحقيقة، فيأخذوا لأنفسهم العبرة منها، فكان يصرّ إصراره على أن يبصِّر العالم كله بسعي الدنيا وراءهم على الرغم من إعراضهم عنها وتزهدهم فيها، وذلك كي لا يخطئوا فيظنوا أن العرب إنما اندلقوا إلى الدنيا التي حولهم بعد طول احتباس في جزيرتهم التي كانوا قابعين فيها، لجوع دنيوي عضّ على بطونهم، أو لشهوة إلى النعيم اهتاجت في نفوسهم.

من أجل هذا أصرّ، حينما قدم إلى الشام، على ألّا يستقبله أجنادها وبطارقتها، إلا وهو يرتدي جبّتَه البالية التي كان قد ألصق بها اثنتي عشرة رقعة بعضها من جلد.. وقال لأبي عبيدة وقد همس في أذنه معاتباً على ذلك: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله».

ألا فلنعلم أن أولئك الناس من الرعيل الأول الذين نشأت على أيديهم الحضارة الإسلامية، لو لم يستهينوا بالدنيا ويضعوها من المهانة في الموضع الذي جعلها الله فيه، إذن لوقعوا في نطاق جاذبيتها، وإذن لما نالهم منها إلا سيلان اللعاب وراءها، ولارتدّوا إلى أوطانهم خائبين خاسرين.. ولكنهم التزموا الوسطية التي رباهم الإسلام عليها، وهي

استخراج حب الدنيا وأهوائها من القلب، ثم سوقها من زمام التسخير والاستخدام لعمارة الأرض وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح، فأخضع الله لهم الدنيا من أقطارها، وسيَّرها وراءهم بمقدار ما تساموا عليها.

* * *

وأخيراً، دعونا نقل كلمة - أرجو أن تكون جامعة - عن وسطية الإسلام إذ تسعى بالإنسان في طريق سليم معتدل نحو تحقيق سائر حاجاته وأشواقه الإنسانية المختلفة، في تناسق مطرد وتوازن دقيق.

إن الإنسان - كما نعلم - ثلاثي التركيب؛ فهو مؤلف من هذا الهيكل الجسدي، ومن الغرائز الحيوانية المبثوثة في كيانه، التي تشكل قاسماً مشتركاً بينه وبين سائر الحيوانات الأخرى، ومن الروح التي هي سرّ لا مطمع في معرفة حقيقته، هذا السر الذي ينعكس على الدماغ فيكون إدراكاً وعقلاً، ويشرق على القلب فنسميه عواطف ووجداناً ويسري في خلايا الجسم فيكون شعوراً وإحساساً.

وهذه الروح ليست عبارة عن الحياة التي يحدّها المعنى الطبي، كما يتوهم بعض الناس؛ إنما هي سرّ هابط من الملأ الأعلى، ألا ترون إلى قوله عز وجل، وهو يحكي خطابه للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩] كيف نسب هذه الروح إلى ذاته، تنويهاً بشرفها

وسموِّ رتبتها، وإجلالاً لها عن أن يحيط بكنهِها عقل إنسان؟!

ومن الثابت يقيناً أن كلاً من هذه العناصر الثلاثة التي ركب منها الإنسان يحتاج إلى غذائه الذي يناسبه.. وما الإسلام في حقيقته إلا مائدة عامرة رصفت فوقها هذه الأنواع الثلاثة من الأغذية في تناسق واعتدال؛ فنوع منها للجسد ومتطلباته، ونوع للغرائز الحيوانية التي تعيش في كيانه، ونوع آخر للروح وأسرارها.

إننا إن عدنا إلى الإسلام في جوهره وتفاصيله، فلن نجده أكثر من دعوة للإنسان ذي التركيب الثلاثي إلى أن ينظر إلى كيانه هذا فيتبينه ويتعرف على حقيقته، ثم يقبل على تغذيته تغذية كاملة، دون أن يهمل واحداً من الأركان الثلاثة التي يتألف منها، فلا يدع الجسم لمصلحة الروح ولا يهمل الروح لمصلحة الغرائز. لا؛ بل عليه أن يدرك أنه إن فعل شيئاً من ذلك، عاد بالضرر إلى أجزائه الإنسانية كلها؛ فإهمال الروح وتزكِيَتِها يعود بالضرر على مصالح كل من الغريزة والجسد، سواء في كينونته الفردية أم في تركيبه الجماعي، كما أن إهمال الجسم أو الغرائز لا بدّ أن يعود بالضرر إلى مصالح الروح ذاتها.

ولقد رأيت كلاماً رائعاً ودقيقاً في هذا الصدد لشاعر باكستان وفيلسوفها محمد إقبال، من خطبة كان قد ألقاها في المحفل السنوي للرابطة الإسلامية في مدينة (الله أباد) عام ١٩٣٠، يقول فيه:

«إن الإسلام يقرر أن الإنسان وحدة كاملة، دون فصل في الأحكام والمصائر بين المادة والروح؛ فالقربات التعبدية والمصالح الدنيوية ومساجد العبادة ومناصب الرئاسة وميادين العمل في المادة والروح، إنما هي أجزاء متعددة لكلٍّ واحد؛ فإن هذا الإنسان لم يسكن عالماً نجساً يتحتم عليه أن يتخلص منه بالهجرة إلى عالم روحي نقي، فالمادة التي ترقى بها تعاليم الإسلام وتنظمها، ليست سوى شكل من أشكال الروح ومظهر آخر لها في حدود الزمان والمكان».

وقد نجد بعض الناس، قديماً وحديثاً، يطلقون على الاهتمام بالروح جنباً إلى جنب مع الاهتمام بالجسد وغرائزه، اسم «التصوف». ولست أدري لماذا أكره استعمال هذه الكلمة، مع العلم بأنني متفاعل مع المضمون الحقيقي لها تفاعلاً لا حدود له.

ربما لأن مضمون هذه الكلمة، في حدوده الإسلامية الصحيحة، أعظم بكثير من هذا العنوان الصغير، وربما لأن كلمة «التصوف» هذه، كلمة مطلقة عن الضوابط والقيود، يتسنى لأي رجل من الناس.. صاحب أي بدعة.. صاحب أي نحلة.. صاحب أي فلسفة.. أن يضع من الأفكار ما يشاء، ثم يسقط على أفكاره هذه عنوان التصوف. وكم فعل زنادقة ذلك، ولكم أقدمَ إباحيون على ذلك.

ومهما يكن، فإن الميزان الذي يضع الإنسان من حياته الفكرية والسلوكية على صراط الوسطية والاعتدال، إنما هو

الإسلام في مجموعه؛ ذلك لأن الله عز وجل عندما خاطب الإنسان المبجل في عينه والمكرم لديه إنما نبهه إلى حقائق، وأمره بأوامر، لم تكن في مجموعها أكثر من لباس فصِّل على قدر كيانه، فكأنه يقول له: هذا هو كيانك الإنساني فاعرفه، وذلك هو الثوب المفصل على قدرك فالبسه واعتزّ به، واجعله وقاية لك وحرزاً في رحلة هذه الحياة التي تجتازها فوق هذه الأرض.

وإنما تم نسيج لحمة هذا الثوب وسداه وتم تقويمه وتفصيله، بهدي من كتاب الله وسنة رسوله عليه أزكى الصلاة والسلام، فمن غمّ عليه أمره أو أعوزه أن يعرف كيفية ارتدائه واستعماله، فإنما مرجعه في ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وإنما سبيل الإنسان إلى هذا الالتزام والانضباط، خشية من الله تأخذ بمجامع النفس، وحب مع تعظيم لله عز وجل يهيمن على سويداء القلب. ولا ضير في أن نسميه - بعد ذلك الانضباط والالتزام - بما نشاء؛ فإنما العبرة بالمضمون والمعاني لا بالألفاظ والمباني.

نسأل الله أن يجعلنا بمنه وكرمه من أولئك الذين صدق عليهم قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣].

وبعد..

وبعد، فهل هذه هي كلُّ مشكلاتنا؟...

والجواب أنها ليست كل المشكلات التي نعاني منها، ولكنها - بدون ريب - أهمها وأخطرها.

إنني هنا لم أعرج على المشكلات الجزئية والفرعية الكثيرة في حياتنا، اكتفاء بمعالجة كلياتها التي تنطوي عليها.

وأعتقد أن الأهمية لا تكمن في الاستقصاء، ولا في التفنن في المعالجة وحسن العرض، وإنما تكمن في حسن الاستجابة للحق، لا سيما بعد أن يتضح أنه حق.

ومصيبتنا الاجتماعية، بل الأخلاقية الأولى، أننا نستجيب لعصبياتنا الذاتية وأهوائنا النفسية أكثر مما نستجيب لقرار الحق وحكمه.

قال لي عضو بارز في إحدى الجماعات: أرى أن من الخير ألَّا تتحدث عن أخطاء الجماعة وألَّا تنتقدها في شيء من عثراتها.

قلت: ما هو مصدر هذا الخير، أهو خير خاص بسمعتها ومصلحتها الذاتية، أم خير يعود إلى الإسلام وعامة المسلمين؟

إنني لا أتصوَّر أبداً أن خيراً يعود إلى الإسلام أو المسلمين من وراء التستُّر على أخطائهم أو التبرير لانحرافاتهم.. إذن لا شكَّ أن الخير الذي تعنيه إنما يتمثل في المصالح الشخصية العائدة لأفراد هذه الجماعة أو كيانها.

ومعذرتي في عدم الاستجابة لهذه النصيحة أنني لم أكن يوماً ما مدافعاً أو محامياً عن مصالح الأشخاص، لا بأجرٍ ولا بدون أجر.

ثم قلت: إن من حق الجماعات والفئات الأخرى، على اختلافها، أن تغار هي الأخرى على سمعتها ومصالحها الشخصية أو الذاتية، وتطلب مني الأمر ذاته، فما الذي يرجِّح أحقيّة الاستجابة لطالب دون آخر؟!..

أما إن كان المطلوب هو الانقياد لرغبات الجميع وأهوائهم، فما لك لا تقول المقصود بعبارة موجزة جامعة، حتى يتضح المبهم ويزول الإشكال؟ والعبارة المقصودة الجامعة هي:

دعك من تضاريس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كنت لا بدَّ فاعلاً، فوجِّه سهام الأوامر والنواهي إلى سدّة الحكم ورجاله فقط؛ تنل نياشين البطولة وثناء المادحين.

* * *

إنني وقد أوضحت هذه الطائفة الهامة من المشكلات التي نعاني منها، أودُّ أن أوضح أمرين اثنين:

أولهما: أن هذه المشكلات، نابعة من أنفسنا وأنها أخطاء ذاتية، نحن الذين نتحمل تبعاتها، وليست نابعة، بحال من الأحوال، من الإسلام الذي ندين به أو من أي من المبادئ والقيم التي يتضمنها.

ثانيهما: أني متهيئ بكل قبول وشكر، لمناقشة هذه المشكلات من حيث ذاتها، أو من حيث السَّبيل الذي ارتأيته لمعالجتها، بميزان البحث عن الحق أيّاً كان وكيفما كان، بعيداً عن التطواف حول الذات، والدفاع عن الأهواء والعصبيات.

ولكني لست مهيّأً أبداً، للانقياد إلى منطق الشهوات والأهواء وطيّ واجب النصح لله.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه، من حديث تميم بن أوس الداري: «الدِّين النَّصيحة، قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

مستخلص

يطرح هذا الكتاب على بساط البحث عدداً من أهم المشكلات التي يعاني منها المجتمع الإسلامي المعاصر، متعددة المنازع؛ اجتماعية ودينية وثقافية وسياسية؟

في الكتاب ثماني مشكلات أساسية، بدأها المؤلف بمشكلة ((الجدلية المضنية بين المعلم والتلميذ))، تعرض فيها لمسألة حياديّة العلم الذي يجب أن لا يحابي فيه الداعية إلى الله أحداً، بل يتبع الحكمة فيما يقول. ثم أوضح في مشكلة ما يسمى ((الثوابت والمتغيرات في الإسلام)) بأن الإسلام كله ثوابت إلا أن المتغير هو الحال المطبق على الحكم، وحذر من إطلاق الكلام على عواهنه. وفي مشكلة ((الانشغال عن واجب الدعوة بأحلام المجتمع الإسلامي)) تحدث عن انصراف الدعاة إلى آفاق من الأوهام بفهم مغلوط. وبيَّن في مشكلة ((الوجود الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد)) ما رُسم للمسلمين من خطط للقضاء على دينهم بعدما انهارت الشيوعية.. وتساءل عما أعده المسلمون لمواجهة الخطر الجديد. وأشار في مشكلة ((المعرفة وعلاجها في حياتنا الفكرية المعاصرة)) إلى ضرورة الأخذ بالمنهج السليم، وبيَّن صفاته، وتحدث خلال ذلك عن واقع الحركة الفكرية المعاصرة، وحقيقة العلم والمعرفة وأسلمة المعرفة ودور العقل والنقل في تحصيل العلوم. وفي مشكلة ((العلاقة بين العلم والدين)) أكد الصلة بينهما، وعرَّف مصطلح العلم وأشار إلى العلم والواقع وتساءل هل يوصل العلم إلى اليقين الديني؟ وفي مشكلة ((الثقافة الإسلامية وخصائصها)) عرَّف الثقافة عموماً وتحدث عن أثرها في الحضارة وبين خصائص الثقافة الإسلامية. وفي مشكلة ((العلوم الإنسانية في كثير من جامعاتنا)) بيَّن خطر هذه العلوم في الغزو الثقافي باعتبار أن القاعدة الفكرية التي تعتمد عليها هذه العلوم هي التي توجهها.

وألحق المؤلف بهذه المشكلات ثلاثة بحوث على هامش مشكلة التوفيقات المذهبية؛ أولها عما قاله في مهرجان الإمام علي كرم الله وجهه، وعن العقيدة التي كانت أساس توحيد فغدت أداة تفريق، وعن الوسطية التي تحلّ مشكلة التطرف.

كان أسلوب المؤلف في كل مشكلة أن يعرضها أولاً، ويأتي بشواهد توضيحية من الواقع الذي يعيشه، ثم يبين الخطر الكامن وراءها، ثم يخلص إلى النتائج.